نصوص معاصرة

فصلية تعنى بالفكر الديني المعاصر

العدد السادس والعشرون، السنة السابعة،

ربيع ٢٠١٢م، ١٤٣٣هـ

رئيس التحرير

حيدر حب الله

مدير التحرير

محمد عباس دهيني

المدير العام

علي باقر الموسى

الهيئة الاستشارية (أبجديا)

زكي الميلاد السعودية

عبد الجبار الرفاعي العراق

كامل الهاشمي البحرين

محمد حسن الأمين لبنان

محمد خيري قيرباش أوغلو تركيا

محمد سليم العوا مصر

محمد علي آذرشب إيران

تنضيد وإخراج

papyrus

البطاقة وشروط النشر

- نصوص معاصرة، مجلة فصليّة تعنى ـ فقط ـ بترجمة النتاج الفكريّ الإسلاميّ إلى القارئ العربيّ.
- ترحّب المجلّة بمساهمات الباحثين في مجالات الفكر الإسلاميّ المعاصر، والتاريخ، والأدب، والتراث، ومراجعات الكتب، والمناقشات.
- يشترط في المادة المرسلة أن تلتزم بأصول البحث العلمي على مختلف المستويات: المنهج، المنهجيّة، التوثيق، وأن لا تكون قد نشرت أو أرسلت للنشر في كتاب أو دوريّة عربيّة أخرى.
- تخضع المادة المرسلة لمراجعة هيئة التحرير، ولا تعاد إلى صاحبها، نشرت أم لم تنشر.
- للمجلّة حقّ إعادة نشر المواد المنشورة منفصلةً أو ضمن كتاب.
- ما تنشره المجلّة لا يعبِّر بالضرورة عن وجهة نظرها.
- يخضع ترتيب المواد المنشورة لاعتبارات فنية بحتة.

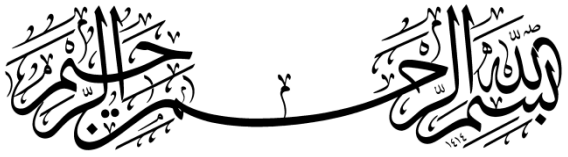

فصليّة فكريّة

تعنى بالفكر الديني المعاصر

❐ المراسلات

لبنان ـ بيروت ـ ص. ب: ٣٢٧ / ٢٥

www.nosos.net

البريد الإلكتروني: info@nosos.net

❐ التنفيذ الطباعي ومركز النشر:

مؤسسة دلتا للطباعة والنشر، لبنان ـ الحدث ـ قرب مستشفى السان تريز ـ مفرق ملحمة كساب ـ خلف المركز الثقافي اللبناني ـ بناية عبد الكريم وعطية ـ تلفاكس: ٠٠٩٦١٥٤٦٤٥٢٠

البريد الإلكتروني: deltapress@terra.net.lb

❐ وكلاء التوزيع

❖ لبنان: بيروت، مشرفية، مقابل وزارة العمل، سنتر فضل الله، ط٤، شركة الناشرون لتوزيع الصحف والمطبوعات، هاتف: ٢٧٧٠٨٨(٩٦١٣+).

❖ مملكة البحرين: شركة دار الوسط للنشر والتوزيع، هاتف: ١٧٥٩٦٩٦٩(٩٧٣+).

❖ جمهورية مصر العربية: مؤسسة الأهرام، القاهرة، شارع الجلاء، هاتف: ٢٦٦٥٣٩٤.

❖ الإمارات العربية المتحدة: دار الحكمة، دبي، هاتف: ٢٦٦٥٣٩٤.

❖ المغرب: الشركة العربية الإفريقية للتوزيع والنشر والصحافة(سبريس) ٧٠ زنقة سجلماسة، الدار البيضاء.

❖ العراق: بغداد (الكاظمية)، مكتبة أهل البيت؛ البصرة، سوق العشار، مكتبة الزهراء؛ النجف، سوق الحويش، مكتبة الغدير.

❖ سوريا: مكتبة دار الحسنين، دمشق، السيدة زينب، الشارع العام، هاتف: ٩٣٢٨٧٠٤٣٥(٩٦٣+).

❖ إيران: قم، مكتبة پارسا، خيابان إرم، سوق القدس، الطابق الأرضي، ت: ٧٨٣٢١٨٦(٩٨٢٥١+)؛ ومكتبة الهاشمي، كذرخان، هاتف: ٧٧٤٣٥٤٣(٩٨٢٥١+)؛ ودفتر تبليغات «بوستان كتاب»، هاتف: ٧٧٤٢١٥٥(٩٨٢٥١+).

❖ تونس: دار الزهراء للتوزيع والنشر، تونس العاصمة، هاتف: ٠٠٢١٦٩٨٣٤٣٨٢١

❖ شبكة الإنترنت، مكتبة النيل والفرات: http://www.neelwafurat.com

❖ المكتبة الإلكترونية العربية على الإنترنت: http://www.arabicebook.com

❖ بريطانيا وأوروبا، دار الحكمة للطباعة والنشر والتوزيع: United Kingdom

London NW1 1HJ. Chalton Street 88. Tel: (+4420) 73834037.

محتـويات

العدد السادس والعشرين، ربيع ٢٠١٢م، ١٤٣٣هـ

السيد محمد باقر الصدر، مكوّنات المشروع الفكري الإسلامي

حيدر حب الله ٥

ملف العدد: الإمام الصدر ومشاريع النهضة في الفكر الإسلامي/١/

الإمام الصدر ومعالم مشروع نهضوي

حوار مع: السيد كاظم الحائري ترجمة: علي عباس الوردي ١٣

الشهيد الصدر والمنجز الفكري والحضاري

الشيخ محسن الأراكي ترجمة: نظيرة غلاب ٢٦

السيد الشهيد الصدر في وجهٍ مشرق آخر

حوار مع: حرم السيد محمد باقر الصدر ترجمة: نظيرة غلاب ٦٠

السنن التاريخية عند السيد الصدر، خطوة منهجية نحو استكشاف فلسفة التاريخ في القرآن

ميرزا محمد مهرابي ترجمة: نظيرة غلاب ٨٣

الاقتصاد الإسلامي في فكر الشهيد الصدر

أ. مجيد مرادي ترجمة: علي عباس الوردي ١٠٢

التفسير الموضوعي، مآزقه وإشكاليّاته

الشيخ علي سراقي ترجمة: نظيرة غلاب ١١٥

أطروحة (مجتمعنا) في تراث الصدر: الدواعي، المنهج، النتائج

السيد منذر الحكيم / أ. عذرا شالباف ١٣١

دراسات

عالم المثال ودوره في معالجة أزمات الإنسان المعاصر، مطالعة في وجهة نظر هنري كوربان

د. السيد محسن ميري ترجمة: علي آل دهر الجزائري ١٤٧

زحف اللاعقلانية وهيمنة الأخطاء التاريخية، قراءة نقدية في كتاب «في محضر الشيخ بهجت»

الشيخ جويا جهانبخش ترجمة: السيد حسن علي البصري ١٦٩

نظرية الحداثة عند الإمام الخامنئي

د. الشيخ عبد الحسين خسروپناه ترجمة: صالح البدراوي ٢٠٨

سليم بن قيس الهلالي، حقيقة واقعة أم شخصية مصطنعة؟

د. عبد المهدي جلالي ترجمة: نظيرة غلاب ٢٢٦

سليم بن قيس الهلالي فوق الشبهات، مطالعة نقدية في مقالة «سليم بن قيس...»

الشيخ علي إلهي الخراساني ترجمة: نظيرة غلاب ٢٦١

دور الضرائب الإسلامية في النمو والاستقرار الاقتصادي

د. الشيخ حسن آقا نظري ٢٨٢

قراءات

النقد الحديثي عند الشيعة الإمامية، قراءة في كتاب «مشرعة بحار الأنوار»

الشيخ محمد تقي أكبر نجاد ترجمة: نظيرة غلاب ٣٠٢

السيد محمد باقر الصدر

مكوّنات المشروع الفكري الإسلامي

حيدر حب الله

سعى السيد محمد باقر الصدر(١٤٠٠هـ) للعمل على أكثر من جبهة من جبهات الفكر الإسلاميّ:

١ـ فعلى صعيد البناءات العقلية سعى الصدر لإعادة تكوين العقل الفلسفي والمنطقي، فعمل على الكشف عن قصور المنطق الأرسطي عن تفسير الظاهرة المعرفيّة وتصويبها لوحده، وإنْ اعترف بدوره الكبير في المعرفة الإنسانيّة، لكنّه رأى فيه ـ على المستوى العمليّ ـ بنيةً عقليّة قاصرة عن إمكانيّة التوظيف لخدمة القضايا المختلفة. وقام الصدر وفقاً لذلك بتقديم مشروعه في المذهب الذاتي للمعرفة، وهو مشروع يعتمد نظريّة الاحتمال وقواعده، فيلتقي مع علم الرياضيّات، ويحاول أن يفسِّر الذهن البشريّ ونشاطاته الفكريّة على أساس مرحلتين:

إحداهما: التي تسمّى بمرحلة التوالد الموضوعي، والتي يسير الفكر فيها من المفردات والجزئيّات، فيتصاعد في القوّة الاحتمالية التي يملكها وفقاً لأصول موضوعيّة تلعب القواعد الرياضيّة دورها فيها.

وثانيهما: مرحلة التوالد الذاتي، التي يحاول فيها السيد الشهيد محمد باقر الصدر أن يصنع اليقين العلميّ بالأمور، ويعطي للاستقراء دوره المعرفيّ في مقابل التيّارات الشكّيّة والترجيحيّة. فهذه المرحلة عنده يأخذ فيها الذهن نشاطاً مستقلاً عن القواعد الرياضيّة الصارمة، والمعايير الموضوعية الحاسمة، لكي يقفز ـ وفقاً لبنيته الذاتيّة ـ من مرحلة إلى مرحلة.

لقد حاول الصدر أن يخوض في مشروعه هذا غمار تحليل جهاز الإدراك

البشريّ، فكانت مسيرته تنطلق من نقطة الصفر، غير محمَّلة بحمولات فلسفة بعينها، ونمط تفكير مدرسة فكريّة خاصّة. وهو إذا لم يقدّم الكثير من الإضافة في المشهد العالميّ لهذا الموضوع فقد قدّم إضافات غير عاديّة عندما نقرأ تجربته في السياق الشرقيّ والإسلاميّ.

لقد ترك مشروع الصدر في المذهب الذاتيّ للمعرفة أثراً على تقارب العلم والدين، وذلّل من العقبات المنهجية والتباعد السياقي والمناخي بين هذين المجالين.

لقد كنّا نأمل أن يحظى مشروع السيّد الصدر المعرفيّ بحضوره اللائق به في المناخ الفكريّ الإسلاميّ، ولو بالنقد والتفنيد، وأن لا يظلّ بعيداً عن الدرس المنطقيّ في المؤسّسة الدينيّة، لكنّ الأقدار تقضي بما لا نريد ولا نشتهي. ونأمل من القيّمين على المناهج التعليميّة في الحوزات والمعاهد الدينيّة، ومن المشتغلين والمختصّين بالدرس العقليّ عامّة، أن يأخذوا موضوع هذا الكتاب بجدّيّة للتعرُّف على هذه التجربة المنطقيّة والفلسفيّة الفريدة في مناخنا الدينيّ؛ بهدف تطويرها أكثر فأكثر، وأن لا يبقوا أسرى مدارس فلسفيّة بعينها بوصفها في الوعي الطلابيّ العامّ حقائق لا تقبل النقد، أو إلهامات إشراقيّة لا يمكن كشف الستار عن أيّة نقطة ضعفٍ فيها؛ فإنّ هذا بعينه منطقٌ معاكسٌ للمنطق الذي يفترض أن تقوم عليه الدراسات الفلسفيّة والمنطقيّة والمعرفيّة الجادّة.

ولم يقف مشروع الصدر عند هذا القدر من الإيجابيّات، بل تعدّاه ليفتح كوّةً في جدار العقل الجزمي، عبر منح المعرفة فرصة الخطأ الواقعي، في الوقت الذي لا يُعمل بهذا الخطأ ولا يهتمّ به من الناحية العملية بحيث لا يوجب تذبذباً أو شكّاً معيقاً عن إمكانية تقدّم المعرفة البشريّة، وقد كان ذلك عبر تعديل الصدر مفهوم اليقين من البرهانيّة إلى الموضوعيّة.

ولم يقف الصدر عند مستوى تكوين النظرية ـ المشروع، بل استمرّ في ممارسة تطبيقات متعدِّدة لرؤيته المعرفيّة هذه مع علومٍ، كالفلسفة والكلام والرجال والفقه والأصول وغير ذلك.

وإلى جانب النشاط المنطقي المعرفي والفلسفي الذي اشتغل عليه الصدر كان

نشاطه الكلامي في العمل على إعادة بَنْيَنَة علم الكلام الإسلاميّ، مستخدماً فيه المنهج الاستقرائي الذي يراه محمد إقبال المنهج القرآنيّ الحسّيّ في معرفة الطبيعة والوجود. وقد كان إقبال انتقد ـ قبل الصدر ـ بشدّة توجُّه المسلمين نحو العقل اليوناني، الذي حمّله مسؤوليّة تراجعهم على مستوى التطوّر العلميّ. وعبر هذا السبيل تمكّن الصدر من الاقتراب من الذهن المعاصِر في تساؤلاته الكلاميّة.

واصل الصدر مسيرته البحثيّة عبر ملاحقة المفردات الكلاميّة الإشكاليّة، ليضع لها حلولاً تفصيليّةً تتبُّعيّةً، منسجمةً مع ذهنيّته الاستقرائيّة. وهو ما جاء في بحثه حول التناقضات المتوهَّمة في سيرة أهل البيت، وموضوعة التعارض بين النصوص الحديثيّة.

وقد كان منهج الصدر في الحوار الكلامي يعتمد الهدوء والموضوعيّة في عرض الآخر ومناقشته، ممّا جعله يخرج البحث الكلامي من الدفاعيّة السجاليّة إلى الحوار العلميّ الهادف والبنّاء.

ولم يفُتْ الصدر أن يأخذ البُعد الاجتماعيّ في أصول الدين، كما في مقدّمة (فلسفتنا) وموجز أصول الدين. وهو ما أراد منه إخراج علم الكلام من التجريديّة للدخول في العملانيّة والواقعيّة.

٢ـ ولو تركنا المجالات العقلية، من المنطق والفلسفة والكلام، وعطفنا نظرنا ناحية الملفّات الاجتهاديّة في العلوم الشرعيّة لرأينا كيف أنّ الصدر اهتمّ في (اقتصادنا) بفقه النظريّة.

إنّ فلسفة وجود فقه النظريّة تكمن **أولاً:** في الحاجة الدفاعيّة، فإنّ العقل المسلم صار بحاجة ـ لكي يبقى ـ إلى نسج رؤى متكاملة عن الحياة، استجابةً لتحدّيات مرحلة الخمسينيات والستينيات؛ لمواجهة خصوم الإسلام السياسي والاجتماعي. وهو ما صرّح به الصدر في (المدرسة القرآنيّة). فالآخر (الشيوعي) قدّم رؤى متكاملة في نظم الحياة؛ ولهذا كان (اقتصادنا).

كما تكمن **ثانياً:** في الحاجة البنائيّة، وهي حاجة المشروع الإسلاميّ لأساسيّات فقه النظريّة؛ لعدم كفاية الفقه الفردي والرسائل العمليّة، فأين فقه

الاجتماع، وفقه الاقتصاد، وفقه السياسة، و...؟! بل إنّ الدستور الذي يُراد بناء النظام عليه هو الآخر بحاجة لفقه نظريّة ونظم. وهذا ما يحرّك عجلة الفقه من الفرديّة إلى الفقه العامّ أو يبلغ بنا التوحيد بين الفردي والعامّ.

أمّا هويّة فقه النظريّة فهي هويّة اجتهاديّة، بمعنى أنّها حقل اجتهاديّ في النصّ. لهذا هو فقه، وليس خارج الفقه أو وراء النصّ. وقد أخطأ مَنْ اعتبره اجتهاداً في مقابل النصّ. وهي أيضاً هويّة معرفيّة تبلغ مستوى التنظير. فالفكر يبدأ من الفهم، إلى النقد، إلى الإبداعات الجزئيّة، إلى تكوين نظريّات، إلى بناء مشاريع فكريّة كبرى.

أمّا الموقع العلميّ لفقه النظريّة فهو التخطّي من فقه المسائل (الأحكام)، والعبور من فقه القواعد أيضاً، ليصل إلى تكوين النظام (فقه النظريّة)، لكنّه لا يعبر الفقه المقصدي بمعناه المتداول اليوم. فالصدر ليس مقاصديّاً بالمعنى المصطلح الخاصّ، لكنّه يساعد على مقاصديّة شيعيّة.

إنّ فقه النظريّة يقوم على مبدأ الترابط، وأنّ تأثيرَ الشيء رهينُ ارتباطه بالأشياء الأُخَر. فالبنك الإسلاميّ يدرس تارةً في سياق إسلاميّ؛ وأخرى في مناخ ربويّ. وهناك ترابط خاصّ (ترابط مسائل = فقه نظرية)، وترابط عامّ (ترابط نظريّات = فقه الهيكل العام / اقتصاد + سياسة + عقيدة). وما يحتاجه فقه النظريّة هو فهمٌ اجتماعيّ للنصوص، ورفضٌ تامّ لكلّ أشكال البتر السياقي لها.

ولفقه النظريّة مراحل ومسارات يتحرّك فيها. فمبدأ الانطلاق والسير يحوي غموضاً وصعوبة في عرض النظريّة، ولا سيّما نتيجة تأثيرات الفقه الفردي، وهيمنة منطق الظنّ في المدرسة الأصوليّة. وهذا معناه أنّنا بحاجة إلى رصد القوانين لاكتشاف المذهب.

وأمّا حركة السير فتكوينها من الأسفل إلى الأعلى، أي من فقه الأحكام والمسائل؛ لتجميعها، وصولاً إلى فقه النظريّة. فنحن في البداية نكتشف التفاصيل والجزئيّات الفقهيّة ذات الصلة، وهي مرحلة معقَّدة، ثم نعمد إلى مرحلة التركيب، أو التحويل من الجزئيّ إلى الكلّي، وهي عملية تجميعٍ منظَّم للمفردات؛ لتكوين رسم فسيفسائي متكامل، لننتهي إلى مرحلة التَبْيِئَة، أو التحويل من الكلّي إلى الجزئيّ،

بوضع الناتج (الكلّي) ضمن المفاصل الفكريّة العامّة (عقيدة + مفاهيم + أخلاق...)، معتبرينه جزئيّاً من ضمن كلٍّ أوسع.

ولكنّ فقه النظرية يواجه مشاكل؛ فهو من جهة يناقض منطق الاجتهاد الذي يشظّي النتائج عبر نظام التنجيز والتعذير؛ ومن جهة أخرى يعتمد ـ من وجهة نظر النقّاد ـ على الظنون والتخمينات والأقيسة والاستحسانات.

ولحلّ هاتين المشكلتين يمكن طرح (الحلّ الخارج ـ اجتهادي)، عبر ما ذكره الصدر نفسه من فتح يد الفقيه لاختيار البدائل الاجتهاديّة عبر صلاحيات وليّ الأمر، أو تقليد الميّت، وغير الأعلم.

ويمكن أيضاً طرح (الحلّ الداخل ـ اجتهادي)؛ إمّا باعتماد نظرية الشيخ شمس الدين، وهي نظرية أدلّة التشريع العليا، وقدرتها على حذف التفاصيل المعيقة لتعبيد الطريق، أو باستخدام المنحى الاستقرائي الذي أشار إلى بعضه الصدر في (المعالم الجديد للأصول)، بحيث يتأمّن لنا الخروج من الجزئيّات بقانون له قدرة الحذف لكلّ مفردةٍ تعاكِس رسم الصورة الكلّية.

٣ـ وبالتحوّل من الفقه إلى الاجتماع نجد قضيّة العلاقة بين المثقَّف والفقيه ماثلةً. فالمثقَّف وعيُه تجريبيٌّ، والفقيه وعيُه نصّيّ. والمثقَّف متحرِّرٌ، والفقيه ملتزمٌ. والمثقَّف ناقدٌ، والفقيه مدافعٌ. الأمر الذي يخلق مشكلةً في العلاقة، وهي علاقة مأزومة تاريخيّاً، تتجلّى في التجربة المعتزليّة تارةً؛ وتجربة الفلاسفة أخرى. وقد ازدادت اليوم تعقيداً بعد تنامي العلوم الإنسانيّة، وانتقال المثقَّف في تموضعه من الخارج ـ ديني (ماركسي و...) إلى الداخل ـ ديني. وقد اهتمّ الصدر أكثر بالمثقَّف الخارج ـ ديني.

والخلاف بين المثقَّف والفقيه يرجع إلى إشكاليّة المنهج (حقيّة نصّيّة أم واقعيّة تجربيّة/ المرجعيّة الماضويّة وسلطان العقل)، وإشكاليّة السلطة، وإشكاليّة الاعتراف المتبادَل. وقد حاول الصدر فكّ هذا الاشتباك، عبر تثقيف الفقيه وتفقيه المثقَّف تارةً؛ وتحرير العلم والثقافة من الوضعيّة بتوحيد المنهج عبر (الأسس المنطقيّة للاستقراء)، مع تحرير الدين من الفقه من خلال انفتاح الصدر على العقليّات والقرآنيّات والسيرة تارةً أخرى، ومبدأ المشاركة من قبل الفريقين في الإدارة الاجتماعيّة عبر تجربة

الحركة الإسلاميّة التي تولاّها الصدر في العراق ثالثةً.

٤ـ **ويبقى ملفّ إصلاح الحوزة والمرجعيّة الدينيّة.** فقد رأى السيد الصدر ـ على صعيد المشكلة الخارجيّة ـ غياباً سياسيّاً واجتماعيّاً (فقدان التواصل) في الحوزة العلميّة، وغياباً للوعي الواقعيّ عبر التعاطي مع الأمور بالذهنيّة الأصوليّة الهندسيّة.

كما رأى ـ على الصعيد الداخلي ـ أزمة برامج التعليم، والأزمة الماليّة، وأزمة الحاشية، و...

أمّا على صعيد المشكلة الأولى فقد حاول الصدر حلّها عبر الحضور السياسيّ والاجتماعيّ، من خلال المساهمة في تأسيس الحركة الإسلاميّة، ومواكبة حركة الإمام الخمينيّ، إلى جانب الحضور في مواجهة الماركسيّة، وتنشيط موضوع الوكلاء، واختيار الشباب الحاضر منهم.

وأمّا على صعيد المشكلة الثانية فقد عمل على وضع برامج تعليميّة، بعد نقد القديم، ككتابه (دروس في علم الأصول)، معلِناً مشروع المرجعيّة الرشيدة القائمة على: المجالس الاستشاريّة، ومجالس الخبراء، والتنظيم الماليّ الدقيق، وكفّ يد العلماء عن الأخذ من الناس، وتأمين حياتهم من جانب المرجعيّة.

وهكذا أراد السيد الصدر تحقيق ارتباط المرجعيّة المباشر بالمشروع السياسيّ الإسلاميّ؛ ليأخذ شرعيّته منها.

وقد كان وضع آماله ببعض المراجع الكبار ليعدل بعد ذلك فيطرح مرجعيّة نفسه.

كلمة أخيرة ـــ

إذا أردنا أن نعرّج بعد هذه الجولة المستعجلة في فكر السيد الصدر على الاهتمام الإيرانيّ بمنجَزات الصدر القيّمة ـ ونحن نعدّ هذا العدد من مجلة (نصوص معاصرة) ـ سنجد أنّ الوسط العلميّ الإيرانيّ في الحوزات والجامعات كان اهتمامه بالسيد الصدر على المستوى الفكريّ والثقافيّ محدوداً، منذ استشهاده وحتّى أواخر التسعينيّات من القرن الماضي.

وقد لوحظ أنّه بعد مجيء الرئيس محمّد خاتمي إلى السلطة كان هناك اهتمامٌ بملف السيد الصدر. وقد أقيم عام ٢٠٠١م مؤتمر عالميّ للسيد الصدر في طهران باهتمام مكتب الثقافة والعلاقات الإسلاميّة، ورعايةٍ خاصّةٍ من مرشد الثورة السيّد عليّ الخامنئيّ.

ومنذ ذلك الوقت بدأ الاهتمام الإيرانيّ بأعمال السيد الصدر، وأخذت المجلاّت والدوريّات والنشريّات تكتب مقالات بحثيّة وغير بحثيّة حوله في مجالات مختلفة. وقُدّم السيد الصدر منذ ذلك الحين بوصفه ناشطاً متميِّزاً في المجال الفلسفيّ والكلاميّ، إلى جانب المجالات الفقهيّة والأصوليّة.

لا أدري بالضبط ما هو السبب في تأخُّر المحافل العلميّة في إيران عن مواكبة الصدر، حتّى أنّ نظريّاته في الفقه وأصول الفقه لم تتلقّاها الحوزات الإيرانيّة بعدُ، اللهمّ إلاّ تلك التي يكون لتلامذة الصدر نفوذٌ مباشرٌ فيها، لكنّني أظنّ أنّ أحد أسباب هذه الانعطافة الإيرانيّة ناحية الصدر ترجع إلى وجود إحساس إيرانيّ عامّ، منذ أواسط تسعينيات القرن الماضي، بضرورة الانفتاح على المنجزات الفكريّة التي تقع وراء الحدود الجغرافيّة لهذا البلد المسلم. وربما يكون ذلك إحساساً من المثقّف الإيرانيّ بأنّ ما عنده يحتاج إلى مزيد من التطعيم والمزاوجة مع ما عند الآخرين. وقد صادفت تلك الفترة انفتاحاً متبادلاً بين إيران والعالم العربيّ، وربما ترك ذلك أثره في هذا الموضوع.

إنّ المحافل العلميّة الإيرانيّة بدأت مؤخَّراً بالانفتاح على الشخصيّات الخارجيّة، لكنّها لم تغطِّ بعدُ مساحةً واسعة من هذه الشخصيات.

فالعلاّمة محمد مهدي شمس الدين ـ مثلاً ـ لم يحظَ بالكثير من اهتمام الباحثين الإيرانيّين في نظريّاته في الفكر الإسلاميّ والاجتهاد الشرعيّ والفقه السياسيّ.

ونجد بعض المراكز الفكريّة في الحوزة العلميّة تهتمّ اليوم ببعض الشخصيّات الأقدم زمنيّاً، وتقيم لها المؤتمرات، وتصحِّح كتبها، وتعقد حولها الندوات، مثل: السيد عبد الحسين شرف الدين، والسيد محسن الأمين، والشيخ محمد حسين

كاشف الغطاء، والشيخ محمد جواد البلاغي، وأمثالهم، وهم شخصيّاتٌ في فترةٍ قديمة نسبيّاً، في حين يستحسن أن يكون الاهتمام بشخصيّات أقرب إلى عصرنا وهمومنا، دون أن يُترَك العمل على تلك الشخصيّات الأقدم، مثل: العلاّمة شمس الدين، والعلاّمة محمد حسين فضل الله، والشيخ محمد جواد مغنيّة، والسيد موسى الصدر، والسيد محمد صادق الصدر (الصدر الثاني)، والشيخ عبد الهادي الفضلي، والسيد هاشم معروف الحسني، والسيد عبد الأعلى السبزواري، والسيد محمد الشيرازي، وغيرهم.

وعندما أنفتح في نقديّتي هذه على الوسط الإيرانيّ فلا يعني ذلك إعفاء الوسط العربيّ من النقد. فصحيحٌ أنّ العرب اهتمّوا مثلاً بالسيد الصدر، لكنْ مع ذلك تظلّ الاهتمامات بشخصيّات أُخَر غيره قليلة للغاية، بل منعدمة أحياناً. هذا إذا أردتُ أن آخذ علماء الدين الشيعة بعين الاعتبار، وأمّا إذا أردتُ أن أوسِّع الدائرة إلى سائر المفكِّرين والشخصيّات العلميّة في العالم العربيّ والإسلاميّ فإنّ الأمر يبدو أوضح.

ورغم ذلك كلّه لم نعد نحبِّذ أن تنشغل المؤتمرات والملتقيات بالأشخاص فقط، بل نرى أن تشتغل على مركزيّة الموضوعات ومحوريّتها، وما يستجدّ من قضايا الفكر والحياة، ويكون الاهتمام بالأشخاص بقدر اقتراب أفكارهم من قضايا عصرنا، وإمكان توظيفها فيها.

وختاماً نودّ أن نتوجه بالشكر الجزيل لفضيلة الشيخ العزيز الأستاذ أحمد أبو زيد حفظه الله تعالى على جهوده المباركة في مساعدتنا في توفير المواد العلمية لهذا الملف الخاص بالسيد الشهيد الصدر، فجزاه الله خيراً.

الإمام الصدر ومعالم مشروع نهضوي

حوار مع: السيد كاظم الحائري(*)

ترجمة: علي عباس الوردي

تعريف بشخص المرجع الحائري ـــ

❁ نتقدم لسماحتكم بالشكر الجزيل على الفرصة التي أتحتموها لنا، ونرجو في البدء أن تتفضلوا بذكر نبذة عن حياتكم العلمية ومسيرتكم الدراسية.

❁ في الفترة التي شرعت فيها بالدراسة كان هناك إلى جانب المدارس الحكومية ما يعرف بالمكاتيب آنذاك، لكنّي لم أدخل المدرسة الحكومية كما لم أشهد المكاتيب، إنّما بدأت منذ الخامسة من عمري بالتعلم على يدي والدتي المكرمة، فهي التي علمتني ألف باء القرآن الكريم، ومفاتيح الجنان للشيخ عباس القمي، وعين الحياة للعلامة المجلسي، وغيرها.

وبعد مضي سنتين من التعليم بين يدي والدتي انتقلت إلى حلقة درس والدي رحمه الله.

وقد طويت السطوح بأكملها على يديه. كما كنت أحضر لدى بعض الأفاضل بشكل متفرّق، لكن أستاذي الأساس كان والدي رحمه الله.

وعندما بلغت السابعة عشرة من عمري شرعت بحضور بحث الخارج في محضر السيد محمود الشاهرودي ومكثت بين يديه ما يقارب الثمانية عشر عاماً، مستفيداً من درسه في الفقه والأصول.

وفي هذه الأثناء تعرفت إلى الشهيد السيد محمد باقر الصدر، وحضرت درسه في الفقه والأصول، وبقيت في محضره مستفيداً لما يقارب الأربعة عشر عاماً.

وفي الأعوام الأخيرة، وعندما اعتزل السيد محمود الشاهرودي رحمه الله الدرس؛

(*) أحد مراجع التقليد الكبار في قم، من أبرز تلامذة الشهيد الصدر، له مؤلفات عديدة في الفقه والأصول والعقائد والأخلاق.

لتقادمه في العمر، اقتصر حضوري على درس الشهيد السيد محمد باقر الصدر.

وفي جمادى الأولى عام ١٣٩٤هـ تركت العراق؛ هرباً من النظام البعثي المعادي للإسلام، وهاجرت إلى إيران، وباشرت منذ ذلك الحين وإلى اليوم بالتدريس في الحوزة العلمية في قم المقدسة.

❁ هل أخذتم عن الشهيد الصدر علوماً أخرى غير الفقه والأصول؟

۞ نعم، إضافة إلى الفقه والأصول أخذت عنه دروساً في الفلسفة والاقتصاد، فقد كنت أقرأ بدقة وتمعُّن كتابيه: (اقتصادنا)؛ و(فلسفتنا)، وكلما طرأت لي شبهة أو واجهني إشكال كنتُ أفد إلى محضره، وأطرحها عليه، فيشرح لي الموضوع بالتفصيل، ويجيب عن أسئلتي.

كما قرأت بين يديه كتاب (الأسس المنطقية) أيضاً.

❁ هل كان لديكم مساهمات علمية أو تعاونٌ علميٌّ مع الشهيد؟

۞ نعم، فقد ساهمت مع سماحته في تدوين جزء من كتاب (الأسس المنطقية). وهو كتاب يتناول حساب الاحتمالات وكيفية إحراز العلم عن طريق تضافر الاحتمالات.

مكانة السيد الصدر في حوزة النجف

❁ بالنظر إلى المدة المديدة التي حظيتم فيها برفقة السيد الشهيد علمياً، كيف تجدون موقع سماحته رحمه الله ومكانته في الحوزة العلمية في النجف الأشرف؟

۞ لقد كان الشهيد الصدر يحظى بمنزلة علمية مرموقة في حوزة النجف الأشرف. لقد كان نابغةً بكل ما لهذه الكلمة من معنى، وعلى أكثر من صعيد. وما يبرهن على ذلك تركته العلمية، ومؤلَّفاته التي تمثِّل أعجوبة حقيقية على مستوى الإتقان والتجديد والريادة. ولا يزال حتى هذه اللحظة بعضٌ من مؤلَّفاته القيمة فريداً من نوعه.

كما كان لأسلوبه التدريسي ميزاته الخاصة، فقد تمتع بالدقة والعمق والشمولية والإحاطة. لذلك ترعرع على يديه تلامذة أكفاء ومرموقون للغاية.

وحين بدأت مشواري معه كان مشغولاً في بحث (الترتّب). وبعد فترة غير طويلة حدثت لي مشاكل أعاقت تواصلي وأربكت مشاركتي في درسه.

فعلمرحمه الله بالأمر، وطلب منيّ الحضور والتواصل، قائلاً: «إذا حضرت هذا الدرس لمدة خمس سنوات أضمن لك الاجتهاد». وهذا يشير إلى قدرته العلمية، ومنهجه التدريسي الذي يؤهّل الطالب لنيل درجة الاجتهاد في غضون فترة وجيزة.

واقع النجف في عصر السيد الصدر

❁ هل لكم أن تصفوا لنا الواقع العلمي والسياسي لحوزة النجف الأشرف في عهد سماحته؟

۞ لقد كان الواقع العلمي لحوزة النجف الأشرف جيداً. فقد كانت هناك جهودٌ علمية ونشاطٌ بحثيّ ملفت. إلاّ أن الواقع السياسي للحوزة لم يكن جيداً، سواء على صعيد الموقف الحكومي إزاءها، المتمثل بالضغوط السياسية التي كان يمارسها البعثيون، والحصار الشديد المفروض عليها، والذي أدّى في النهاية إلى انهيارها، أو على صعيد موقف الحوزة نفسها إزاء الوضع الاجتماعي القائم آنذاك. فللأسف أدّى قصور الوعي، وغياب الرؤية، والإحجام عن مواكبة التطورات السياسية التي كان العراق يمر بها، إلى عدم تمكّن الحوزة من اتخاذ المواقف والقرارات المناسبة.

وقد كان الشهيد الصدررحمه الله وتلامذته، وكذلك الإمام الخمينيرحمه الله لدى إقامته في النجف، يعانون من ذلك بشدة.

المعالم العامة لفكر الصدر

❁ لا شك أن الشهيد الصدر كان من المجددين الكبار، ولديه مساهمات تجديدية مهمة شملت جملة من العلوم، كالفقه والأصول والفلسفة والكلام والمنطق و.. لو أنكم تتحدّثون عن هذا الموضوع، وتستعرضون لنا بعض النماذج.

۞ لقد كتب الشهيد الصدر في مجالات مختلفة، وقدّم للساحة العلمية أعمالاً خالدة، وكان له في كل عمل من هذه الأعمال بصمات تطويرية واضحة. فعلى

الصعيد الفقهي ترك لنا الشهيدرحمه الله (بحوث في شرح العروة الوثقى)، طبع منها أربعة مجلدات. وعلى صعيد الأصول هناك (تقريرات بحثه)، التي حرّرت بأقلام تلامذته الأفاضل، و(بحوث في علم الأصول)، الذي حرّر بقلمه الشريف. وعلى صعيد الفلسفة كتب سماحته كتاب (فلسفتنا)، الذي تناول في بعض أجزائه الفلسفة الجديدة. وفي علم الكلام لديه كتاب (الرسل والرسول والرسالة)، وقد جعلهرحمه الله مقدّمة لرسالته العملية، وتناول فيه جملة من البحوث الكلامية، معتمداً منهج حساب الاحتمالات في مناقشة الأدلة وردّها.

وفي التفسير تبنى سماحته مشروع التفسير الموضوعي للقرآن، ولديه كرّاسين مختصرين لكن مهمّين للغاية في هذا الإطار.

وفي التاريخ لدى سماحته كتاب (فدك)، الذي حرّره في مطلع شبابه، ولديه أيضاً كتاب يتناول فيه جانباً من سيرة الأئمةعليهم السلام تحت عنوان (أهل البيت، تنوع أدوار ووحدة هدف).

وجميع هذه المؤلفات تشير إلى سعة الأفق الفكري الذي كان الشهيد العزيز يتمتع به؛ لما انطوت عليه هذه المؤلفات من إبداع وخلاقية، سواء على صعيد المضمون أو المنهج الاستدلالي والبياني أو على صعيد التصنيف والتبويب والتنظيم أو طريقة استعراضه للبحوث. ولا يسع المقام لاستيعاب كافة صوره الإبداعية، لكني أشرتُ في مقدمة كتاب (تقريرات الأصول) إلى عدد منها. خذوا على سبيل المثال (الفتاوى الواضحة)، التي تمثل رسالته العملية، وقارنوها بنظيراتها من الرسائل، فسيتضح لكم مدى الأفق الإبداعي الذي حقّقه. فهذا الكتاب، أي الفتاوى الواضحة، يبدأ بمقدمة تتناول جملة من القضايا الاعتقادية، وقد طرحت بأسلوب جديد شمل طريقة السرد وطريقة الاستدلال وطريقة استعراض البحوث.

ففي هذا العمل القيّم نجد إضافة إلى الرأي الفقهي إبداعاً وخلاقية في الأسلوب السردي، وفي طريقة تبويب المسائل والموضوعات.

وبالجملة هناك سمتين تميزت بهما مجمل أعماله: **الأولى**: العمق والدقة؛ **والثانية**: الشمول والاستيعاب في تناول الموضوعات. فقد كانت رؤيته للفقه رؤية

اجتماعية، بمعنى أنّه لم يكن يرى الفقه مسؤولاً على الموقف الفردي للمكلّف فحسب، وإنّما يتعدّاه إلى كافة جوانب الحياة. وهذه الرؤية ساهمت في حصول الكثير من الإبداعات، وبإمكانكم رصدها في أعماله الفقهية.

مشروع الصدر الإصلاحي في الحوزة العلمية ـــ

❁ لقد كان سماحته جاداً في مشروع إصلاح الحوزة العلمية في النجف الأشرف، هل بالإمكان أن تتحدّثوا لنا عن ماهية مشروعه الإصلاحي، وعلى ماذا اعتمد بالدرجة الأساس؟ وما هي الجوانب التي كان يركز عليها؟

۞ لقد عقد سماحة الأستاذ في السنوات العشرة الأخيرة من عمره الشريف جلسة أسبوعية في منزله كان يحضرها خيرة تلامذته.

والمواضيع التي كانت تتداول في هذا التجمع الأسبوعي مواضيع تتناول أبرز المشاكل والأزمات الفكرية والثقافية التي تعصف بالحوزة والعالم. ومن المواضيع التي طرحت في تلك الجلسة، وامتدت لجلسات أخرى، موضوع (المرجعية الصالحة والمرجعية الموضوعية)، فقد كان﵀ يولي هذا الموضوع اهتماماً كبيراً. وفي الختام طلب سماحته مني أن أقرِّر خلاصة ما دار حول هذا الموضوع، وبدوري امتثلت لطلبه، وقرّرت خلاصة البحث، وأضفت له بعض الآراء والمقترحات التي دارت على هامش الجلسة، وقدمتها له. وبعد أن ألقى عليها نظره المبارك قام بتحريرها مع بعض الإضافات والتغييرات، وقد أوردت نص ما كتبه في مقدمة كتاب الأصول (تقرير (بحث القطع) الذي ألقاه سماحته).

لقد كان الأستاذ ينظر إلى مشروع إصلاح الحوزة نظرة فوقانية، فهو يرى أنّ مشروع (المرجعية الصالحة وأهدافها) يستوعب كافة التغييرات البنيوية الجذرية للحوزة، كتغيير المناهج الدراسية، والإشراف على الدروس، ومراحل التدريس، وتلبية المتطلبات الفكرية والثقافية للعالم الإسلامي، والإشراف على المراكز العلمية والبحثية التابعة للحوزة، والعلاقات مع الجهات خارج إطار الحوزة و...إلخ.

لذلك فالمشروع يستحق التأمل والبحث، ومن الضروري التعاطي معه من قبل

الحوزويين بشكل جاد.

السياسة التربوية للسيد الصدر ــ

❁ لقد كان الشهيد موفقاً إلى حدٍّ كبير في تربية وإعداد وتنشئة الطلبة. وكثير من الشخصيات العلمية التي لمعت اليوم في الحوزات العلمية، ونجدها تحمل منهجاً وأسلوباً جديداً في العلوم الحوزوية، تنتمي إلى حلقته الدراسية. فبرأي سماحتكم ما هو رمز هذا التوفيق الكبير؟ وما هو المنهج الذي اعتمده الشهيد ليعطي مثل هذه الثمار المباركة؟

❁ لقد كان للأخلاق الحسنة والسجايا الكريمة التي يتحلّى بها الشهيد تأثيرٌ كبير على كلّ مَنْ يتعرّف عليه. وكان أسلوبه في البيان منقطع النظير. كما كان لمقدرته العلمية، واهتمامه الكبير بالتربية العلمية والأخلاقية للطلاب، و...، دورٌ مهمّ في نجاحه بإعداد وتربية الطلاب.

وهنا أودّ أن أذكر موقفاً حدث مع سماحته، قد يعكس لنا صورة عن أخلاقه الرفيعة من جهة، واهتمامه الجادّ بالتربية العلمية والأخلاقية للطلاب. في أحد الأيام، وفي حضور جمع من طلابه الأفاضل، قال سماحته: «إنّ الاقتصار على الفقه والأصول في الحوزة العلمية ليس صحيحاً، عليكم أن تتطلّعوا إلى العلوم الإسلامية المختلفة الأخرى، ولا تقتصروا على الفقه والأصول». وقد اقترح في هذه الجلسة أن يتباحثوا بكتاب (فلسفتنا). وعلى ضوء ما تفضل به سماحته قررنا أنا والإخوة أن نعقد بيننا جلسة لدارسة هذا الكتاب في منزلنا. وحين حل اليوم المقرر أن نبدأ فيه المباحثة سمعت الباب يطرق، فخرجتُ وإذا بي أرى أستاذنا العزيز الشهيد الصدر، فدخل المنزل، وانضم إلى جلسة المباحثة، وقال: «لقد حضرت هذه الجلسة لأنّي اعتقد بعدم وجود جلسة أفضل عند الله من جلسة تُتداول فيها العلوم والمعارف الإسلامية، فأنا أحب المشاركة في مثل هذه الجلسات».

لاحظوا كيف يقوم العالِم الكبير بتشجيع طلابه وحثّهم على طلب العلم، وكيف كان يحظى مَنْ يدرس العلوم الإسلامية ويسعى لتهذيب نفسه بمنزلة في قلبه.

لقد كانت علاقته بطلابه كعلاقة الأب بأبنائه، وليس ككل أب، بل الأب العطوف. فبعد أن هاجر عدد من طلبة الأستاذ الفاضل تحت ضغط نظام البعث الدموي إلى إيران سجّل سماحته شريطاً صوتياً، وأرسله إليهم، وقد تضمّن وصفاً لألم الفراق والبعد عنهم بنحو يندر أن يصف أب مشتاق لولده مثل ذلك الوصف. وقد قال لنا أحد الإخوة، وقد كان حاضراً لدى سماحة الأستاذ الشهيد حين تسجيله الشريط: «حين كانت الجمل تجري على لسان الأستاذ كانت دموعه الشريفة تجري معها، فقد كان يقول: السلام عليكم أيها الأحبة من أبيكم، البعيد عنكم بجسمه، القريب منكم بقلبه، الذي يعيشكم في أعماق نفسه وفي كل ذكرياته...».

وقد أوردت النص الكامل لهذه الرسالة، إلى جانب عدد من الرسائل الأخرى التي بعثها إلى طلبته، في مقدمة كتاب الأصول. وستكتشفون لدى قراءتها حقيقة الصلة والعلاقة العاطفية التي تربطه بطلبته، والتي نادراً ما تجدها بين طالب وأستاذ، أو بين أب وابن.

❁ إضافة إلى الأعمال التي تركها الشهيد الصدر ما هي الأعمال الأخرى أو المواضيع التي كان ينوي أن يخوض فيها؟

۞ لقد كان عازماً على تأليف موسوعة في فقه المعاملات تتضمّن مقارنة مع القوانين الغربية.

وقد كان يولي هذا الموضوع أهمية كبرى؛ لأنّه كان يريد من هذا العمل إظهار تفوُّق القوانين الإسلامية على نظيرتها الغربية. لكن للأسف الشديد فإن الانشغالات التي طرأت عليه في أواخر عمره الشريف وشهادته حرمت المجتمع العلمي من هذه المجموعة القيّمة.

ولو وفّق سماحته أنْ يمنح العالم الإسلامي مثل هذه الموسوعة القيّمة لكان بالإمكان حلحلة الكثير من العقد في باب المعاملات، ولتسنّى للقانون الإسلامي أن يحتل موقعه المتميّز على الصعيد العالمي.

أفكار صدرية لم تسمح الظروف بها ـــ

❁ هل كان لسماحته رؤية معينة حالت الأجواء التي كانت سائدة في حوزة

النجف الأشرف دون طرحها؟

۞ لقد كانت فكرة وجوب تشكيل الحكومة الإسلامية من الأفكار التي كان سماحته يتداولها بين خواص طلبته، ولم تكن الأجواء السائدة في الحوزة تسمح بطرحها في المحافل العامة للحوزة؛ ذلك أن معظم الطلبة والعلماء لم يكن باستطاعتهم تقبل فكرة الحكومة الإسلامية قبل ظهور الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف. كما أنّ الشهيد لم يكن حينها متصدِّياً للمرجعية كي تسمع له الحوزة وتطيع. من هنا حين بدأ الإمام الخميني، وهو في مقام المرجعية، بحث موضوع الحكومة الإسلامية في النجف الأشرف سُرّ الشهيد الصدر سروراً بالغاً، وأيَّد ذلك بشدة.

۞ منذ متى بدأ الشهيد الصدر الخوض في القضايا السياسية؟

۞ حسب ما أعرف فإنّ مساعيه ومواقفه السياسية تعود لمرحلة الفتوة لديه. فمنذ مطلع شبابه؛ ونظراً لما كان يتميّز به من فطنة وذكاء وحرص على الإسلام والمسلمين، لم يكن باستطاعته أن يتجنّب القضايا السياسية وما كانت تشهده الساحة العراقية والعالمية، لذلك نجده دخل السياسة وهو لا يزال فتياً في ريعان شبابه.

۞ هل بالإمكان أن تشيروا إلى بعض مساعي سماحته الاجتماعية ومواقفه السياسية؟

۞ لقد كان سماحته يدعم كل مسعى إسلامي إيجابي. فقد كان ـ قدر المستطاع ـ يواصل دعمه لكل مجهود سياسي أو اجتماعي صالح. فعلى سبيل المثال: كان يدعم فكرياً وعلمياً مدرسة العلوم الإسلامية، التي أسسها السيد الحكيم؛ نظراً لبرامجها المتميزة.

وكان يدعم فكرياً وعلمياً كلية أصول الدين، التي كانت تتبع المنهج الأكاديمي الحديث، وحرّر لها كتاب (المعالم الجديدة) كمنهج يدرّس في هذه الجامعة.

كان لدى سماحته تعاوناً مع التيارات الإسلامية التي أسسها كبار العلماء في النجف الأشرف، كـ (جماعة العلماء في النجف الأشرف)، التي تأسست في عهد عبد الكريم قاسم على يد ثلّة من كبار علماء النجف؛ لتمارس دوراً اجتماعياً وسياسياً.

وقد كان الشهيد الصدر حينها في فترة شبابه، ولم يكن عضواً في (جماعة العلماء)، لكنْ كان لديه تعاونٌ وتواصل علمي وفكري مع هذه الجماعة، وكان يثري مجلة (الأضواء) التابعة لهذه الجماعة بمقالاته. وكانت مقالاته تنشر تحت عنوان (رسالتنا)، وتعدّ أبرز وأهم المقالات المنشورة في هذه المجلة، بل إنها كانت بمثابة خارطة الطريق التي تحدد المسار العام لـ (جماعة العلماء).

كما ساهم سماحته في تأسيس حزب الدعوة، وهو أحد الأحزاب السياسية.

الأمر الآخر الذي كان الشهيد يسعى له بشدة هو تأسيس حوزة علمية صغيرة في وسط الحوزة العلمية في النجف. ولو كتب لهذا المشروع النجاح كما كان قد قرر له، ولو سمح عمره الشريف بذلك، لكان أحدث انقلاباً في الحوزة، ولاحتلّت الحوزة الجديدة مكان الحوزة الحالية.

ومن أنشطته الأخرى ومساعيه السياسية التخطيط للإطاحة بنظام البعث، والعمل على هذا الأمر، وهو ما أدى في النهاية إلى استشهاده.

أمّا كتاباه (فلسفتنا) و(اقتصادنا) فقد مثّلا ردّاً دقيقاً وشاملاً على الاتجاه الماركسي الإلحادي الذي كان قد ألقى في تلك الحقبة ظلاله المخيفة على الدول الإسلامية، والاتجاه الرأسمالي الغربي الذي أخذ يكتسح العالم.

❁ متى بدأ يتبلور موقف الشهيد الصدر في التصدّي لحزب البعث؟ وما هو منهجه في المواجهة؟

۞ لقد اتخذ الشهيد الصدر موقفه المناوئ لحزب البعث منذ وصول الأخير إلى سدة الحكم. وكان أوّل مَنْ أصدر أمراً بتغيير المواجهة السلمية إلى المواجهة المسلحة هو الشهيد الصدر. وكان هو الوحيد الذي يرى وجوب الكفاح المسلح ضد البعثيين، وهو الأمر الذي تبناه حزب الدعوة فيما بعد.

الإمامان الصدر والخميني، علاقة وطيدة

❁ لقد كان الشهيد الصدر من أبرز مؤيِّدي الثورة الإسلامية بكل إخلاص وتفانٍ وشجاعة، يا حبذا لو تتحدثون لنا عن بعض ملامح علاقته بالإمام الخميني والثورة الإسلامية.

۞ لقد كان سماحته من المؤيدين للإمام الخميني طيلة مكوثه في العراق. وفي بعض المراحل لم يكن هناك مَنْ يقف إلى جانب الإمام الخميني سوى الشهيد الصدر. أذكر أنه حين عزم حزب البعث على إخراج الإمام من العراق تمت محاصرة داره بقوة أمنية كبيرة، بحيث لم يجرؤ أحد أن يمرّ في الزقاق الذي كان يقع فيه دار الإمام، فكيف بمَنْ يزوره! لكن الشهيد الصدر كان المرجع الوحيد الذي أعلن تأييده وإسناده ودعمه للإمام الخميني في أشد اللحظات حساسية وخطورة، وقام بالتوجه لزيارته واللقاء به في ذلك اليوم، وعندما قالوا له: إنّ دار الإمام محاصرة بشدة من قبل الأجهزة الأمنية، ولا يسمحون لأي شخص بالمرور، كان يجيب: لابدّ أن أذهب، وليحصل ما يحصل. وعندما ألقي القبض عليه كان من جملة التهم التي وجهت له، وتم تعذيبه عليها، هو هذه اللقاءات. وبعد انتصار الثورة الإسلامية عزم الشهيد الصدر على دعمها بكافة الأشكال، سواء بالمواقف أو بالفكر، وكان يوصي تلامذته بوجوب دعم الثورة الإسلامية والإمام الخميني. والذي يشير إلى ذلك مجموعة مقالاته التي أصدرها آنذاك تحت عنوان (الإسلام يقود الحياة)، التي عالج فيها جزءاً مهمّاً من المتطلبات والعقبات الفكرية التي واجهت الثورة الإسلامية، وكذلك هي الرسائل التي بعث بها إلى طلبته في إيران، والخطابات التي وجهها إلى الشعب الإيراني، والدعم الذي قدمه له. لقد كان الشهيد الصدر يكنّ احتراماً شديداً للإمام الخميني، ويؤمن به وبمنهجه من صميم قلبه. ينقل عنه أنه قال ما مضمونه: «لو أمرني الإمام الخميني أن أصبح وكيله في قرية من القرى لامتثلت لأمره».

ومن أخطر التهم التي سجلت في ملفّه في أمن بغداد هو علاقته الوطيدة وحبّه وإخلاصه للإمام الخميني والثورة الإسلامية.

ذكرياتي مع السيد الصدر

❁ حدثونا عن بعض ذكرياتكم ومواقفكم مع الشهيد الصدر؟

۞ الذكريات كثيرة، لكني أشير هنا إلى بعضها:

١ـ قال لي يوماً: «عندما ألفت كتاب (فلسفتنا) أردت أن أطبعه باسم (جماعة

العلماء)، لكن كانت لديهم بعض الآراء المعينة للتعديل على الكتاب أو إصلاحه لم تكن مقبولة من وجهة نظري، لذلك قررت أن أطبعه باسمي. والآن، وبعدما طبع الكتاب، ونال هذا الحجم من الشهرة لدى الخاص والعام، وأصبح مؤلفه ذائع الصيت ومشهوراً في كل مكان، أحياناً أفكّر في نفسي: لو كنت أعلم قبل أن أطبع الكتاب بما سيناله من شهرة واستقبال يا ترى هل كنت مستعداً أن أطبعه باسم (جماعة العلماء) دون أن يذكر اسمي عليه؟ إنّ هذا الشك في مدى استعداد النفس للقيام بمثل هذا العمل يؤلمني كثيراً».

وعندما كان سماحته يتحدث عن حالته المعنوية تلك كان يتألم كثيراً، لدرجة أنّه كان على وشك البكاء، رغم أن ذلك لم يكن سوى شك، لكنّ خوفه كان طروء مثل هذا الامتحان دون أن يكون مستعدّاً له. لاحظوا كم هو الفارق!

٢ـ الموقف الآخر الذي أذكره عن هذا العالم الكبير يشير إلى قمّة تواضعه وطهارة نفسه وسمو روحه: كان للأستاذ تلميذ بدأ يبتعد عن درسه ومنهجه الفكري، ويخالفه ويناوئه، لدرجة أنّه أصبح يتحدّث عن الأستاذ بسوء، والأستاذ يعلم بذلك. وفي يوم من الأيام، وبينما كنت في محضره المبارك، صادف أن فتح حديث ذلك الطالب، فقال سماحته ما مضمونه: «بالنسبة لي لا زلتُ أرى عدالة ذلك الشخص، وأمّا كلامه عنّي فمنشؤه خطأ في التصور الذي يحمله عني، لا عن مسامحة في الدين». وعندما بدأ البعثيون بتهجير طلبة العلم الإيرانيين من العراق قسراً رأيت أحد هؤلاء الطلبة حضر لتوديع أستاذنا الشهيد، وكان هذا الطالب على خلاف مع الأستاذ، ولم تكن علاقته حسنة به، لكن الأستاذ حين قام بتوديعه بكى بكاءً شديداً، حتى ليظنّ الناظر أنّه يفارق أقرب المقرّبين إليه، وكأنّ الذي كان بينهما لم يكن.

٣ـ وقد امتازت حياته الشريفة في كافة مراحلها بالزهد والمشقة، سواء في مرحلة طلب العلم أو مرحلة التدريس أو مرحلة تصدّيه للمرجعية.

لقد كان يقول ما مضمونه: «كنت أعاني أيام الدراسة فقراً شديداً، لكن حين كنت أستيقظ صباحاً كنت أنهمك في الدراسة والمطالعة لدرجة أنسى معها كل شيء حتى يحين موعد الطعام، وتبدأ العائلة بمطالبتي، عندئذٍ كنت أبدأ بالتفكير

حيال ذلك».

وعندما أصبح مدرّساً معروفاً لم يطرأ تغيير على حياته، وبقي يعيش في العسر الشديد. ففي الأجواء الملتهبة لصيف النجف لم يكن الأستاذ الشهيد يملك أي جهاز للتبريد في منزله. كما أنّ محل درسنا كان في مقبرة آل ياسين، ولم تكن هي الأخرى تحوي جهازاً للتبريد، وكان عرف الحوزة العلمية آنذاك يقضي بعدم توقف الدروس في فصل الصيف. وفي أحد الأيام زاره السيد عبد الغني وقال له: «سيدنا، إنّ الطلبة الذين يحضرون درس سماحتكم يعانون معاناة كبيرة بسبب شدة الحر، أرجو أن تسمحوا لي بأن أشتري لكم مكيف هواء (مبردة)، وأضعها في محل الدرس. وبالإمكان أن أشتريها بسعر زهيد جدّاً وبالتقسيط، بحيث لا يتجاوز القسط دينارين شهرياً».

وحياءً من أن يجيبه بأنّ وضعنا المادي لا يسمح اختار سيدنا الأستاذ الصمت، لكن السيد عبد الغني رحمه الله فهم من صمت الأستاذ القبول، فذهب واشترى جهاز التبريد (المبردة). وحين سمع الأستاذ بشراء المبردة ارتبك وتغيّر لونه؛ لأنّه بقي متحيّراً في كيفية تسديد هذا المبلغ.

أمّا في مرحلة تصدّيه للمرجعية، وحين كانت ترده الحقوق الشرعية، كان يقول ما مضمونه: «لقد فهّمت ابنتي (مرام) بأنّ هذه ليست أموالنا؛ كي لا تعتقد بأنّ لها حقّ التصرف الشخصي بها. لذلك حين كانت هذه الطفلة تلتقي بالآخرين كانت تقول لهم: إنّ أبي يملك أموالاً كثيرة، لكنها ليست له!».

٤ـ لقد كان يربي أولاده بحيث كان يقول ما مضمونه: «قسماً بروح ابنتي (مرام)، لقد زرعت في نفسها بغض الصهاينة منذ الطفولة؛ لذلك عندما كنت أتحدث لها عن جرائم الصهاينة وظلمهم للمسلمين كانت تحزن وتتألم كثيراً، وحين أعقب ذلك بالحديث عن شجاعة المسلمين ووقوفهم في وجه الصهاينة كانت أساريرها تتفتّح وتغمرها البهجة».

٥ـ وهنا أودّ أن أنقل لكم قصة تعكس مدى علاقة أستاذنا الشهيد بمولى الموحدين علي عليه السلام، نقلها لي بنفسه، قال: «حين كنت طالباً كنت مداوماً على زيارة

حرم أمير المؤمنين عليه السلام يومياً لساعة واحدة، وكنت أجلس هناك وأغرق في التأمل في القضايا العلمية؛ أملاً في أن أستلهم من بركات الإمام عليه السلام وأجد حلاً لمعضلاتي العلمية. ولم يكن أحد يعلم بنيتي تلك، إلى أن قطعت تلك العادة، فرأت أمي أو امرأة أخرى من أسرته ـ والترديد مني ـ في عالم الرؤيا الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يقول لها ما مضمونه: قولي لباقر: لماذا ترك الدرس الذي كان يأخذه عنّا؟».

❁ في إطار إحياء فكر هذه النابغة الإسلامية الكبرى ما الذي تقترحونه؟

۞ لابدّ للحوزة العلمية أن تتبنى مشروع الفقه المقارن الذي كان الشهيد الصدر عازماً على تدوينه وحال الأجل دون ذلك، وتضعه بين يدي المفكرين والمراكز العلمية والبحثية. كما على الحوزة العلمية أيضاً أن تسير باتجاه تحقيق ما كان يطمح إليه هذا الرجل العظيم.

❁ نتقدم بأتم الشكر والتقدير لسماحتكم على إتاحتكم هذه الفرصة، ومنحنا من وقتكم الشريف، وصبركم على أسئلتنا، ونسأل الله القدير أن يمدّ في عمركم، ويوفقكم، ويرفع منزلتكم، ويزيد شأنكم.

۞ وأنا بدوري أشكركم أيضاً.

الشهيد الصدر والمنجز الفكري والحضاري

الشيخ محسن الأراكي(*)

ترجمة: نظيرة غلاب

تمهيد ـ

عندما أدركت الصحوة الإسلامية ضرورة تولي القيادة الفكرية للأمة، وبادرت إلى تحمل هذه المسؤولية، حاولت عرض الطرق السليمة لحل مشكلات الأمة في مختلف الميادين والساحات، والمساهمة الفعلية في إيجاد مشروع نظري يواكب متطلبات العصر، وفي موازاة ذلك يحفظ للأمة هويتها وأصالتها. وقد كان حاضراً في هذه الفعاليات والتنظيمات العديد من مفكّري الأمة المخلصين، لكن التاريخ سجل للشهيد الصدر حضوراً مختلفاً، هو الأرقى والأكبر بامتياز، سواء بلحاظ التخطيط أو بلحاظ المحتوى النظري. واليوم، وبعد أن مضى زهاء نصف قرن على نظرياته وطروحاته، لم يسجِّل التاريخ حضوراً لشخصية أو مدرسة فكرية في نفس ذلك المستوى أو قريبة منه. فقد قدم أفكاراً استوعبت كل الساحات: الفلسفية، والاقتصادية، والاجتماعية. واستطاع الشهيد بنظرياته وأفكاره أن يشغل جانباً كبيراً من الفراغ الفكري الذي قيَّد من حركة وتقدم الصحوة الإسلامية. ولن نغالي إذا قلنا: إن الشهيد السيد محمد باقر الصدر هو المنظِّر الرائد بلا منازع للصحوة، بل سيعتبر عملنا هذا خطوة عادلة ومنصفة في حق هذا العالم الفذّ الذي شحّ التاريخ بأن ينجب مثله.

ربما لا نستطيع مواكبة كل آثار الشهيد الصدر، من مؤلفات وكتابات ونظريات، لكن مَنْ واكب الحالة الفكرية في المجتمع المسلم، وخصوصاً في أواخر

(*) أحد تلامذة السيد الشهيد محمد باقر الصدر رحمه الله، ومن أساتذة الدراسات العليا في الحوزة العلمية، له مؤلّفات عدّة.

القرن العشرين، لابد وأن تسترعي لبّه نظريات وأطروحات الشهيد الصدر؛ نظراً لمكانته العلمية أولاً، ولإسهاماته الفكرية ثانياً، وخصوصاً في مجالات الفلسفة، والاقتصاد، والفقه، وعلم الأصول، هذه الإسهامات، التي تعتبر أرفع ما طرح في الميدان، وأكثرها استيعاباً وشمولية لمعطيات الأمور ومعطيات التحولات الحالية والاستراتيجية للمجتمع الإنساني عموماً، والمجتمع المسلم خصوصاً.

ضمن هذه السطور سنحاول تقديم عرض مجمل لشخصية الشهيد الصدر، مع الإشارة إلى بعض فعالياته الفكرية وإنجازاته، التي أراد بها بناء الشخصية الفكرية للأمة والمجتمع الإسلامي.

السيرة الذاتية للشهيد الصدر ـــ

ولد السيد محمد باقر الصدر في مدينة الكاظمية في العراق في ٢٥ ذي القعدة من سنة ١٣٥٣هـ[١]. وبعد أن أنهى مرحلة الابتدائية سافر إلى النجف، حيث استطاع السيد الشهيد أن يحرق مراحل المقدمات والسطوح ـ وفق النظام الدراسي المعمول به في الحوزة العلمية ـ، معتمداً في ذلك على قدراته الشخصية. ففي سنين عمره الأولى استطاع طي مراحل من الدرس، سواء أثناء تلقّيه للدروس الأولى في الكاظمية أو في النجف. وقد حضر في البحث الخارج أول قدومه إلى النجف وهو لا زال في سنيّ عمره الأولى[٢]، حيث لم يبلغ الثانية عشرة من عمره بعد. وإن القدر المتيقن منه أنه لم يقلّد أحداً من المراجع العظام منذ أوائل بلوغه، حيث كان مجتهداً أو قريباً من الاجتهاد وهو لا زال فتى يافعاً[٣]. وقد صرح أحد علماء النجف الكبار آنذاك بحصول السيد الشهيد على الاجتهاد وهو ابن السابعة عشرة من عمره[٤]. وهذه تعتبر سابقة في تاريخ الحوزة العلمية، ودليلاً ساطعاً على نبوغه وقوة فكره.

لقد تلقّى السيد الشهيد دروس الحوزة على يدي علماء كبار في حوزة النجف الأشرف، وكان كل واحد منهم يعترف بنبوغ السيد وفطنته وسرعة بداهته. وقد بدأ السيد الشهيد التدريس والتأليف في سن مبكرة. وكان كتابه (غاية الفكر في علم أصول الفقه) أول مؤلفاته، التي حوت بعض آرائه في علم الأصول. وكتب إلى جانبه

كتابه (فدك في التاريخ)، حيث بحث فيه بشكل تحليلي بعض الحوادث والوقائع التاريخية التي تلت وفاة النبي الأكرمﷺ. وبعد ذلك توالت كتاباته لمجموعة من المؤلفات، طرح فيها آراء الدين في الجوانب السياسية بشكل يغطي احتياجات المرحلة وبشكل علمي، وقد عرَّف من خلالها بنظريات الإسلام في السياسة، والمنطق، والإدارة، التي أظهرت تفوق النظرية السماوية التي تعتمد على الوحي، وفشل النظريات التي تحاول قطع علاقة البشرية بالوحي، كما هو الحال في الطرح المادي، أو تحاول تقزيمه، كما هو الشأن في الطرح الإمبريالي. لقد بينت أن الطرح القرآني والديني قادر على استيعاب احتياجات المراحل، بل قادر على حمل الإنسان إلى الكمال، من دون أن يضيع الجانب الروحي على حساب المادي، أو المادي على حساب الروحي، بل بيَّن أن النظرية الإسلامية تحفظ للإنسان توازنه، وتحفظ لديه العلاقة بين الأرض والسماء.

حياته وأعماله العلمية

وكانت أول خطوة له ضمن هذه المجموعة كتابه (فلسفتنا)، الذي يعد واحداً من النتاجات الفكرية في الساحة الإسلامية، وقد تفرَّد في طروحاته وفي سبكه بشكل قل له النظير والمثل، وبيَّن فيه نتاجات الفكر الإسلامي في الفلسفة، كما عمل فيه على نقد المدارس الفلسفية الأخرى، وبيَّن مكامن الخطأ والضعف فيها، في مقابل قوة الفلسفة الإسلامية، وقوة المنطق الإسلامي واستحكامه. كما بيَّن فيه فشل النظريات الفلسفية المادية وغيرها، وعدم قدرتها على إيصال الإنسان إلى الكمال، وفي المقابل تفوُّق الفلسفة الإسلامية، معتمداً في كل هذا على الدليل والبرهان.

وبعد (فلسفتنا) جاء (اقتصادنا)، ليدخل الساحة الفكرية كرقم صعب في محاولة جادة وعظيمة تكشف عن آراء الإسلام في الاقتصاد ونظرياته الثابتة فيه، وقدرتها على مواكبة كلّ ما تعرفه البشرية من تحولات وتطورات. وقد عرض فيه نواحي التفكير المادي، وما أتى به التمدُّن المادي المعاصر، وبيَّن ما يطرحه الاقتصاد

الإسلامي من آراء تحمل جانباً ثابتاً وآخر متغيراً. لقد بيَّن الكتاب الحلول الاقتصادية التي يطرحها القرآن والدين عموماً لحل الأزمات الاقتصادية وتحديات السوق، كما أجرى فيه مقارنة بين الاقتصاد الإسلامي في المدرسة الإسلامية والاقتصاد في المدرسة المادية (الليبرالية والاشتراكية). والكتاب بشكل عام جاء وسط ركام هائل من التيارات الفكرية المستوردة، التي تنافست في السيطرة على مراكز القرار الفكري والثقافي في مجتمعاتنا الإسلامية، واستمرت في محاولاتها هادفةً إلى السيطرة على عقول وقلوب مفكِّري الأمة ونخبتها المثقفة. لقد نازع الكتاب عمالقة الفكر المادي، وبيَّن ضعف نظرياتهم وفشلها في بناء حضارة متكاملة، وكما ترفع احتياجات السوق فإنها تحفظ للإنسان كرامته، ولا تجعله مجرد أداة للربح، وآلة في سوق المال. وبيَّن في مقابل ذلك فاعلية الفكر الإسلامي في الاقتصاد، وقدرته على حل المشاكل والتحديات التي تواجه الإنسانية، وبالتالي قدرته وجدّيته في حفظ إنسانية الإنسان وكرامته، وأن السوق وما يلازمه إنما هو مسخَّر في خدمة البشرية، وليس العكس، ومصدراً لتعميم الرخاء والخير، وليس مصدراً يخلق التناقض والصراع بين طبقات المجتمع، كما هو الحال في النظريات المادية.

ورغم أهمية كتاب (اقتصادنا)، بلحاظ ما طرحه من مفاهيم وآراء في الاقتصاد تستطيع بالفعل أن تكون ركناً أساسياً في بناء الاقتصاد الإسلامي، فقد وجدنا السيد الشهيد يقلل من قيمة هذا الإنجاز، ويعتبره مجرد خطوة متواضعة، وأنه مجرد خطوات ابتدائية في هذا الميدان، وكتب يقول ضمن مقدمة الطبعة الأولى من (اقتصادنا): «كنا قد وعدناكم قراءنا الأعزاء أن فلسفتنا هي القسم الأول من مجموعة سلسلة من الأبحاث الإسلامية، والتي نحاول من خلالها رفع احتياجات المجتمع المسلم، وإنها بمثابة قاعدة لأبحاث أخرى تأتي بعدها، والتي سوف تكون مكملة لحاجات المجتمع، وعلى نفس خط فلسفتنا، والتي ستعمل في الأخير على إعطاء صورة كاملة عن الإسلام، وتعالج الصرح الإسلامي الشامخ، الصرح العقائدي للتوحيد، وتتلوها بعد ذلك الدراسات التي تتعلق بالبنيات الفوقية في ذلك الصرح الإسلامي، لتكتمل لنا في نهاية المطاف صورة ذهنية كاملة عن الإسلام، بوصفه

عقيدة حية في الأعماق، ونظاماً كاملاً للحياة، ومنهجاً خاصّاً في التربية والتفكير. قلنا هذا في مقدمة (فلسفتنا)، وكنا نقدّر أن يكون (مجتمعنا) هو الدراسة الثانية في بحوثنا، نتناول فيها أفكار الإسلام عن الإنسان وحياته الاجتماعية، وطريقته في تحليل المركب الاجتماعي وتفسيره، لننتهي من ذلك إلى المرحلة الثالثة، إلى النظم الإسلامية للحياة التي تتصل بأفكار الإسلام الاجتماعية، وترتكز على صرحه العقائدي الثابت. ولكن شاءت رغبة القراء الملحة أن نؤجل (مجتمعنا)، ونبدأ بإصدار (اقتصادنا)؛ عجلةً منهم في الاطلاع على دراسة مفصلة للاقتصاد الإسلامي في فلسفته وأسسه وخطوطه وتعاليمه. وهكذا كان، فتوفرنا على إنجاز (اقتصادنا)، محاولين أن نقدم فيه الصورة الكاملة نسبياً عن الاقتصاد الإسلامي، كما نفهمه اليوم من مصادره وينابيعه»[٥].

ورغم توقف هذه السلسلة عند هذا الحد إلا أن هذا لا يعني توقف كتابات السيد الصدر وانحصارها في ما كتب سابقاً، فقد استمرت تأليفاته في مواضيع مختلفة، فبعد (اقتصادنا)، وإلى زمن شهادته على يد النظام البعثي الغاشم، ألَّف (البنك اللاربوي في الإسلام)، (دروس في علم أصول الفقه)، (الفتاوى الواضحة)، و(الأسس المنطقية للاستقراء). ويعتبر كتابه (الأسس المنطقية للاستقراء) من أكبر نتاجات الفكر البشري خلال القرن العشرين، وأهمها بلحاظ التفكر الفلسفي والمنطقي. ابتدأ من المنطق ليصل إلى نظرية «المنطق الذاتي»، وهي النظرية التي تنطلق من القواعد والضوابط لكي تصل نحو اليقين الاستقرائي، يعني أنه يأخذ القواعد والضوابط لكي يصل إلى اليقين الاستقرائي من جهة، ومن جهة ثانية يبيِّن الفرق بين اليقين الذي يحصل من خلال استقراء الظواهر والمصاديق و... واليقين البرهاني والاستدلالي، ومن جهة ثالثة بيَّن أن الأصول الفلسفية تتناسب واليقين الاستقرائي، إلى جانب الاستقراء البرهاني أو الاستدلالي.

وقد كان هذا الكتاب خطوة وضعت حداً علمياً لهيمنة المنطق الأرسطي وحاكميته على التفكير الفلسفي الإسلامي، وبالتالي عُدَّ فاتحاً لمرحلة جديدة من حياة الفلسفة الإسلامية، وخطوة تزيد من انتسابها إلى الفكر الإسلامي الخالص،

فأرسطو لم يظهر في هذا الكتاب إلا في حالات قليلة جداً.

وبعد نجاح الثورة الإسلامية في إيران شرع الشهيد الصدر في تأليف مجموعة من الكتابات التي تنظّر لمرحلة جديدة في تاريخ الأمة الإسلامية، وذلك وفق الثوابت القرآنية والدينية، وتساهم في رفع الإشكالات المطروحة في مثل هذه المرحلة. وضمن هذه المجموعة الجديدة كان كتابه الذي يعد مشروع دستور الجمهورية الإسلامية في إيران. وقد استفاد من هذا الكتاب فقهاء مجلس الخبراء الأول في إيران، والذي تم انتخاب أعضائه من طرف الشعب الإيراني، وذلك ضمن جلساته التي عقدها بهدف إيجاد دستور مبتنٍ على الشريعة الإسلامية باعتبارها مصدر التشريع، وبالتالي يستمد منه الدستور، وتشرع على ضوئه القوانين.

مشروع التجديد في نظام التعليم الحوزوي

ومن أهم ابتكاراته المتصلة بنظام التعليم في الحوزة العلمية تجديده لمناهج التعليم في الحوزة، وخصوصاً ما يخص الفقه وأصول الفقه. وقد كان تجديده ابتكاراً عظيماً، سواء بلحاظ البرامج التي طرحها أم بلحاظ المحتوى. فقد عمل الشهيد الصدر على التأسيس لمرحلة جديدة وفريدة من نوعها في علمي الفقه والأصول، باعتبارهما المادتين الرئيسيتين في درس الخارج، ومن خلالهما يحصل طالب العلوم الدينية على مرتبة الاجتهاد. لقد أراد السيد محمد باقر الصدر أن يتحول المنهج في تلقي هذه العلوم، بحيث لا يبقى مقتصراً على النقل لما قاله القدماء، بل أن يتم تعميق دور التفكر ودور النقد، بحيث لا يبقى التعليم فيهما، سواء من حيث البرنامج أم ما يطرح من مضامين، في مستوى التعليم البنكي، أي التلقي فقط، بل أراد من خلال تركيزه على العقل والنقد أن نخرج إلى عالم القرن العشرين وما بعده بفقه وأصول مختلفة عمّا ورثناه عن القدماء، إلى مواكبة العصر وسدّ احتياجاته، من دون الخروج عن الثوابت.

كانت أفكار السيد الشهيد المجددة في العلوم الجديدة أو الكلاسيكية ممهدة لنهضة ثقافية وعلمية واسعة، ابتدأت من العراق وإيران لتمتد شعلتها إلى باقي

مناطق العالم الإسلامي. هذه الأفكار التجديدية كانت وسيلة قوية في تقوية التفكير والثقافة الإسلامية أمام الهجوم الثقافي للإمبريالية الغربية والمعسكر الاشتراكي آنذاك، وكانت قاعدة لتفعيل السياسات المنظمة نحو إيجاد مجتمع ونظام إسلامي موافق للمفاهيم القرآنية.

إن النهضة الثقافية في المجتمع الإسلامي مدينةٌ بالكثير للسيد محمد باقر الصدر، الذي استطاع أن يخرجها من حالة الانفعال إلى حالة الفعل، وأن توجه سهام الدفاع نحو الخارج، نحو ثقافة التغريب التي يقودها ويدعو إليها الإمبريالية والمادية في الشرق والغرب، كما استطاع أن يخرجها من حالة الدفاع إلى حالة الهجوم، بطرح أفكارها وانتقاد الثقافات الغريبة، بدل أن تبقى في حالة الدفاع عن نفسها. وقد كان السيد الشهيد قيادياً فعالاً، عمل على تنوير فكر طبقة واسعة من المجتمع الإسلامي، وعمل على تربية شباب حركيٍّ وفعّال ومؤثّر في الأوساط الاجتماعية والعلمية والثقافية. لقد كان يفكّر في إيجاد تنظيم يضم نخبة من العلماء الفاعلين سياسياً، فساهم في تأسيس «حزب الدعوة الإسلامية» كمصداق خارجي على مفاهيمه وأفكاره التنظيرية، كما ساهم بشكل كبير في تجديد نظام الحوزة العلمية في النجف، لتنتقل من مجرد حوزة للعلوم فقط إلى حوزة علمية وسياسية.

وكانت كل المراكز التي تنتسب إلى السيد محمد باقر الصدر، سواء في النجف أم في كل العراق، عبارة عن مراكز للإشعاع الثقافي والفكري، ومراكز للتنمية السياسية، لذلك نجد التنوع في الفعاليات لهذه المراكز بين التعليمي والتثقيفي والسياسي. وكان من بين هذه المراكز: (جماعة العلماء)، (الرابطة الأدبية)، (مدرسة العلوم الإسلامية)، (منتدى النشر)، (مدرسة الإمام الجواد عليه السلام). وإن مكتب المرجع الراحل السيد محسن الحكيم والمؤسسات الثقافية والاجتماعية والسياسية كلها كانت تسير وفق إرشادات السيد الشهيد، ووفق مقترحاته.

الصدر والمرجعية ـ

وبعد وفاة المرجع السيد محسن الحكيم انتقلت المرجعية إلى السيد الصدر، ولذلك بادر إلى تأسيس مكتبه الخاص، وقبل أن تصبح له المرجعية في العراق كان

السيد محمد باقر الصدر قد أعطى تصوراً لتطور المرجعية الدينية، وكانت خطواته تنتقل دائماً من النظري إلى العملي، ففي ما يخصّ نظرته إلى تطور المرجعية بادر إلى تأسيس الركن الأول في شورى المرجعية في إطار مرجعيته الخاصة[٦].

الصدر والعمل السياسي

صادف تولي السيد الشهيد لمهمة المرجعية انتصار الثورة الإسلامية في إيران، وكان السيد الشهيد أول شخصية بادرت إلى مناصرة الثورة والدفاع عنها بكل قوة، وكان حاميها الفعلي في العراق، والداعي إلى مؤازرتها. ورغم مكانته العلمية ومرجعيته في الدين وفي السياسة فقد رأى أن إطاعته للإمام الخميني رحمه الله واجبٌ شرعي. وقد ناصره بكل ما كان يملك من وسائل، وأمر أتباعه ومقلّديه بمناصرة الإمام الخميني، ومناصرة الثورة الإسلامية في إيران. وكانت الرسالة التي وجهها إلى مقلّديه وأتباعه في إيران واضحة في التعبير عن موقفه من قيادة الإمام الخميني، ومن الثورة في إيران، حيث كتب يقول: «إن الواجب على كل واحد منكم، وعلى كل فرد قدّر له حظّه السعيد أن يعيش في كنف هذه التجربة الإسلامية الرائدة، أن يبذل كل طاقاته، وكل ما لديه من إمكانات وخدمات، ويضع ذلك كلّه في خدمة التجربة، فلا يتوقّف في البذل والبناء يشاد لأجل الإسلام، ولا حدّ للبذل والقضية ترتفع رايتها بقوة الإسلام، وعملية البناء الجديد بحاجة إلى طاقات كل فرد مهما كانت ضئيلة، ويجب أن يكون واضحاً أيضاً أنّ مرجعية السيد الخميني ـ التي جسّدت آمال الإسلام في إيران اليوم ـ لابدّ من الالتفاف حولها، والإخلاص لها، وحماية مصالحها، والذوبان في وجودها العظيم بقدر ذوبانها في هدفها العظيم، وليست المرجعية الصالحة شخصاً، وإنّما هي هدف وطريق، وكل مرجعية حقّقت ذلك الهدف والطريق فهي المرجعية الصالحة، التي يجب العمل لها بكل إخلاص، والميدان المرجعي أو الساحة المرجعية في إيران يجب الابتعاد بها عن أي شيء من شأنه أن يضعّف أو لا يساهم في الحفاظ على المرجعية الرشيدة القائدة»[٧]. فبعد قيام الثورة الإسلامية في إيران ونجاحها التاريخي زاد الشهيد الصدر من فعالياته السياسية؛ وذلك لأجل إحداث ثورة في العراق تأخذ بيد أختها في إيران، فكان أن كثّف جلساته التي كان يعقدها

لتوعية الناس، وكانت هذه الجلسات تنقل بواسطة الكاسيت، ليتم إلقاؤها في المناطق الأخرى من مناطق العراق، وخارج العراق، وكان يرسل رسائله إلى ممثليه والقائمين بأعمال مكتبه في باقي محافظات العراق، وفي خارج العراق، يشجعهم فيها على النهوض ضد نظام البعث الغاشم، وأن الواجب الشرعي يفرض عليهم نفض البعث وأزلامه عن الناس وعن أنفسهم، وأن يسارعوا إلى تطبيق شرع الله في كل البلاد الإسلامية، وأن ينصروا المستضعفين، ويؤيدوا نضالاتهم، ويدعموا شعاراتهم الداعية إلى الحرية والعدالة. وقد كانت نداءاته الثلاثة التي خاطب فيها الشعب العراقي مثالاً قوياً لجهاد الشهيد وثورته ضد نظام البعث، وضد كل نظام غاشم. ونرى الضرورة تلح علينا بعرض مفصَّل لما جاء في هذه النداءات:

النداء الأول في ٢٠ رجب ١٣٩٩هـ: أيها الشعب العراقي المسلم، إني أخاطبك أيها الشعب الحرّ الأبي الكريم، وأنا أشدّ الناس إيماناً بك، وبروحك الكبيرة، وبتاريخك المجيد، وأكثرهم اعتزازاً بما طفحت به قلوب أبنائك البررة من مشاعر الحب والولاء والبنوة للمرجعية؛ إذ تدفقوا إلى أبيهم يؤكّدون ولاءهم للإسلام، بنفوس ملؤها الغيرة والحمية والتقوى، يطلبون منّي أن أظل أواسيهم وأعيش آلامهم عن قرب؛ لأنها آلامي. وإني أودّ أن أؤكد لك يا شعب آبائي وأجدادي أني معك وفي أعماقك، ولن أتخلى عنك في محنتك، وسأبذل آخر قطرة من دمي في سبيل الله من أجلك. وأودّ أن أؤكد للمسؤولين أن هذا الحكم الذي فرض بقوة الحديد والنار على الشعب العراقي، وحرمه من أبسط حقوقه، وحرياته، من ممارسة شعائره الدينية، لا يمكن أن يستمر، ولا يمكن أن يعالج دائماً بالقوة والقمع، وأن القوة ما كانت علاجاً حاسماً دائماً إلاّ للفراعنة والجبابرة. أسقطوا الأذان الشريف من الإذاعة فصبرنا، أسقطوا صلاة الجمعة من الإذاعة فصبرنا، وطوقوا شعائر الإمام الحسين عليه السلام ومنعوا القسم الأعظم منها فصبرنا، وحاصروا المساجد وملؤوها أمناً وعيوناً فصبرنا، وقاموا بحملات الإكراه على الانتماء إلى حزبهم فصبرنا، وقالوا: إنها فترة انتقال يجب تجنيد الشعب فيها فصبرنا، ولكن إلى متى؟ إلى متى تستمر فترة الانتقال؟ إذا كانت فترة عشر سنين من الحكم لا تكفي لإيجاد الجو المناسب لكي يختار الشعب طريقه فأية فترة تنتظرون؟! وإذا كانت فترة عشر سنين من الحكم المطلق لم تتح

لكم أيها المسؤولون إقناع الناس بالانتماء إلى حزبكم إلاّ عن طريق الإكراه فماذا تأملون؟! وإذا كانت السلطة تريد أن تعرف الوجه الحقيقي للشعب العراقي فلتجمد أجهزتها القمعية أسبوعاً واحداً فقط، ولتسمح للناس بأن يعبروا خلال أسبوع واحد كما يريدون. إنني أطالب باسمكم جميعاً، أطالب بإطلاق حرية الشعائر الدينية وشعائر الإمام أبي عبد الله الحسين عليه السلام. كما وأطالب بإعادة الأذان وصلاة الجمعة والشعائر الإسلامية إلى الإذاعة، وأطالب باسمكم جميعاً بإيقاف حملات الإكراه على الانتساب إلى حزب البعث على كل المستويات، وأطالب باسم كرامة الإنسان بالإفراج عن المعتقلين بصورة تعسفية، وإيقاف الاعتقال الكيفي، الذي يجري بصورة منفصلة عن القضاء. وأخيراً أطالب باسمكم جميعاً، وباسم القوى التي تمثلونها، بفسح المجال للشعب ليمارس بصورة حقيقية حقّه في تدبير شؤون البلاد، وذلك عن طريق إجراء انتخاب حرّ ينبثق عنه مجلس حرّ يمثل الأمّة تمثيلاً صادقاً. وإني أعلم أن هذه الطلبات سوف تكلفني غالياً، وقد تكلّفني حياتي، ولكن هذه الطلبات هي مشاعر أمة، وطلبات أمة، وإرادة أمة، ولا يمكن أن تموت أمة تعيش في أعماقها روح محمد وعلي والصفوة من آل محمد وأصحابه»[٨].

النداء الثاني: يا شعبي العراقي العزيز، يا جماهير العراق المسلمة، التي غضبت لدينها، ولكرامتها، ولحريتها، وعزّتها، ولكلّ ما آمنت به من قيم ومثل.

أيّها الشعب العظيم، إنّك تتعرض اليوم لمحنة هائلة على يد السفّاكين والجزّارين، الذين هالهم غضب الشعب، وتململ الجماهير، بعد أن قيَّدوها بسلاسل من الحديد ومن الرعب، وخُيِّل للسفّاكين أنهم بذلك انتزعوا من الجماهير شعورها بالعزة والكرامة، وجرَّدوها من صلتها بعقيدتها وبدينها وبمحمدها العظيم؛ لكي يحوّلوا هذه الملايين الشجاعة المؤمنة من أبناء العراق الأبيّ إلى دمى وآلات يحركونها كيف يشاؤون، ويزقّونها ولاء عفلق وأمثاله من عملاء التبشير والاستعمار، بدلاً من ولاء محمد وعلي صلوات الله عليهما. ولكن الجماهير دائماً هي أقوى من الطغاة، مهما تفرعن الطغاة، وقد تصبر، ولكنها لا تستسلم. وهكذا فوجيء الطغاة بأن الشعب لا يزال ينبض بالحياة، وما تزال لديه القدرة على أن يقول كلمته. وهذا هو الذي جعلهم يبادرون إلى القيام بهذه الحملات الهائلة على عشرات الآلاف من المؤمنين،

والشرفاء من أبناء هذا البلد الكريم، حملات السجن، والاعتقال، والتعذيب، والإعدام، وفي طليعتهم العلماء المجاهدون، الذين يبلغني أنّهم يستشهدون الواحد بعد الآخر تحت سياط التعذيب. وإنّي في الوقت الذي أدرك عمق هذه المحنة التي تمرّ بك يا شعبي وشعب آبائي وأجدادي أؤمن بأن استشهاد هؤلاء العلماء واستشهاد خيرة شبابك الطاهرين وأبنائك الغيارى تحت سياط العفالقة لن يزيدك إلاّ صموداً وتصميماً على المضي في هذا الطريق حتى الشهادة أو النصر.

وأنا أعلن لكم يا أبنائي بأني صمَّمت على الشهادة، ولعل هذا هو آخر ما تسمعونه منّي. وإن أبواب الجنّة قد فتحت لتستقبل قوافل الشهداء حتى يكتب الله لكم النصر. وما ألذّ الشهادة التي قال عنها رسول اللهﷺ: إنها حسنة لا تضر معها سيئة، والشهيد بشهادته يغسل كل ذنوبه مهما بلغت. فعلى كل مسلم في العراق، وعلى كل عراقي في خارج العراق، أن يعمل كل ما في وسعه، ولو كلّفه ذلك حياته، من أجل إدامة الجهاد والنضال لإزالة هذا الكابوس عن صدر العراق الحبيب، وتحريره من العصابة اللاإنسانية، وتوفير حكم صالح فذّ شريف طيّب يقوم على أساس الإسلام. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»[٩].

النداء الثالث: وتوجَّه الشهيد الصدر بنداء ثالث لا يعرف تاريخه بشكل دقيق، وقد قالرحمه الله فيه: يا شعبي العراقي العزيز..، أيها الشعب العظيم..، إني أخاطبك في هذه اللحظة العصيبة من محنتك وحياتك الجهادية، بكل فئاتك وطوائفك، بعربك وأكرادك، بسنتك وشيعتك؛ لأن المحنة لا تخصّ مذهباً دون آخر، ولا قومية دون أخرى. وكما أن المحنة هي محنة كل الشعب العراقي فيجب أن يكون الموقف الجهادي، والرد البطولي، والتلاحم النضالي، هو واقع كل الشعب العراقي. وإني منذ عرفت وجودي ومسؤوليتي في هذه الأمة بذلت هذا الوجود من أجل الشيعي والسنّي على السواء، ومن أجل العربي والكردي على السواء، حيث دافعت عن الرسالة التي توحّدهم جميعاً، وعن العقيدة التي تهمّهم جميعاً، ولم أعش بفكري وكياني إلاّ للإسلام، طريق الخلاص وهدف الجميع. فأنا معك يا أخي وولدي السنّي بقدر ما أنا معك يا أخي وولدي الشيعي، أنا معكما بقدر ما أنتما مع الإسلام، وبقدر ما تحملون هذا المشعل العظيم لإنقاذ العراق من كابوس التسلط والاضطهاد.

إن الطاغوت وأولياءه يحاولون أن يوحوا إلى أبنائنا البررة من السنّة أن المسألة مسألة شيعة وسنّة؛ ليفصلوا السنّة عن معركتهم الحقيقية ضد العدو المشترك.

وأريد أن أقولها لكم، يا أبناء علي والحسين، وأبناء أبي بكر وعمر: إن المعركة ليست بين الشيعة والحكم السنّي. إن الحكم السنّي الذي مثّله الخلفاء الراشدون، والذي كان يقوم على أساس الإسلام والعدل، حمل عليٌّ السيف للدفاع عنه؛ إذ حارب جندياً في حروب الردة تحت لواء الخليفة الأول أبي بكر. وكلنا نحارب تحت راية الإسلام مهما كان لونها المذهبي. إن الحكم السنّي الذي كان يحمل راية الإسلام قد أفتى علماء الشيعة قبل نصف قرن بوجوب الجهاد من أجله، وخرج الآلاف من الشيعة، وبذلوا دمهم رخيصاً؛ من أجل الحفاظ على راية الإسلام، ومن أجل حماية الحكم السنّي الذي كان يقوم على أساس الإسلام. إن الحكم الواقع ليس حكماً سنّياً، وإنْ كانت الفئة المتسلطة تنتسب تاريخياً إلى التسنُّن، فإن الحكم السنّي لا يعني حكم شخص ولد من أبوين سنّيين، بل يعني حكم أبي بكر وعمر، الذي تحدّاه طواغيت الحكم في العراق اليوم في كل تصرفاتهم، وهم ينتهكون حرمتهم للإسلام، وحرمة علي وعمر معاً، في كل يوم، وفي كل خطوة من خطواتهم الإجرامية.

ألا ترون يا أولادي وإخواني أنهم أسقطوا الشعائر الدينية التي دافع عنها عليّ وعمر معاً؟ ألا ترون أنهم ملؤوا البلاد بالخمور وحقول الخنازير وكل وسائل المجون والفساد التي حاربها عليّ وعمر معاً؟ ألا ترون أنهم يمارسون أشد ألوان الظلم والطغيان تجاه كل فئات الشعب، ويزدادون يوماً بعد يوم حقداً على الشعب، وتفنناً في امتهان كرامته، والانفصال عنه، والاعتصام ضده في قصورهم المحاطة بقوى الأمن والمخابرات، بينما كان علي وعمر يعيشان مع الناس، وللناس، وفي وسط الناس، ومع آلامهم وآمالهم؟ ألا ترون احتكار هؤلاء السلطة احتكاراً عشائرياً، يضفون عليه طابع الحزب زوراً وبهتاناً، وسدّهم أبواب التقدم أمام كل جماهير الشعب، سوى أولئك الذين رضوا لأنفسهم الذل والخضوع، وباعوا كرامتهم، وتحولوا إلى عبيد أذلاء؟ إن هؤلاء المتسلطين قد امتهنوا حتى كرامة حزب البعث العربي الاشتراكي،

حيث عملوا من أجل تحويله من حزب عقائدي إلى عصابة يُفرض الانضمام إليها والانتساب إليها بالقوة والإكراه. وإلاّ فأيّ حزب حقيقي يحترم نفسه في العالم يطلب الانتساب إليه بالقوة؟ إنّهم أحسوا بالخوف حتى من الحزب نفسه الذي يدَّعون تمثيله. إنهم أحسوا بالخوف منه إذا بقي حزباً حقيقياً له قواعده التي تبنيه، ولهذا أرادوا أن يدهموا قواعده، بتحويله إلى تجمُّع يقوم على أساس الإكراه والتعذيب؛ ليفقد أي مضمون حقيقي له...

يا إخواني وأبنائي، من أبناء الموصل والبصرة، من أبناء بغداد وكربلاء والنجف، من أبناء سامراء والكاظمية، من أبناء العمارة والكوت والسليمانية، من أبناء العراق في كل مكان، إنّي أعاهدكم بأني لكم جميعاً، ومن أجلكم جميعاً، وإنّكم جميعاً هدفي في الحاضر والمستقبل، فلتتوحد كلمتكم، ولتتلاحم صفوفكم، تحت راية الإسلام، ومن أجل إنقاذ العراق من كابوس هذه الفئة المتسلطة، وبناء عراق حرّ كريم، تحكمه عدالة الإسلام، وتسوده كرامة الإنسان، ويشعر فيه المواطنون جميعاً على اختلاف قومياتهم ومذاهبهم بأنهم إخوة، يساهمون جميعاً في قيادة بلدهم، وبناء وطنهم، وتحقيق مثلهم الإسلامية العليا، المستمدة من رسالتنا الإسلامية، وفجر تاريخنا العظيم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»[١٠].

جولة مع الأحداث الأخيرة

وبعد أن أشيع أن الشهيد الصدر ينوي مغادرة أرض العراق لم يتحمل الناس فراقه، فسارعوا في تظاهرات لم يعهدها العراق من قبل، مواكباً مواكباً. الكل متّجه نحو النجف الأشرف، محل إقامة الشهيد الصدر، يطلبون منه البقاء، وأنهم يفدونه بأرواحهم، وقد كانت هذه المواكب تحمل في ذاتها معنيين كبيريين؛ فمن جهة كانت تبين لنظام البعث حجمهم وقوتهم، وأن هذه الجموع الحاشدة ترفضهم، ولا تنصاع لتخويفاتهم، ولا لقهرهم، وأنها إنما تنتظر الإشارة لتعلن خروجها عليه، وثورتها ضده؛ ومن جهة ثانية تكشف عن حجم وموقعية مقام الشهيد الصدر داخل العراق، وفي قلوب تلك الجموع وتلك الألوف.

لكن الشهيد الصدر؛ وانطلاقاً مما وهبه الله من الفطنة والحكمة، لم يرَ صلاحاً في خروج هذه الجماهير، ووجدها خطوة تحمل مساوئ أكثر مما حملته من خير، فأمرهم بالعودة إلى ديارهم، فساعة الصفر لم تبدأ بعد، والثمار لا زالت تحتاج إلى وقت وحرارة حتى يحين موعد قطافها.

في السابع عشر من رجب ١٣٩٩هـ صدرت الأوامر لأزلام النظام البعثي المستبد باعتقال السيد محمد باقر الصدر. وقد كان اعتقال الشهيد الصدر سبباً في اندلاع تظاهرات عظيمة في النجف الأشرف، بزعامة أخته الطاهرة بنت الهدى(رضوان الله عليها)، وكان أن اصطدم المتظاهرون بقوات الأمن الظالمة، التي لم تتورع عن استعمال الذخيرة الحية في قمع احتجاجاتهم المشروعة. ولم تتوقف التظاهرات في النجف، بل اندلعت في كل مناطق العراق، في البصرة، وديالى، والكاظمية، ووقعت اصطدامات قوية، جعلت النظام البعثي يقرِّر الإفراج عن الشهيد الصدر مؤقتاً؛ لتبريد الأجواء.

بعد هذه التظاهرات العظيمة أدرك النظام البعثي حجم مساندة الشعب العراقي للشهيد الصدر، واستعداده للدفاع عنه، ولو أدى الأمر إلى الموت، فوسوس إليه شيطانه باستعمال حيلة شيطانية أخرى، فأمر قواته بمحاصرة بيت الشهيد الصدر، وفرض عليه الإقامة الجبرية، وقطع عنه أي اتصال بالناس، مهما كانت مكانتهم. ولم ينتظر النظام البعثي طويلاً، فأراد أن يقطع نهائياً أي اتصال للشهيد الصدر بأتباعه ومحبّيه، والذين كانوا يمثلون طائفة وشريحة كبيرة من أبناء العراق، فسارع إلى اعتقاله خارج بيته، وما هي إلا مدة يسيرة حتى جاؤوا مطالبين بأخته بنت الهدى. وكانت الفاجعة، فقد أقدم النظام البعثي، بزعامة صدام المقبور، على اغتيال السيد الصدر وأخته السيدة بنت الهدى، بعد أن أخضعوهما للتعذيب والتنكيل، حيث سجلت آثاره على بدنيهما الشريفين، وأقسما أن يلقيا الله ووجهاهما مخضبة بدمائهما؛ فداءً للحق، ودفاعاً عن المستضعفين والمحرومين. استشهد السيد محمد باقر الصدر وأخته ورفيقة دربه السيدة آمنة بنت الهدى، وبذلك لم يتخلفا عن الركب العلوي، وانضما إليه بكلّ عزة وشرف، فرضي الله عنهما وأرضاهما.

الإصلاحات الجذرية في فكر الشهيد الصدر ـــ

تزامن صعود فكر الشهيد الصدر في العلوم الإسلامية مع انتشار الفكر الإلحادي، وسيطرته شبه الكاملة على العقل العراقي. فلم تنجُ منه أية فئة من فئات المجتمع، حتى صار الشاب المسلم يجد نفسه غريباً بين أهله. فقد نفذت أفكار الإلحاد داخل المجتمع، العراقي واستطاعت أن تجلب إليها عقول التنويريين والأكاديميين والجامعيين، بل استطاعت أن تضم العديد من النخب في وسط الشباب؛ لتجعلها في صفوفها، وأن تصبح عضواً فعّالاً في أحزابها. لذلك عمل الشهيد الصدر على عملية إصلاح جذرية، تشمل كل أبعاد المجتمع: الفكرية، والسياسية، والاجتماعية، وسعى بكل إخلاص وجدية لإحداث تغييرات في كل تلك الساحات، بحيث تكون مغيرة لتلك الأفكار، وقالعةً لها من الأساس، وأن لا تنحصر عند ظواهر الأمور.

١. الإصلاحات الفكرية ـــ

لقد أدرك الشهيد الصدر أن الفكر الإسلامي، وبالتحديد الإسلام، يتعرض لهجمة شرسة لم يسبق لها مثيل من قِبَل التيارات الإلحادية والمادية، وأن الأمر يستدعي تغييرات كبيرة وجذرية؛ لتستطيع المقاومة الفعلية لهذه الهجمة المكثفة. لذلك عمل على إيجاد طرق وأساليب جديدة؛ حتى تكون المواجهة في الأبعاد الاعتقادية والاجتماعية في صالح جبهة الإسلام، وحتى تخرج الإسلام والمسلمين من حالة الانفعال والدفاع، التي لازمت العقل والفكر الإسلامي طيلة قرون، ليتحول إلى حالة الهجوم، وأن يغزو العقول، وأن يطرح أفكاره ومبادئه في حالة القوة، وليس في حالة من الضعف. انطلاقاً من هذا الإدراك قرر الشهيد الصدر أن ينحو بالفكر الإسلامي منحىً جديداً يتيح له استعادة عافيته، بل أن يرجع سيد الساحات كما كان بادئ أمره، وأن يصبح ملاذ العقول والقلوب وقلعتها المتينة. لهذا عمل على إيجاد تغييرات في البنية التحتية للتفكير، وكانت مؤسَّسة على الأمور التالية:

١ـ تجديد الفكر الإسلامي، مع الحفاظ على أصالته، التي تأخذ مرجعيتها من القرآن والسنة المطهَّرة، مع أخذ احتياجات الساحة بعين الاعتبار، بحيث تستطيع

الإجابة عن كل إشكالاتها، ورفع كل استفهاماتها.

٢ـ إيجاد تغييرات بنّاءة في برامج وأساليب التعليم والتربية في كلٍّ من الحوزات العلمية ومراكز التحقيق الإسلامية، مع التوجه بكل اعتناء إلى رفع مستوى البحث العلمي في المراكز العلمية والدينية، بحيث يرتبط باحتياجات الفرد والمجتمع المعاصر، وأن لا يقتصر على التفكير الكلاسيكي الذي يعمل على تكرار مقولة السلف من غير تجديد أو إعمال النظر.

٣ـ أن يطرح الإسلام بشكله الصحيح، الذي يمثّل رؤية للكون والحياة، ونظاماً للفرد والمجتمع، ومنهجاً في المعرفة والتغيير، كاملةً في جميع أبعادها، ومنسجمة، بحيث تكون بلحاظ فلسفي مستحكمة ومنفتحة على كل العالم، عمادها البرهان والدليل الفلسفي والمنطقي، وبعيدة عن كل ما من شأنه أن يمس باستقلال الفكر الإسلامي، وأن لا تحاول إلباس الإسلام لباس الفكر الغربي، فتحاول إرضاء الغرب بجعل الفكر الإسلامي وفق مقاييس ورغبات الغرب.

٤ـ مواجهة الأفكار المضادة للإسلام، عن طريق فتح باب المناظرة والحوار العلمي والمنطقي، وباستحضار الأدلة العقلية والصحيحة؛ لإثبات أن هذه الأفكار وهذه المدارس التي تقف اليوم في وجه الإسلام فشلت في تقديم حلول جذرية للأزمات الإنسانية، وأنها غير قادرة على رفع مستوى الإنسان دون أن يكون ذلك على حساب إنسانيته. هذا الى جانب ما تعاني منه داخلياً من التناقض بين أفكارها، والتضادّ في وجهات نظرها.

٥ـ تربية أجيال فعّالة، وحركية، ومتفكّرة، وتربية جيل من العلماء، في الحوزات العلمية والجامعات والأكاديميات، يملكون روح التجديد في الأفكار، ومتضلعين في العلوم والثقافة الدينية، بحيث إذا طلعوا إلى ميدان المناظرة والمواجهة مع الأفكار الإلحادية والمادية كانوا فرسانها، لا يعوزهم عوز، ولا تخفى عليهم الحجة والبرهان.

٢. الإصلاحات الاجتماعية

يرى الشهيد الصدر أن إصلاح المجتمع والوضع الاجتماعي للأمة بما هي عليه

في الوقت الراهن لا يمكن أن يتأتى إلا بوجود قيادة حكيمة ومخلصة، تأخذ بزمام الأمور، وتلتف حولها الأمة؛ بلحاظ ثقتها بها. كما أن من الشروط الموضوعية لهذه القيادة أن يكون خطابها للجماهير مورد الطاعة والقبول بالفعل؛ لأنه في غير هذه الصورة لن يكون لهذه القيادة أي أثر، ولن تستطيع إصلاح المجتمع. ويرى الشهيد الصدر أن القيادة الوحيدة التي تستطيع أخذ هذا الدور هي المرجعية الدينية الشيعية، التي تشكل القلب النابض للأمة، ومحور الفعاليات والتحركات الدينية ـ الاجتماعية الإسلامية، رغم أن المرجعية تحتاج في ذاتها إلى إصلاحات وتقويمات داخلية حتى تستطيع الخروج من وضعها الراهن إلى ما تنتظره الأمة والدين منها، وحتى تضطلع بدورها السياسي والاجتماعي على أكمل وجه. وقد ابتدأ الشهيد الصدر من نفسه، حيث عمل على تطبيق ما نادى به من إصلاحات في مكتب مرجعيته، لينتقل من القول إلى الفعل، وحتى لا تبقى آراؤه الإصلاحية منحصرة في الجانب النظري فحسب. وقد قال يصف المرجعية الصالحة: «إن أهم ما يميز المرجعية الصالحة تبنّيها للأهداف الحقيقية التي يجب أن تسير المرجعية في سبيل تحقيقها؛ لخدمة الإسلام، وامتلاكها صورة واضحة محدَّدة لهذه الأهداف. فهي مرجعية هادفة بوضوح ووعي، تتصرف دائماً على أساس تلك، بدلاً من أن تمارس تصرفات عشوائية، وبروح تجزيئية، وبدافع من ضغط الحالات الجزئية المتجدِّدة. وعلى هذا الأساس كان المرجع الصالح قادراً على عطاء جديد في خدمة الإسلام، وإيجاد تغيير أفضل لصالح الإسلام، في كل الأوضاع التي يمتد إليها تأثيره ونفوذه»[١١]. وهكذا انطلقت المرجعية الصالحة لتبني مجتمعاً متكاملاً، ولتخرج بالأمة من موضع الضعف والانغلاق على الموروث إلى بناء حضارة إسلامية جديدة، تحفظ للفرد المسلم قيمه وعزته. فالمرجع الواعي والصالح قادر من موقعه، الذي جعله امتداداً للنبوة والإمامة، وبما يملكه من قدرات في الاجتهاد؛ بلحاظ كونه الممثل الأعلى للأيديولوجية الإسلامية، على الإجابة عن كل المتغيرات التي تحصل في الزمان والمكان، بمعنى أن مرجعيته لا تجعله يحدِّد الطابع الإسلامي للعناصر الثابتة فحسب، بل كذلك للعناصر المتحركة في الزمان والمكان أيضاً. ووفق نظر السيد الشهيد الصدر فالمرجع الصالح لابد وأن تتوفر فيه الخصوصيات

التالية: **أولاً:** أن يكون له تصور كامل عن الأهداف الحقيقة. **ثانياً:** أن يتعهد ويلتزم بالعمل من أجل هذه الأهداف. **ثالثاً:** أن يعمل وفق برنامج واضح يضمن فعلياً تحقيق تلك الأهداف.

المرجعية الصالحة الرشيدة ـــ

وقد صاغ الشهيد الصدر ورقةً بيَّن فيها الأهداف الحقيقية للمرجعية الصالحة:

١ـ نشر أحكام الإسلام على أوسع مدى ممكن بين المسلمين، والعمل على تربية كلّ فرد منهم تربية دينية تضمن التزامه بتلك الأحكام في سلوكه الشخصي.

٢ـ إيجاد تيار فكري واسع في الأمة يشتمل على المفاهيم الإسلامية الواعية، من قبيل: المفهوم السياسي، الذي يؤكد أن الإسلام نظام كامل شامل لشتى جوانب الحياة، واتخاذ ما يمكن من أساليب لتركيز تلك المفاهيم.

٣ـ إشباع الحاجات الفكرية الإسلامية للعمل الإسلامي، وذلك عن طريق إيجاد البحوث الإسلامية الكافية في مختلف المجالات الاقتصادية والاجتماعية، والمقارنات الفكرية بين الإسلام وبقية المذاهب الاجتماعية، وتوسيع نطاق الفقه الإسلامي على نحو يجعله قادراً على مدّ كل جوانب الحياة بالتشريع، وتصعيد الحوزة ككلّ إلى مستوى هذه المهام الكبيرة.

٤ـ القيمومة على العمل الإسلامي، والإشراف على ما يعطيه العاملون في سبيل الإسلام في مختلف أنحاء العالم الاسلامي من مفاهيم، وتأييد ما هو حق منها ومساندته، وتصحيح ما هو خطأ.

٥ـ إعطاء المراكز العالمية، من المراجع إلى أدنى مراتب العلماء، الصفة القيادية للأمة، بتبني مصالحها والاهتمام بقضايا الناس ورعايتها، واحتضان العاملين في سبيل الإسلام.

ويضيف الشهيد الصدر: إن وضوح هذه الأهداف للمرجعية وتبنّيها هو الذي يحدِّد صلاح المرجعية، ويحدث تغييراً كبيراً على سياستها ونظراتها إلى الأمور، وطبيعة تعاملها مع الأمة، لكنّه لا يكفي لضمان الحصول على أكبر قدر ممكن

من مكاسب المرجعية الصالحة؛ لأن الحصول على ذلك يتوقف ـ إضافة إلى صلاح المرجع ووعيه ـ على خطوتين موضوعيتين:

الأولى: عمل مسبق على قيام المرجعية الصالحة. ويفصل أكثر حيث يقول: «العمل المسبق على قبول المرجعية هو إيجاد قاعدة جماهيرية تكون قد آمنت بنفس هذه الأهداف، وإعدادها فكرياً وروحياً؛ لكي تكون على كامل الاستعداد لخدمة الإسلام وبناء المرجعية الصالحة. وإن عدم إيجاد هذه القاعدة لن يجعل المرجعية الصالحة قادرة على إحداث أي تحرك أو إيقاع أي تغيير على صعيد المجتمع، بل ستجد نفسها منعزلة عن المجتمع، وبعيدة كل البعد عن جماهيرها. وهذا بالضبط ما وقع، فبعض المرجعيات ـ رغم صلاحها ـ وقفت عاجزة عن إحداث أي تغيير من أي نوع في بنية المجتمع؛ لأنها لم تعتمد هذا الشرط المسبق، ولم تنهض قبل تصديها للمرجعية بتسطير مشروع تغييري يوضع في شكل أهداف، ولم تعمل على بناء قاعدة تنهض بمشروعها وأهدافها»[١٢].

الثانية: وتكمن في تطوير أسلوب عمل المرجعية، بحيث لا تبقى منحصرة في شخص المرجع، بل تكون في إطار مؤسسة متكاملة. وفي هذا يقول الشهيد الصدر: إيجاد جهاز عمليّ تخطيطي وتنفيذي يقوم على أساس الكفاءة، والتخصّص، وتقسيم العمل، واستيعاب كلّ مجالات العمل المرجعي الرشيد في ضوء الأهداف المحدّدة. ويقوم هذا الجهاز بالعمل بدلاً من الحاشية، التي تعبّر عن جهاز عفوي مرتجل يتكوّن من أشخاص جمعتهم الصدف والظروف الطبيعيّة لتغطية الحاجات الآنيّة بذهنيّة تجزيئيّة، وبدون أهداف محدّدة واضحة. ويشتمل هذا الجهاز على لجان متعدّدة، تتكامل وتنمو بالتدريج.

الجهاز العمليّ للمرجعيّة الصالحة في تطوّره وتكامله

١ـ لجنة أو لجان لتسيير الوضع الدراسي في الحوزة العلميّة، وهي تمارس تنظيم دراسة ما قبل (البحث الخارج)، والإشراف على دراسات البحث الخارج، وتحدّد المواد الدراسية، وتضع الكتب الدراسية، وتجعل بالتدريج الدراسة الحوزوية بالمستوى الذي

يتيح للحوزة المساهمة في تحقيق أهداف المرجعيّة الصالحة، وتحصّل معلومات عن الانتسابات الجغرافيّة للطلبة، وتسعى في تكميل الفراغات وتنمية العدد.

٢ـ لجنة للإنتاج العلميّ، ووظائفها إيجاد دوائر علميّة لممارسة البحوث، ومتابعة سيرها، وتشجيعه، ومتابعة الفكر العالمي بما يتّصل بالإسلام، والتوافر على إصدار شيء، كمجلة، أو غيرها، والتفكير في جلب العناصر الكفوءة إلى الحوزة، أو التعاون معها إذا كانت في الخارج.

٣ـ لجنة أو لجان مسؤولة عن شؤون علماء المناطق المرتبطة، وضبط أسمائهم وأماكنهم ووكالاتهم، وتتبُّع سيرهم وسلوكهم واتصالاتهم، والاطّلاع على النقائص والحاجات والفراغات، وكتابة تقرير إجمالي في وقت محدّد، أو عند طلب المرجع.

٤ـ لجنة الاتصالات، وهي تسعى لإيجاد صلات مع المرجعيّة في المناطق التي لم تتّصل مع المركز، ويدخل في مسؤوليتها إحصاء المناطق، ودراسة إمكانات الاتصال بها، وإيجاد سفرة تفقّديّة؛ إمّا على مستوى تمثيل المرجع؛ أو على مستوى آخر، وترشيح المناطق التي أصبحت مستعدّة لتقبّل العالم، وتولّي متابعة السير بعد ذلك، ويدخل في صلاحيتها الاتّصال في الحدود الصحيحة مع المفكّرين والعلماء في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، وتزويدهم بالكتب، والاستفادة من المناسبات، كفرصة الحجّ.

٥ـ لجنة رعاية العمل الإسلامي، والتعرّف على مصاديقه في العالم الإسلامي، وتكوين فكرة عن كلّ مصداق، وبذل النصح والمعونة عند الحاجة.

٦ـ اللجنة الماليّة، التي تعنى بتسجيل المال، وضبط موارده، وإيجاد وكلاء ماليّين، والسعي في تنمية الموارد الطبيعيّة لبيت المال، وتسديد المصارف اللازمة للجهاز، مع التسجيل والضبط.

ولا شكّ في أنّ بلوغ الجهاز إلى هذا المستوى من الاتّساع والتخصّص يتوقّف **أولاً:** على تطوّر طويل الأمد. ومن الطبيعي أن يبدأ الجهاز محدوداً، وبدون تخصّصات جدّية؛ تبعاً لضيق نطاق المرجعيّة، وعدم وجود التدريب الكافي. والممارسة والتطبيق هو الذي يبلور القابليات من خلال العمل، ويساعد على التوسيع والتخصّص.

ثانياً: إيجاد امتداد أفقي حقيقي للمرجعيّة يجعل منها محوراً قويّاً، تنصبّ فيه قوى كل ممثّلي المرجعيّة والمنتسبين إليها في العالم؛ لأن المرجعيّة حين تتبنى أهدافاً كبيرة، وتمارس عملاً تغييراً واعياً في الأمة، لابدّ أن تستقطب أكبر قدر ممكن من النفوذ؛ لتستعين به في ذلك، وتفرض بالتدريج، وبشكل وآخر، السير في طريق تلك الأهداف على كل ممثّليها في العالم. وبالرغم من انتساب كل علماء الشيعة تقريباً إلى المرجع في الواقع المعاش يلاحظ بوضوح أنّه في أكثر الأحيان انتساب نظري وشكلي، لا يخلق المحور المطلوب، كما هو واضح.

وعلاج ذلك يكون عن طريق تطوير شكل الممارسة للعمل المرجعي، فالمرجع تاريخياً يمارس عمله المرجعي كلّه ممارسة فرديّة، ولهذا لا تشعر كل القوى المنتسبة إليه بالمشاركة الحقيقيّة معه في المسؤولية، والتضامن الجادّ معه في الموقف، وأمّا إذا مارس المرجع عمله من خلال مجلس يضمّ علماء الشيعة، والقوى الممثّلة له دينيّاً، وربط المرجع نفسه بهذا المجلس، فسوف يكون العمل المرجعي موضوعيّاً، وإن كانت المرجعيّة نفسها؛ بوصفها نيابة عن الإمام، قائمة بشخص المرجع، غير أن هذه النيابة القائمة بشخصه لم تحدّد له أسلوب الممارسة، وإنّما يتحدَّد هذا الأسلوب في ضوء الأهداف، والمصالح العامّة»[١٣].

٣. الإصلاحات السياسية

يقوم تصوُّر الشهيد الصدر في هذا النوع من الإصلاحات على أن إحداث الإصلاح في الأمة لايمكن أن يتم إلا من خلال تطبيق الشريعة الإسلامية السمحة، بحيث تصير سلوكاً عفوياً لدى جماهير الأمة في حياتهم اليومية. وتطبيق الشريعة الإسلامية والاحتكام بأحكامها شأن من شؤون الدولة الإسلامية، وفي انتظار تكوين هذه الدولة لابد من إعداد قاعدة شعبية وتهيئتها سياسياً وفكرياً، وذلك يكون ميسَّراً إذا بث فيها الوعي بهذه الحقائق. وحول بثّ الوعي بضرورة الدولة الإسلامية، وتوقف ممارسة الدين بشكل كامل على وجودها، يقول الشهيد الصدر، ضمن كتابه (فلسفتنا): «قد حمل الإسلام المشعل المتفجِّر بالنور، بعد أن بلغ البشر

درجة خاصة من الوعي، فبشّر بالقاعدة المعنوية والخلقية على أوسع نطاق وأبعد مدى، ورفع على أساسها راية إنسانية، وأقام دولة فكرية أخذت بزمام العالم ربع قرن، واستهدفت توحيد البشر كلّه، وجمعه على قاعدة فكرية واحدة ترسم أسلوب الحياة ونظامها. فالدولة الإسلامية لها وظيفتان: **إحداهما**: تربية الإنسان على القاعدة الفكرية والعقائدية، وطبع اتجاهه وأحاسيسه بطابعها؛ **والأخرى:** مراقبته من الخارج، وإرجاعه إلى القاعدة إذا انحرف عنها عملياً. ولذلك فليس الوعي السياسي للإسلام وعياً للناحية الشكلية من الحياة الاجتماعية فحسب، بل هو وعي سياسي عميق، مردّه إلى نظرة كلية كاملة نحو الحياة، والكون، والاجتماع، والسياسة، والاقتصاد، والأخلاق. فهذه النظرة الشاملة هي الوعي الإسلامي الكامل. وكلُّ وعي سياسي آخر إما أن يكون وعياً سياسياً سطحياً لا ينظر إلى العالم من زاوية معينة، ولا يقيم مفاهيمه على نقطة ارتكاز خاصة؛ أو يكون وعياً سياسياً يدرس العالم من زاوية المادة البحتة، التي تموّن البشرية بالصراع والشقاء في مختلف أشكاله وأنواعه»[١٤].

ومن أهم ما تقوم عليه نهضة الأمة وصحوتها الوعي السياسي، الذي يبتني على الإيمان الراسخ بأن بناء الدولة الإسلامية ضرورة شرعية، وضرورة وجودية؛ لأنها تحفظ الهوية الإسلامية، فلا يمكن الحديث عن تطبيق الشريعة إلا في ظل وجود الدولة، وأيّ حديث خارج هذا الوجود يعد أجوفاً وفضفاضاً. وفي هذا يقول رحمه الله: «إنّ الدولة الإسلامية تارة تدرس بما هي ضرورة شرعية؛ لأنها إقامة لحكم الله على الأرض، وتجسيد لدور الإنسان في خلافة الله؛ وأخرى تدرس على ضوء هذه الحقيقة، ولكن من ناحية معطياتها الحضارية العظيمة، وقدراتها الهائلة التي تتميز بها عن أية تجربة اجتماعية أخرى»، إلى أن يقول: «إنّ الدولة الإسلامية ليست ضرورة شرعية فحسب، بل هي ـ إضافةً إلى ذلك ـ ضرورة حضارية؛ لأنها المنهج الوحيد الذي يمكنه تفجير طاقات الإنسان في العالم الإسلامي، والارتفاع به إلى مركزه الطبيعي على صعيد الحضارة الإنسانية، وإنقاذه ممّا يعانيه من ألوان التشتُّت والتبعية والضياع». إن إعداد هذه الفئة القاعدة عملياً، وتفعيل قواها، يتم من خلال طرق أربعة:

الأول: إعادة إصلاح مؤسسة المرجعية الدينية ـ والتي تكون في نفس الوقت القيادة السياسية ـ، بحيث تصبح قادرة فعلياً على قيادة الأمة فكرياً وسياسياً[١٥].

الثاني: تربية قاعدة مؤمنة إيماناً يقوم على الفهم الواعي للإسلام ومفاهيمه، بحيث تصبح قادرة على إدراك شموليته وأنه يستوعب ويشمل كل أبعاد حياتهم الدنيوية والأخروية، بحيث يضمن لهم السعادتين من دون أدنى شك أو ترديد[١٦]، تربية تغرس في أعماقهم وكل كيانهم حب هذه القيادة. وفي سبيل تحقيق تلك الأهداف يتسارعون إلى الصلاة في محراب الشهادة، وتقديم أرواحهم لها فداءً.

الثالث: العمل على إيجاد نخبة من أبناء الأمة تقوم بمهمة تربية الأمة وتوجيهها نحو ضرورة العمل من أجل الأهداف التي سطّرتها المرجعية الصالحة، وضرورة حمايتها[١٧].

الرابع: إيجاد هيئة تنظيمية إسلامية تعمل تحت إشراف المرجعية الدينية والسياسية، وتشكل في حقيقتها الابن الشرعي لأهدافها، تحمل على عاتقها مهمة تغيير الأوضاع السياسية الراهنة، والتي تتسم بالفساد.

وكإجراء عملي لهذا التصور عمل الشهيد الصدر في شهر ربيع الأول ١٣٧٧هـ على تأسيس (حزب الدعوة الإسلامية)، وكانت خطة عمله تتكون من ثلاث نقاط:

١ـ مرحلة تأسيس الحزب، والتغيير الفكري للأمة.

٢ـ مرحلة التفعيل السياسي، والتي تقوم على نشر الوعي في الأوساط الشعبية، وتوجيهها نحو الأهداف السياسية للحزب، والتي تشكل في حقيقة الأمر أهداف المرجعية الدينية، بحيث تؤمن بأهدافه وتتبنّاها بشكل إيجابي وعملي.

٣ـ مرحلة انتقال السلطة السياسية من النظام اللاشرعي إلى النظام الشرعي، وتضمُّنياً إلى المرجعية الصالحة.

وقد أضاف الشهيد الصدر نقطة رابعة، وهي تأتي بعد انتقال السلطة، بحيث تتجلى في مراعاة مصالح الإسلام والأمة.

ويرى الشهيد الصدر أن الاستبداد السياسي للأنظمة الحاكمة في بعض الدول الإسلامية ـ وبالخصوص في العراق ـ تفرض دمج النقطة الأولى والثانية، بحيث يجري

العمل بهما في آن واحد[١٨].

أهم إنجازات الشهيد الصدر العلمية ـــ

إن من السمات الغالبة على العباقرة والمبدعين هو هروبهم من كل ما من شأنه التشويش على تركيزهم الفكري والروحي، وإنشادهم الهدوء والسكينة. لذا تجدهم يعتزلون الحياة السياسية بالأخصّ؛ لأن طبيعة الساحتين تحمل نوعاً من التناقض والتضاد فيما بينهما، فساحة الفكر والإبداع الفكري تحتاج إلى الهدوء لكي تنتج، بينما ساحة العمل السياسي والعمل الثوري الميداني يحتاج إلى النزول الفعلي إلى الميدان، وإخراج الأفكار من النظرية إلى الفعل. لكن الشهيد الصدر رحمه الله قد امتاز عن أقرانه بأنه جمع بين الساحتين، واستطاع أن يكون عنصراً فاعلاً ومنتجاً على الساحتين. ولذلك يمكن القول: إنه قد حصلت له ملكة حلّ هذا التناقض ورفع هذا التضاد، فوضعه كمفكّر، وكمنتج للأفكار ونظريات انفرد بها على المستوى الإنساني، لم يمنعه من ممارسة العمل الاجتماعي والسياسي. وهذا ما جعل منه بحق عنصراً قيادياً في الصحوة الإسلامية بشكل قلَّ له النظير. ولئن قُدِّر لقيادته السياسية أن تلتزم بالحدود الجغرافية، وتنحصر بأرض العراق، فإن قيادته الفكرية والروحية تخطت كل الحدود، لتنطلق إلى المجتمع الإسلامي، بل امتدت لتشرق على كل العالم، حتى غير الإسلامي منه. وفي ما يلي خلاصة لأهم إنجازات الشهيد الصدر رحمه الله على الصعيد الفكري، وبعد ذلك على الصعيد العملي والتطبيقي.

أما إنجازاته رحمه الله على الصعيد الفكري فنلخصها في النقاط التالية:

أ. طرحه لأساليب ومناهج جديدة في الدراسات الإسلامية ـــ

لقد كانت السمة الغالبة على فكر الشهيد الصدر التزامه المنطق في فكره وفي تحليلاته. لذا جاءت المناهج التي طرحها في إطار الدراسات الدينية منطقية، حتى أنها بلغت مستوى من التنظيم والدقة العلمية بحيث لا يمكن العثور على ندٍّ لها أو نظير. وكان هذا هو سلوك الشهيد الصدر في تعامله مع الأفكار والطروحات

النظرية، فقد كان يصوغها لتصبح منطقية. بل كان هذا ديدنه حتى مع تلك الأفكار والنظريات التي تعرَّض لها بالنقد، فقد كان يعيد صياغتها لتصبح منطقية، وأفضل مما كانت عليه لدى أصحابها، ومن ثم يقيم عليها البرهان والدليل؛ لنقدها ومناقشتها. وفي الجملة تتلخص إبداعات الشهيد الصدر في المنهج في الأمور التالية:

١ـ نظرته إلى الوحي بأنه نظامٌ متكاملٌ، وبالتالي فالإسلام هو نظامٌ متكاملٌ في ذاته، وذلك في بعديه العقائدي والتشريعي.

٢ـ كشفه لنظرية المنطق الذاتي الاستقرائي. وقد فصل الكلام فيه ضمن كتابه (الأسس المنطقية للاستقراء)، وقد جعله إلى جانب المنطق الصوري الذي يعتمد القياس البرهاني ضمن البحوث الدينية.

٣ـ التزامه الوضوح والدقة في كل ما طرحه من آراء ونظريات، مع صياغتها بأسلوب يجمع بين الإبداع في انتقاء العبارة التي لا تخلو من الجانب الأدبي والبلاغي.

٤ـ التزامه الدقة في تحليل الأفكار، وملاحظة الرابط المنطقي بين جزئياتها.

٥ـ التفكيك بين المواضيع المندمجة مع بعضها، وإعطاء كل موضوع حقّه من التحليل المنطقي.

٦ـ استقراؤه لجميع الاحتمالات، واستحضاره لكل الافتراضات الممكنة في المجال، وعدم إهمال شيء منها في البحث والاستدلال.

٧ـ ترتيب مطالب البحث وتبويبها وفق بعدها المنطقي.

ب ـ دراسته لأفكار ونظريات الطرف المقابل، والتزامه البحث العلمي والنقد المنطقي ـ

رغم انفتاح الحوزات الدينية والمدارس بكل أشكالها على أفكار الآخر، وذلك منذ فجر القرن الأول الهجري، ولم يشذّ أحد من العلماء منذ ذلك الحين وإلى يومنا هذا عن هذا السلوك، واستمرارهم في الإقبال على أفكار الطرف المقابل بالمناقشة العلمية والرد الموضوعي، إلا أن ما قام به الشهيد الصدر من خلال دراساته للنتاج الفكري للآخر، سواء كان في الشرق أم في الغرب، شكّل حالة متفردة في نوعها وشموليتها، وسابقة علمية في المدارس والحوزات الإسلامية لا مثيل لها،

وخصوصاً ما طرحه ضمن كتابيه: (اقتصادنا)؛ و(فلسفتنا). وإجمالاً يمكن تلخيص ما تميَّزت به المدرسة الفكرية للشهيد الصدر في التالي:

١ـ العمق في تأمل آراء الآخر، والتزامه الدقة اللامتناهية في دراستها وبحثها.

٢ـ توسيع دائرة البحث بحيث تشمل كل أدلة المدرسة الفكرية لدى الآخر، من دون إغفال جميع حيثياتها، وذلك في مجال دراستها ومناقشتها علمياً.

٣ـ التزام العلمية والمنطقية في الردّ على أفكار الآخر وما طرحه من أفكار وآراء، بعيداً عن كلّ ما من شأنه أن يمس بخصوصيات البحث العلمي الجادّ الذي يتوقف وجوداً على التزام الموضوعية، وقطع الطريق أمام جبهة النفس والهوى أن تؤثر في البحث، والتي غالباً ما تعمل على إضفاء الضبابية، وخلق أجواء مشحونة بأساليب الاستهزاء والسخرية، ليتحول البحث من إطاره العلمي إلى مجرد عملية تهريج وجدال عقيم.

٤ـ تحكيم أسس البحث العلمي، والاعتماد على المصادر التي اتكأ عليها أصحاب الفكر الآخر بالدرجة الأولى.

٥ـ تفوُّق أبحاث واستدلالات الشهيد الصدر المنطقية، التي تعبر عن مدى قدراته العلمية والمنطقية العالية، بشكل يفحم الآخر، ويجعله لا يجد مخرجاً سوى الإقرار والاستسلام.

ج. مساعيه الخالدة في رفع إشكالات الإنسانية ومديات المعاصرة

من أهم مميزات إبداعات ونتاجات الشهيد الصدر الفكرية كونها بنت الواقع. فقد ركز كثيراً على معالجة المشاكل الواقعية التي يعاني منها المجتمع الإسلامي والإنساني على السواء، بشكل جدّي، مع سعيه إلى عرض طرق الحلول التي تنبع في ثوابتها من أصول الدين ومرتكزاته الشرعية. يظهر هذا جليّاً من خلال الكتب التي ألَّفها، فهي جميعاً تدور حول قضايا المجتمع: (اقتصادنا)، (فلسفتنا)، (البنك اللاربوي)، (الإسلام يقود الحياة)، (الفتاوى الواضحة)، (دروس في علم الأصول)، (والأسس المنطقية للاستقراء)، حيث يلاحظ تناول كل واحد منها لجانب من جنبات

المجتمع، أراد بها رفع مشكلات؛ أو التنظير لتطوير المجتمع وجعله مواكباً لخصوصيات المرحلة.

د. إبداعات الشهيد الصدر في الدراسات الإسلامية، وإحياؤه للحوزة العلمية

لقد مارس الشهيد الصدر رحمه الله مهمة تدريس السطوح العالية والتحقيق في حوزة النجف الأشرف لما يقرب من ربع قرن من الزمن. اشتغل بالتحقيق في مجال الفلسفة والفقه والأصول. امتاز في هذا الميدان بالدقة، والإحاطة، وعمق التأمل. استوعب موروث أسلافه من العلماء، وانفتح بقلب واعٍ على نتاجات غيره من المعاصرين. انتقد حين وجد الحاجة تدعو إلى النقد، وأصلح حين وجد المقام يستدعي الإصلاح والتنقيح. منح للحوزة وللمجتمع نظرياته الشاملة، ولم يبغِ من وراء ذلك إلا صلاحها واستكمالها. واستطاع بآرائه وأفكاره أن يؤسِّس توجُّهاً جديداً ومدرسة فكرية كاملة، تميز عن غيرها بأسلوبها ومنهجها في جميع نواحي المعرفة، وبالذات في الفلسفة، والفقه، وأصول الفقه.

إن عمق أفكار الشهيد الصدر وحداثتها من جهة، ووقوفها في مقابل الفكر والمنهج الكلاسيكي في الحوزة العلمية من جهة أخرى، جعلها تهيمن على عقول طلاب العلوم الدينية، وخصوصاً في صفوف السطوح العالية، رغم أن المنهج الكلاسيكي السائد ضمن مناهج التدريس في الحوزة العلمية كان سبباً مباشراً في بطء حركتها، لتنتقل بالتدريج، وبلحاظ كيفها، إلى أوسع من ذلك، لتعم أرجاء الحوزة العلمية بمختلف سطوحها. بل إن قوة أفكاره واستقامتها ستكون الملاذ في المستقبل القريب أمام ذوي التفكير العقلي، والمناهج العلمية في جميع الحوزات العلمية، ومراكز البحث والتحقيق، ومعاهد التعليم العالي.

ونظراً للطبيعة النوعية لهذا الموضوع، حيث تضيق علينا فرصة تقصي جميع خصوصيات ومميزات مدرسة الشهيد الصدر في مختلف ساحات المعرفة الإسلامية، نلفت نظر القارئ إلى أننا قد قمنا سابقاً بعرض صورة مقتضبة من معالم مدرسة الشهيد الصدر الأصولية الجديدة في الرسالة التي كتبناها تحت عنوان (معالم

الفكر الأصولي الجديد)، وهي رسالة مختصرة عن معالم أفكار الشهيد الصدر في الأصول، مع مقارنتها بمدرسة الشيخ الأنصاري الأصولية، وكلنا أمل أن ينهض أصحاب البحث والتحقيق بدراسة فكر الشهيد محمد باقر الصدر في شتى حقول المعرفة الإسلامية، وأن يجروا مقارنتها بنظيراتها من المدارس الإسلامية الأخرى، حتى يُكشَف الستار عن مدى ما تزخر به مدرسة الشهيد الصدر من امتيازات علمية وفكرية عظيمة، وعن مدى تأثيرها في بناء وتشييد صرح الفكر الإسلامي الحديث.

إنجازاته العملية ـــ

يُمكن إجمالاً حصرها في التالي:

١. تربية مجموعة من الكوادر ـ علمياً وأخلاقياً ـ داخل الحوزة العلمية وخارجها، تتولى مهمة التربية الروحية للحركات الإسلامية وعموم الناس، وتوجيه جميع التوجهات والتيارات الفكرية العاملة في الساحة.

٢. تحصين المثقفين في الساحة الإسلامية أمام الهجمة الشرسة للفكر الإلحادي والمادي، والتي سخرت في خدمة أغراضها وجذب هذه الشريحة من المجتمع المسلم كل طاقاتها وأساليبها، التي تسهر عليها مؤسساتها الإعلامية العملاقة، التي تروج لآرائها ومخططاتها، فسيطرت على مراكز القرار في العالم الإسلامي، وأضلت الرأي العام في الشارعين العربي والإسلامي. كما أن استفادتها من التكنولوجية الحديثة وهبها فرصة التفوق الاقتصادي، وبالتالي السيطرة السياسية المباشرة حيناً وغير المباشرة أحياناً كثيرة، كما جعلت المال والمقام خادمها المطاع للوصول إلى أهدافها.

٣. تأسيس التنظيم الحركي الاسلامي، الذي عُدَّ طفرة نوعيةً في تاريخ النهضة الإسلامية الشيعية خصوصاً.

٤. تأسيس نظام (المرجعية ـ المؤسَّسة) وفق طروحاته في المرجعية الصالحة. ونظراً إلى أن ممارسة الشهيد الصدر لمهمة المرجعية لم تكن طويلة، بل إن مرجعيته لم تستقّر في الساحة الشيعية إلا في السنوات الخمس الأخيرة من عمره الشريف، وهي

فترة قصيرة، فقد وقفت في وجه تحقيق أهدافه الكبرى في جهاز المرجعية موانع كبيرة، تمثلت في وجود جهاز مرجعية محافظة متجذّرة في الوسط الشيعي، وفي الحوزة العلمية، ترى في الفكر والمنهج الكلاسيكي ـ حسب مبانيها العلمية ـ ضرورةً تحفظ الحوزة، وتضمن استمراريتها. وكذا النظام البعثي الذي كان يحكم العراق بالحديد والنار، والذي ما فتئ يعمل من أجل تضعيف مرجعيته، والحؤول دون انتشارها في مختلف الأوساط الشيعية، وقد توسل بكل السبل من أجل هذا الهدف المقيت، فلم يتورع في أكثر من مرة من سجنه شخصياً، أو سجن وكلائه في مختلف مناطق العراق، والتضييق على كلّ مَنْ يسعى لتثبيت مرجعية الشهيد الصدر رحمه الله أو مساندتها، إلى غير ذلك من الطرق.

٥ـ إشعال الثورة الإسلامية في العراق وقيادتها، وتقديم الإمدادات اللوجستيّة لاستمرار الثورة وتناميها، ومساندتها حتى إحدى الحسنيين: النصر؛ أو الشهادة.

تقييم إجمالي لأعمال الشهيد الصدر

يمكن تلخيص النظرة التقييمية لإنجازات وإبداعات الشهيد الصدر في النقاط التالية:

الأولى: من دون شك إن ما قدمه الشهيد الصدر للإنسانية من إنجازات علمية وفكرية؛ بلحاظ عمقها وجديتها، وما ترتَّب عليها من آثار إيجابية ظهرت ملامحها في النهضة الفكرية الإسلامية خاصة، وفي الدراسات الكلاسيكية الحوزوية، يُعدّ عاملاً في حفظ وصيانة العقل المفكر في الوسط الثقافي الإسلامي من حملة الاستلاب الثقافي والتغريب، التي كان يرفع لواءها المعسكرين الشرقي والغربي. وكان فكر السيد الشهيد بمثابة المدد الذي يمدّ المفكِّر والمثقَّف المسلم بالقوة اللازمة لكي يصل إلى بر الأمان، ويقف صامداً أمام الأمواج الهائلة من الأفكار الإلحادية والمادية التي تهبّ عليه من كل حدب وصوب. بيد أننا لا نعلم بشكل كامل الظروف التي أحاطت بالشهيد الصدر بعد انتهائه من تأليف كتابيه المعلمين: (اقتصادنا) و(فلسفتنا)، والتي حالت بينه وبين أن ينكبّ على كتابة بقية السلسلة التي وعد بها، ونعني بها

(مجتمعنا)، الذي كان المجتمع الإسلامي في أمس الحاجة إليه. ومهما يكن السبب فإن حرمان الإمة والإنسانية من فيوضات هذه الشخصية التي أبدعت على كل صعيد لا يمكن أن تغفر أو أن ينتهي التأسف عليها إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها.

ويغلب على الظن أن الموانع كانت ترتكز في سيطرة بعض العقليات على الحوزة، والتي لم يكن التفكير في أمر السياسة والمجتمع من شأنيتها. وتعدّ الظروف السياسية الحالكة التي كانت تخيم على العراق من أكبر العوامل المانعة من إتمام هذا المشروع العلمي والفكري العظيم؛ لأن البحث في أمور المجتمع كان يعني بالضرورة نظرية الحكم الإسلامي ووجوب قيامها تحت ظل ولاية الفقيه العادل، وهي مواضيع كانت تثير غضب وجنون الفئة الحاكمة، التي كانت تعتبر ذلك بمثابة تحريض ضدها، وتأليب الناس لمواجهتها. كما كانت هناك فئة ممَّنْ ينتمون إلى الحوزة العلمية ترى أن دخول الحوزة المعترك السياسي في ظل تلك الظروف، من تسلط النظام البعثي، وما يتمتع به من تغطية داخلية ودولية، ونظراً لظروف المجتمع الذي كان يتسم بالاستضعاف المادي والمعنوي، قد يجرّ إلى نتائج سلبية وخيمة على الحوزة، وعلى أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام، لذلك اختاروا أن ينأوا بالحوزة إلى عدم التدخل والبقاء في جانبها التعليمي، وهي وجهة نظر لها ما لها وعليها ما عليها.

الثانية: خطوة الشهيد الصدر في تأسيس (العمل الإسلامي)، والتي تعد في ذاتها نقلة نوعية عظيمة في تاريخ الإسلام، وسابقة تاريخية في الأوساط الشيعية، وكان تأثيرها في تقوية الحركة الإسلامية ذا مفعول قوي. لكن هناك بعض الإشارات، والتي تكون بمثابة شروط لإنجاح أي تنظيم، نرى من الضروري درجها هاهنا:

١ـ إن العمل في إطار التنظيم الإسلامي ـ بمعناه السياسي ـ يعني بالدرجة الأولى الطاعة الكاملة لقيادتها التنظيمية، والالتزام بأوامرها على أكمل وجه، كما يعني إطاعة الكوادر االقيادية فيه، والتي تنوب أو تتولى العمل في غرفة القيادة، ولاسيما عندما تكون الأوضاع السياسية قاتمة، وفي ظل جهاز حاكم بوليسي شرير، والذي عاش طويلاً في معظم الدول الإسلامية والعربية، وخصوصاً في العراق. وإذا لم تلتزم

القواعد في التنظيم الإسلامي الطاعة الكاملة لقيادتها وجهازها القيادي فإن التنظيم سيواجه انهزاماً كبيراً، خصوصاً في لحظات المواجهة مع النظام الديكتاتوري والبوليسي.

٢ـ لن تتوج فعاليات وتحركات التنظيم الإسلامي في ظل سيطرة جهاز حاكم قمعي وبوليسي إلا بالطاعة الكاملة لأوامر جهاز القيادة فيه، ومتابعة ومراقبة جهاز القيادة فيه لكل تشكيلات وهيئات التنظيم، من دون إغفال شيء منها مهما كان صغيراً، مع التزام المراقبة المستمرة لكل عضو في التنظيم، سواء على مستوى كوادره أم على مستوى القاعدة، حتى لا يخترق التنظيم بواسطة الاستخبارات الداخلية أو العالمية. وربما استدعى الشعور باختراق التنظيم إجراء عملية تطهير سريعة ودقيقة من هذه العناصر المشبوهة، كما أن تهاون بعض العناصر داخل التنظيم يستدعي إجراءات جزائية، وإخضاعهم للعقوبات وفق مقررات التنظيم، إلى غيرها من الإجراءات الوقائية، وخطوات بناء التنظيم والحفاظ عليه.

٣ـ من الواجب على العناصر القيادية في التنظيم الإسلامي في أوضاع المواجهة مع أنظمة ديكتاتورية مستبدة ـ والتي لا تتورع عن استخدام كل الطرق لضمان بقائها في سدّة الحكم ـ أن تؤمن لنفسها وأفراد التنظيم ظروفاً أمنية تمكنها من أداء مهامها كما ينبغي، وأن تجري توجيهاتها وأوامرها من دون حصول أي انقطاع بينها وبين قواعدها وكوادرها في مختلف هيئات التنظيم، وفي مختلف الأوقات والأماكن، فكلما كان التواصل سهلاً وميسراً كلما وصلت التوجيهات والإرشادات من القيادة إلى القاعدة، وتمكنت القيادة من معالجة مكامن الضعف والخلل في التنظيم.

٤ـ على الجهاز القيادي في التنظيم الإسلامي أن يأخذ الوقت الكافي في إدارة وتسيير مقررات التنظيم، وأن لا يكون عمله محكوماً بالعفوية، بل تكون المقررات والخطوات مدروسة ومحيطة بمعطيات الأمور، وهذا يحتاج إلى الوقت والدقة والتفرغ الكامل لهذه الأهداف.

إن العمل في التنظيم، سواء كان إسلامياً أم غير إسلامي، يوجب العمل بهذه الأمور الأربعة، وكل تهاون فيها أو تأخر في أدائها هو إيذانٌ في القطيعة بين القاعدة

والقيادة، وفتح المجال أمام العبثية في العمل. كما تعني في ذاتها فتح الباب أمام الاختراقات الاستخباراتية الوطنية أو العالمية لتلعب أوراقها في تخريب التنظيم، وإلقاء القبض على عناصره القيادية والفاعلة، ومن ثم تصفيتهم جسدياً أو معنوياً تحت مسميات، كمكافحة الشغب أو الإرهاب أو الخارجين عن القانون، واللائحة تطول، وبالتالي القضاء على كل مظاهر العمل الإسلامي الذي يهدف إلى الحرية والعدالة الاجتماعية.

وحسب الدراسات الميدانية للتنظيم الذي أسسه الشهيد الصدر رحمه الله فإن التنظيم لم يكن يمتلك أيّاً من العناصر الأربعة تلك. ولعل الشهيد الصدر قام بتأسيس التنظيم عملاً بقاعدة «ما لا يدرك كله لا يترك جله»، ونزولاً عند متطلبات الساحة العراقية التي كانت تستدعي إيجاد تنظيم إسلامي يتحمل مسؤولية قيادة المجتمع، وإيجاد إطار للعمل المنظم من جهة، وتربية عناصر تتولى مهمة توجيه وإرشاد القاعدة الجماهيرية وتهيئتها نحو الثورة ضد الأوضاع السائدة، وفي المقابل إيجاد حماية كافية لجهاز المرجعية من طرف الفئات الشعبية للمجتمع، ومن طرف الهيئات الجامعية والأكاديمية.

الثالثة: في الوقت الذي فجر فيه الشهيد السيد محمد باقر الصدر رحمه الله الثورة في العراق لم تكن مرجعيته بالشمولية الكافية، والتي تستتبع التزام الناس بأوامره وإطاعته الكاملة؛ كما أن قاعدته الشعبية لم تنتشر بالقدر الذي يكفي هذا العمل السياسي. وكان الشهيد الصدر يدرك بالفعل كل هذا بشكل كامل، لكن إقدامه على الثورة لم يكن منه مناص، ولم يكن هناك من أسلوب لمواجهة وحشية النظام البعثي في العراق سوى الخروج بالثورة. كما أن جوّ الخوف والرعب الذي خيم على كل طبقات المجتمع العراقي كانت تستدعي مثل هذا العمل؛ لكسر هذا الحاجز. وبالتالي كان هذا العمل من أجل تعبيد الطريق أمام انطلاقات أخرى صحيحة لثوار ومقاومين جدد من أبناء الشعب، حتى يتمّ الوصول إلى النجاح وتحقيق ثورة ناجحة. ولولا وقفة الشهيد الصدر الرسالية وصموده البطولي لتمكن النظام البعثي من الإجهاز على الحركة الإسلامية في مهدها، ولقلع كل جذور الثورة، ومحا كل رغبة في التحرر من الأفهام، ولتمادى في ديكتاتوريته ليمحو كل معالم الانتماء للهوية

الإسلامية، ولرزح الشعب العراقي في قرون أخرى طويلة من الظلم والقهر.

لكن هناك مسألة أخرى في غاية الأهمية، ولا يسعنا ونحن نتحدث عن ثورة الشهيد الصدر السكوت عنها، وهي ضعف المرجعية العليا سياسياً، وعدم مساندتها للثورة. وإن بُعْد المرجعية أو التزامها السكوت كان سبباً في انقسام الوضع الديني في أحلك الظروف السياسية التي تواجهها البلاد، والذي تسبَّب في عدم المناصرة الشعبية للثورة. بل إن ما جرى على الأوساط في داخل الشارع العراقي والحوزة الدينية شمل فئات أخرى داخل القوات المسلحة والجيش، الذي كان يضمّ العديد من العناصر الشيعية. لكن عدم وعي بعض المرجعيات بحقيقة الوضع في العراق، وعدم إحاطتها بما سيؤول له الوضع إذا فشلت الثورة، دفع بتلك الفئات إلى عدم التعاطف مع الثورة والدفاع عنها. وبطبيعة الحال ضعفها لا يطعن بأي وجه في نواياها، لكن الوضع كان يستدعي الوعي والإحاطة بحقيقة الأمور، الشيء الذي كانت له آثار سلبية ليس فقط على الساحة في العراق، بل على كل المنطقة الإسلامية. ولعل تمادي الأنظمة القمعية في أكثر من منطقة، والتخلف الذي لا زالت تقبع فيه العديد من البلدان الاسلامية، مردُّه إلى هذه الحالة في الوسط العلمائي في العراق، الذي يمثِّل قلب الأمة الإسلامية ومهد الثورة ضد الظلم ومَنْ يمثِّلونه. وهذا ما يجعل تأسّفنا وآهات حزننا تطول وتستمر إلى أن يبزغ فجر جديد.

الهوامش

(١) الشهيد الصدر، سنوات المحنة وأيام الحصار: ٤٢.
(٢) البحث الخارج هو المرحلة العليا من الدراسات الإسلامية في حوزات العلم الشيعية، يؤهَّل فيها الطالب لمرحلة الاجتهاد.
(٣) حياة الشهيد الصدر، مقدمة الحلقة الأولى من دروس في علم الأصول: ٤٧، مجمع الفكر الإسلامي.
(٤) مقدمة مباحث الأصول، الجزء الأول من القسم الثاني: ٥٢، ١٤٠٧هـ.
(٥) المصدر السابق: ٣٤.
(٦) اقتصادنا، مقدمة الطبعة الأولى: ٣٥.
(٧) المصدر السابق: ١٤٦.
(٨) المصدر السابق: ٩٢.
(٩) المصدر السابق: ١٥٠.
(١٠) المصدر السابق: ١٥٣.
(١١) المصدر السابق: ٩٢.
(١٢) المصدر السابق: ٩٣ ـ ٩٤.
(١٣) المصدر السابق: ٩٦.
(١٤) فلسفتنا (المقدمة): ٥١ ـ ٥٢، الطبعة الثانية.
(١٥) مقدمة مباحث الأصول: ٩٣.
(١٦) المصدر السابق: ٩٢.
(١٧) المصدر السابق: ٩٣.
(١٨) المصدر السابق: ٩٠ ـ ٩١.

السيد الشهيد الصدر في وجهٍ مشرق آخر

حوار مع: حرم السيد محمد باقر الصدر(*)

ترجمة: نظيرة غلاب

نظرة إلى حياة السيد الصدر وأخته الشهيدة ـــ

❁ بعد عرض أسمى الاحترام والتقدير لشخصكم الكريم، نودّ أن تتفضلي بإعطاء قرّاءنا الأعزاء نظرة مجملة عن حياة الشهيد، وأخته الشهيدة العالمة بنت الهدى.

۞ ولد الشهيد محمد باقر الصدر في ذي القعدة ١٣٥٣هـ، في الكاظمية، من عائلة عرفت بالعلم والزهد والتقوى. والده السيد حيدر من فضلاء الحوزة العلمية، وقد عرف عنه حسن الخلق والتواضع والزهد، واشتهر بتبحره في العديد من العلوم الدينية، لكنه لم يعمر طويلاً، فقد رحل عن هذه الدنيا في سن الشباب. وقد كان جده السيد إسماعيل الصدر من مراجع التقليد الكبار في النصف الأول من القرن الرابع عشر، توفي سنة ١٣٣٨هـ. كذلك كان بقية أجداد الشهيد محمد باقر الصدر فطاحلة في العلم، وعظماء في الحلم والورع، شجرة طيبة منحدرة من نسل الإمام الكاظم عليه السلام. عاش أجداد وآباء عائلة الصدر في كلٍّ من: إيران، والعراق، ولبنان، وكانوا نبراساً للعلم والهدى، وحماة للدين، ومبلغين للعلوم والمعارف الإسلامية الواسعة. عاش السيد الشهيد باقر الصدر في وسط عائلة شيمتها العلم والفضل، وشرب في أحضانهم الدين والأخلاق، وكان ذلك الطفل الورع النابغة، الذي يكبر يوماً بعد يوم بمقدار ما يكبر أقرانه في سنة وسنوات، وكان يجلب الانتباه بشدة أدبه وسرعة بداهته. حدَّد هدفه

(*) من النساء المجاهدات الصابرات اللواتي خضن تجارب العمل الإسلامي، وعاشت مع السيد الصدر بإخلاص ومحبّة وتضحية.

منذ نعومة أظافره، وتجلى واضحاً في كبره، سالكاً نهج الأئمة الأطهار عليهم السلام وأجداده الكرام. كان همُّه إصلاح المجتمع الإسلامي، وتحريره من قيود الاستبداد والجهل. ولم يكن هذا الهدف غريباً عنه، ولاسيما أن أباه وأمه كانا مثالاً للإنسان القدوة، وتشخيصاً عينياً للإنسان الكامل. كانت أمه تحرص على أن ترضعه وهي على وضوء، وكانت تقرأ له القرآن عند نومه، رغم أنها كانت أماً لسبعة أولاد ذكور وسبع إناث، وقد ابتُليت بفقد خمسة أولاد ذكور وستّ إناث؛ لأسباب مختلفة، وفي ظروف متفرقة، لكنها تحمّلت تلك المصائب بالصبر والاحتساب إلى الله واهب الحياة. أصيب الشهيد الصدر في سن طفولته بمرض عضال، لدرجة أقلقت والديه، وشغلت بالهما، فكان التوسل بالحجّة ابن الحسن عجل الله تعالى فرجه الشريف وسيلتهما إلى الله في طلب الشفاء والعافية لقرّة عينهما، واستجاب الله تعالى دعاءهما، وأنجح توسلهما. وكانت أمه أثناء توسلها الدائم في طلب الشفاء قد رأت الحجة عجل الله تعالى فرجه الشريف في منامها، مخاطباً إياها بعدم القلق على حال ابنها، وأنه سوف يشفى بإذن الله، ومبشراً إياها بمكانة عالية ومستقبل مشرق في العلم والدين. وكانت المعجزة، فقد شفي السيد محمد باقر الصدر في اليوم التالي، وأُلبس ثوب العافية.

كانت عائلة الشهيد رغم مكانتها العلمائية الكبيرة تعيش حياة بسيطة خالية من كل مظاهر الترف، فلم تكن أمور الحياة المادية تشغل حيزاً في فكرها وقلبها، بل كان كل سعيها وكدها في أن تبلغ المراتب العالية في العلم، وأن تحصل على أوسع قدر من المعارف والأخلاق. بعد وفاة والده تربى في حضن والدته سليلة العلماء، فقد كانت بنت الشيخ عبد الحسين آل ياسين، وأخت الشيخ محمد رضا، والشيخ راضي، والشيخ مرتضى آل ياسين. وهؤلاء كانوا أخواله الذين تربى في وسطهم، فقد خصَّه الشيخ محمد رضا بعناية متميزة، وكان عنده مورد احترام وتقدير، وكان له فضلٌ كبيرٌ في توجيهه وتعليمه وتأديبه. أخوه السيد إسماعيل من العلماء الفضلاء والمجتهدين الأجلاء، كثير الحركة والنشاط في النجف، رغم أنه قد غادر الدنيا سنة ١٣٨٨هـ، وهو ابن الأربعين من العمر. أخته (آمنه بنت الهدى الصدر) من النساء العالمات، شاعرة، وكاتبة، ومعلمة للفقه والأخلاق، وكانت رفيقة أخيها الشهيد في

درب الجهاد والتضحية، ومقاومة الظلم والاستبداد، والتصدي للسلطة الغاشمة، فكان أن تُوِّجت بالشهادة إلى جانب أخيها رفيق دربها، وخُتِم لكليهما بالسعادة.

أنهى السيد محمد باقر الصدر مرحلة الابتدائي قبل سن الحادية عشرة من عمره، وقد لوحظ عليه في هذه المرحلة النبوغ وشدة الذكاء، واستعداده العريض لتلقي العلوم والمعارف، فكان معلّموه وأساتذته في تعجب ودهشة؛ لما يرونه من نباهته وذكائه.

أكمل دراسة المنطق وما كتب فيه من رسائل، إلى جانب الإشكالات الواردة على بعض كتب المنطق، في سن الحادية عشرة من عمره. وفي سن الثانية عشرة درس معالم الأصول على يدي أخيه، كما درس الإشكالات الواردة على كفاية الأصول، وكان قد قرأ أكثر دروس السطوح من دون الحاجة إلى معلم أو أستاذ. وفي سنة ١٣٦٥هـ هاجر من الكاظمية متوجهاً إلى النجف الأشرف، وحضر حلقة درس الشيخ محمد رضا آل ياسين والسيد الخوئي، وهو لا زال فتى في الثانية عشرة. والعجيب في الأمر أنه كان يحضر حلقات الدرس تلك إلى جانب العديد من الشخصيات العلمية الكبيرة. ومن الأمور التي تظهر مدى قوة السيد الشهيد العلمية، وإحاطته الكاملة بمطالب الدرس وإشكالاته، أن الأستاذ الشيخ محمد رضا آل ياسين طرح يوماً مسألة علمية، حيث سأل: هل يتنجس بدن الحيوان بملاقاته النجاسة، ويطهر بزوالها، أم أن بدن الحيوان لا ينجس ولو لقي عين النجاسة؟ ثم أضاف قائلاً: إن الشيخ الأنصاري رحمه الله أجاب عن هذا الإشكال، وأورد مبحثين آخرين في كتاب الطهارة، وإن أستاذه السيد إسماعيل الصدر كان قد طلب منه ومن بقية الطلاب أن يأتوا بثمار ومطالب أخرى جديدة، وإنه يطلب من طلبته أن يفكروا في المسألة ملياً، وأن يطرحوا مسألة جديدة في نفس الموضوع. ولما كان يوم الغد أتى الشهيد محمد باقر الصدر من دون جميع الطلبة إلى الشيخ محمد رضا آل ياسين، وقد أتى بمسائل جديدة في نفس الموضوع. وكان الشيخ يرى في الشهيد أنه يحضر الدرس فقط لأجل التفنُّن، ولم يكن يحضر للتحصيل، خصوصاً مع صغر سنه وقلّة عدد أيامه في التلمُّذ على يديه، فتوجه الشيخ إلى باقي الطلاب سائلاً إياهم إن كان من بينهم من أتى بثمرات جديدة واستنتاجات بكر، ولما كان الجواب بالسلب توجه إلى الحضور قائلاً: لقد أتى السيد محمد باقر

الصدر بثمرات جديدة في هذا الدرس، وأنا أطلب منه شخصياً أن يعرضها عليكم، ويبينها لكم. وكان في ذلك المجلس مصدر إعجاب الجميع. وعن السيد إسماعيل الصدر رحمه الله أن كل ما بلغه أخوه الشهيد محمد باقر الصدر من مراتب في العلم كان قد حصل عليه وهو في أوائل سن البلوغ. وفي سنة ١٣٧٠هـ، وحين توفي الشيخ محمد رضا آل ياسين، تولى الشيخ عباس الرميثي كتابة التعليقات على رسائل أستاذه، وطلب من الشهيد باقر الصدر أن يحضر مجالس درسه، وكان قد كتب هو الآخر تعليقات على رسائل أستاذه، فلما رآها الشيخ عباس الرميثي، وعاين تبحُّره وإحاطته الكاملة بكل المطالب العلمية، توجَّه إليه قائلاً: من دون أدنى شكّ أو ترديد التقليد في حقك حرام. وكان الشهيد الصدر قد حضر درس السيد الخوئي في الأصول إلى سنة ١٣٧٥هـ، وفي الفقه إلى سنة ١٣٧٨هـ. قال أحد الطلبة الذين كانوا يحضرون درس السيد الخوئي إلى جانب الشهيد الصدر: كان الشهيد الصدر يحضر معنا الدرس كأنه قمر، كان يستوعب المطالب كلّها، ويسيطر عليها من كل جوانبها، وكان يتقدمنا مرتبة يوماً بعد يوم. كان يقضي معظم أوقات يومه في المطالعة والدرس. وفي العشرين من عمره بدأ مرحلة التدريس بتعليم كتاب كفاية الأصول، وتربية طلبته. وفي سن السابعة والعشرين(١٣٧٨هـ) بدأ بتدريس البحث الخارج في الأصول، وفي الثامنة والعشرين(١٣٨٠هـ) شرع في تدريس البحث الخارج في الفقه. وفي سن السابعة والعشرين بنى ببنت عمه السيد صدر الدين الصدر (أخت الإمام موسى الصدر)، وكانت تكاليف زواجه ممّا حصله من طبع كتبه. وكان الإمام موسى الصدر والشهيد الصدر أبناء عمومة، وكان زواجه ثمرة علاقته القوية مع ابن عمه، تلك العلاقة التي قويت واشتدت أواصرها في الفترة التي كانا فيها معاً في النجف يشتغلان بالتحصيل والتعلم. وفي تلك الأيام كان كلٌّ منها قد وصل إلى مرحلة الاجتهاد، وتشاركا كل ما غطى تلك الفترة من حلوها ومرها، وكانا يتباحثان معاً دروسهما والمطالب العلمية، كما كانا يتشاوران فيما بينهما. كان الإمام موسى الصدر يكنّ مشاعر الاحترام لابن عمه الشهيد الصدر، كما كان الأخير يبادله نفس الاحترام والحب، فكان يخاطبه بـ (سيدي)، وكان الإمام موسى الصدر يخاطبه بدوره بـ (مولاي). وكان الإمام موسى الصدر كلما ضاق صدره، وأحس

بالإرهاق، جراء المسؤولية الملقاة على عاتقه، يأخذ جوازه ويسافر إلى النجف، حيث يجد السلوى، ويرتاح بالقرب من ابن عمه، وفي أحضان النجف الأشرف. وبعد اختطاف الإمام موسى الصدر، وشدة حصار وأذى نظام صدام للشهيد الصدر، كان هذا الأخير يقول: لو كان موسى الصدر بجانبي لذهب عني ما أجده من تعب ونصب من صدام وأعوانه.

❁ سيدتي، لو تتحدثين لنا عن حياتكما في العراق، كيف كانت تمر في ظل كل تلك الظروف؟

۞ أنا من مواليد مدينة قم، وعشتُ فيها إلى التاسعة عشرة من عمري. لقد انتقلت بعد اقتراني بالشهيد الصدر من إيران إلى العراق. وقد كان فراقي وبعدي عن أهلي؛ ونظراً للفرق بين البلدين، وظروف العيش في كليهما، يسبِّب لي الضيق والتعب، وقد عانيتُ كثيراً لذلك. وفي يوم من الأيام ذهبت إلى زيارة حرم أمير المؤمنين عليه السلام، وتوسلت به أن يلهمني ربي الصبر، ويمنحني القدرة على تحمل فراق أهلي، وصعوبة العيش في هذه الأرض الطيبة، وبعد الزيارة انتابني إحساسٌ عجيب، لدرجة جعلتني أقول في نفسي: إنني لم أقترن بشخص عادي، إن زوجي وليٌّ من أولياء الله والعلماء الأتقياء، وحاصلُ تلك الزيارة أنّني شعرتُ بالاطمئنان، وابتعدت عن نفسي كل مشاعر الضيق والضجر، وعشت بقيت أيامي مع الشهيد في كامل الرضا والاطمئنان.

أخلاقه رحمه الله في المنزل

❁ حبذا لو تحدثيننا عن معاملة وأخلاق السيد الشهيد في المنزل.

۞ لقد كان السيد الشهيد طيباً، وعطوفاً، ويقدِّر من حوله. كان محسناً مع أمه وأولاده، وكان بمثابة الصديق لأخواته وإخوانه. وكما كان مع أهله محباً حنوناً كذلك كان خلقه مع أولاده، وبقي إلى آخر لحظة من حياته المباركة مثالاً للولد البار والمطيع لأمه، يشاورها ويحترم آراءها، كما أنه كان يولي عناية خاصة، طوال حياته، بأخته، فقد كان يصرف وقتاً في إعانة أخته، يقرأ مكتوباتها، ويجيب عن

تساؤلاتها، ويحترمها، ويهتم بمشاعرها وأحاسيسها، ويساعدها في كل ما تحتاجه، في الجانب العلمي وغيره. وإلى جانب ذلك كان يقدِّر زوجه، وكان لا يفتأ يردد على مسامعي قوله: أتمنى أن تدركي ما أنا مشغول به، وما يشغلني عنكم، وأتمنى في نفس الوقت منك أن تسامحي تقصيري، وتصفحي عما يقلقك مني.

لقد كان السيد الشهيد عطوفاً ورحيماً بأولاده، وكان يهتم بأمورهم، وكان إذا مرض أحدٌ منهم يبادر للسؤال عنه بمجرد رجوعه إلى البيت، فقبل أن يغير ملابسه يذهب إلى جانبه، ويتفقد أحواله، ويمرر يده المباركة على رأسه، وهو يقرأ سورة الفاتحة. وقد بقينا على هذه السيرة بعد وفاته، فنقرأ سورة الفاتحة للشفاء. وكان رحمه الله يعامل أولاده معاملة الكبار، فيحاورهم، ولم يكن من شيمه أن يجبرهم على فعل شيء لا يرغبونه، يذكِّرهم بالصلاة في أول وقتها، وكان يقول لهم: إنني لا أراكم إلا قليلاً، لذا لا أحب أن يصدر منكم ما يدعوني إلى توبيخكم، فلا تجبروني على هذا بفعلكم للقبيح أو ما يستوجب التوبيخ والتأديب.

وكم كان الأولاد يفرحون برجوع والدهم إلى البيت، فرغم صغر سنّهم كانوا يدركون الأوضاع والظروف التي يعيش فيها والدهم، لذلك كان رجوعه إلى البيت يعني سلامته، وغنيمةً تستوجب شكر المنعم وحمده على سلامة والدهم.

علاقته الروحيّة الخاصّة بأهل البيت عليهم السلام

❁ محبة السيد الشهيد الخاصة لأهل البيت عليهم السلام دليل على إدراكه وفهمه العميق للمضامين العالية لمقامهم ومكانتهم، وشاهد على توجهه الصحيح لموقع رسالتهم. أنتم زوجه، أقرب الناس إليه، كنتم شاهداً على حالاته الروحية والمعنوية بشكل عام، نتمنى عليكم أن تصفوا لنا بعض الأحداث الخاصة بهذا الجانب من حياته.

❁ كان السيد الشهيد يواظب على زيارة سيد الشهداء عليه السلام في كل ليلة جمعة، وكان يقرأ زيارات مخصوصة، كالزيارة الشعبانية والرجبية، وكان لمدة عشر سنوات يسافر لزيارة أبي عبد الله الحسين عليه السلام، ولم يكن يمنعه عنها إلا المرض

الشديد أو الحالة الأمنية. وكان الشهيد لا يُرى إلا صائماً في أغلب المناسبات. وكم كانت عيناه تفيض بالدموع وهو يتلو زيارة عاشوراء! وكم كان بغضه لقتلة أهل البيت، والحسين بالخصوص، يزداد ويغلو في صدره ومحاسنه مبتلة بالدموع، حتى أن زوار الحرم الشريف كثيراً ما يلفت نظرهم حالة الشهيد وهو في تلك اللحظات! في يوم من أيام زيارته للإمام الحسين عليه السلام، وبينما كان الشيخ محمد جواد مغنية والسيد محمود الخطيب يرافقان الشهيد في الزيارة، وبعد أن دخلوا الحرم، وقفا قبال صحن الساعة، وأخذا ينظران إلى السيد الشهيد وهو يبكي بحالةٍ استوقفت الزوار، الذين أخذوا بدورهم ينظرون إليه، فتوجهوا إلى الشيخ مغنية يسألونه: ماذا يفعل السيد؟ فأجابهم: إنه يعرف مع مَنْ يتحدث، وأمام مَنْ يقف، كما يعرف معاني ومضامين تلك الزيارات التي يقرؤها. كما أن السيد الشهيد كان مداوماً على قراءة زيارة أمير المؤمنين عليه السلام، وكان يحفظ متنها عن ظهر قلب. كان الشهيد يحمل مطالب دروسه إلى حرم أمير المؤمنين، وهناك يعكف على دراستها، وظل لمدة لا يستطع الذهاب إلى الحرم، فجاء رجل لعيادته، وأخبره قائلاً: إنه رأى أمير المؤمنين عليه السلام في المنام، وقال له: إن ابني محمد باقر (يعني الصدر) صار له أياماً لم يأتِ إلينا للمطالعة والمباحثة.

لقد كان يبدو جدّ متأثّراً في أيام عاشوراء، وكانت مظاهر الحزن تبدو على ملامحه طيلة تلك الأيام، وكان يعمل جاهداً على أن يحضر كربلاء في هذه الأيام بالذات، وكان في أيام عاشوراء يقرأ زيارة عاشوراء، ويستمع إلى المقتل، وكان يبكي بصوت عالٍ، وينحب نحيباً لهذا المصاب، وكان وعائلته يمسكون عن الطعام إلى ما بعد ظهر يوم عاشوراء، كما أنه كان يبتعد عن أكل ما لذ وطاب طيلة الأيام العشر من محرم، وكان لا يستقبل أحداً يوم شهادة الإمام علي عليه السلام. لقد كان يداوم على عقد مجلس عزاء لأهل البيت عليهم السلام في كل ليلة خميس في بيته، وكان في أيام شهادة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام يقيم مجلس العزاء لمدة ثلاث ليالٍ، وكلما رزقنا مولوداً أنثى نذر لله إن رزقني مولوداً ذكراً أن يقيم في يوم شهادة الإمام السجاد مجلس عزاء له، والحمد لله فقد رزقنا في السنة التالية بالسيد محمد جعفر، ولا زلتُ أداوم على عقد هذا المجلس إلى اليوم.

لم يكن السيد الشهيد يشكي حزنه وبثّه إلا إلى الله سبحانه وتعالى، فكان

يناجي ربه كثيراً، إليه يشكو آلامه، ومنه يطلب العون والمدد، وكان التوسل بأهل البيت عليهم السلام وسيلته إلى الله، وكان يعلم ويشجِّع أبناءه على التوسل بأئمة أهل البيت عليهم السلام في الشدائد والكربات، وأن لا يشكوا مصائبهم أو ما ألمّ بهم إلا إلى الله، وأن يرجوا الإعانة والتوفيق من الله وحده. وفي الوقت التي تمت محاصرة البيت، وأصبحت الأوضاع جدّ سيئة، وبقي السيد الشهيد وحده، دعا أهل بيته جميعاً إلى قراءة دعاء التوسل، وغيره من الأدعية.

أما في ما يخص الصلاة فخشوع القلب كان دأبه. وطبق شهادة جميع أفراد العائلة فإن الشهيد كلما اشتغل بالصلاة يترنَّم كل البيت بنفحات معنوية عذبة، وتشعر وكأن الملائكة قد غطت أرجاءه، وفاضت قدسيتها عليه بالطمأنينة والسكينة. وكان يروم الخلوة والابتعاد عن أعين الناس في صلاة الليل. أما في رمضان فلم يكن يتهاون في قراءة جميع الأدعية والقيام بجميع الأعمال الواجبة والمستحبة المرتبطة بكل ليلة من لياليه الكريمة، وما لم ينتهِ منها لا يذهب إلى مكتبه. وكانت تلك سيرته في جميع المناسبات الدينية، رغم مشاغله الكثيرة.

وكان حصار منزلنا، وبالخصوص في الأيام القريبة من يوم شهادته، مناسبة وفرصة اغتنمها في أداء العبادات، وتعمَّق فيها، فقلّة الانشغال بالخارج يفتح المجال أكثر للارتباط بالله تعالى، والصعود في مراتب القرب منه جل جلاله.

طريقته في الدراسة والاهتمام بالعلم

❁ سيدتي، إن كثرة أعماله العلمية، وسعة دائرة تحقيقاته وتأليفاته، يكشف بحقٍّ جديته وتفانيه في القيام برسالته العلمية والفكرية، فهلاّ تحدثين طلاب العلم والباحثين والمحققين عن طريقة وأسلوب الدراسة والبحث عند السيد الشهيد.

۞ كان الشهيد دؤوباً على الدرس والكتابة والتباحث. ولمدة طويلة كان الشهيد يذهب كل ليلة إلى بيت السيد الخوئي رحمه الله للمباحثة، وفي ليلة من الليالي كان مريضاً، فأصررت عليه أن لا يذهب إلى تلك المباحثة، وأن يستريح هذه الليلة حتى تعود له العافية، ولكن جوابه كان أن طلب مني إحضار المصحف الكريم، فاستخار به،

فخرجت الآية الكريمة: ﴿إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لأَهلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً﴾ (طه: ١٠)، فنظر إليّ وقال: والآن ماذا تقولين؟ أأذهب أم أمكث في البيت؟! فأجبته: اذهب محفوفاً بعناية الله.

وكان السيد الشهيد إذا عزم على الكتابة، وتناول القلم، لا يرفعه عن الورقة إلا إذا أتمّ المطلب، وكنت أقول له مازحةً: هل نزل عليك الوحي، فجلست تكتبه بهذه الطريقة، وبهذه السرعة؟ فكان يتبسم، ويقول: ربما كان كما تقولين. وكثيراً ما كانت تتورم أنامل يده اليسرى من شدة وكثرة الكتابة، حيث إنه كان يكتب باليد اليسرى، فكنت أهيئ له عجينة أضعها على أصابعه، ولكنها لم تكن تؤثّر في الأمر شيئاً؛ لأن السيد كان يستمر في الكتابة، ويداوم عليها، ولم يكن يشغله أو يعكّر صفو مزاجه شيء ممّا يحيط به إذا كان مشغولاً بالكتابة، حتى أن ضجيج الأولاد وصراخهم لم يكن ليجعله يتوقف عن الكتابة، وكنت أعمل على إسكاتهم أو إخراجهم من الغرفة، لكنه كان يبادرني بالقول: اتركيهم، لا تؤذيهم، واتركيهم يلعبون.

❁ طريقة وأسلوب معيشة وحياة الشخصيات الكبيرة وذوي المكانة المميزة تكون دائماً بمثابة القدوة لغيرهم، ومنهم تؤخذ العبرة، لذا نودّ من شخصكم الكريم أن تحدثينا قليلاً عن المحطات والنقاط البارزة في حياة السيد الشهيد الشخصية، التي كانت ملفتة في معاشرتك له.

۞ إن زهد السيد وتعفّفه كان دائماً درساً لي في حياتي. فبعد زواجي به عرفت أن لباس السيد كان عبارة عن عباءة وقميص أبيض، فسألت عن باقي لباسه، فقالت السيدة أم الشهيد، وهي تضحك: ألم أقل لك: إن زوجتك ستتعجب حين تراك وليس لك لباسٌ غير الذي ترتديه على بدنك. لم يكن يهيئ لباساً إلا نادراً، وإذا فعل فإنه يكتفي بالقليل، وكان يقول: عجباً، كم لي من جسم حتى أخيط وأشتري ألبسة كثيرة؟! لقد كان يزهد في هذه الدنيا الفانية، وكان يردد علينا: إن حياة العالم المرجع يجب أن لا تفرق عن حياة سائر الطلبة. لقد كان في قمة التواضع، لذا فهو طيلة حياتي معه لم يدخل أثاثاً إلى البيت، وبقي البيت على نفس الشكل إلى يومنا هذا. أهدى له يوماً أحد أصدقائه آلة، ولكنه لم يستفد منها أبداً، وأعطاها أحد

أصدقائه، وطلب منه أن يبيعها، وأن يقسم أموالها بين الطلبة، وأخذ لنفسه شيئاً قليلاً. نعم، كان كلما أهداه أحدٌ هدية يقبلها، ويشكره عليها، وبعد ذلك يعطيها لطلبة العلوم الدينية. وهذا التعامل منه لم يكن على نحو التكبُّر أو الغرور والاعتزاز بالنفس، لكنه كان زاهداً ومتقياً، وكان يكتفي لحياته وأفراد أسرته باليسير، حتى أن أكلنا وشربنا كان بسيطاً وخالياً من أبسط مظاهر الترف أو التوسعة على النفس، فقد كان يروم المساواة في المعيشة مع الطبقة المقهورة من المجتمع، والتي كانت تمثّل الأغلبية.

موقف السلطة الحاكمة من الشهيد الصدر

❁ كيف كان موقف وتعامل النظام الحاكم في العراق، والمتمثل آنذاك في شخص صدام وزمرته، مع السيد الشهيد لما أصبحت له مرجعية التقليد؟

۞ بعد وفاة السيد الحكيم، وبعد إصرار الناس الشديد على انتقال مرجعية التقليد إلى السيد الشهيد، أصدر رحمه الله رسالته العملية. وقد كان هدف الشهيد من نشر رسالته تنبيه الناس إلى فساد النظام البعثي، وخصوصاً أن الناس كانت تربطهم بالسيد علاقة وطيدة، وكانوا يستمعون له ويطيعونه. فمرجعية السيد الشهيد كانت تخالف مثيلاتها في آرائه ونظرياته في التجديد، والارتقاء بالحوزة العلمية، وفي إرشاد وإنضاج المجتمع الشيعي خصوصاً، والعراقي بشكل عام. وكان يعمل على الدعوة إلى تحسين الوضعية الاجتماعية لفئة طلبة العلوم الدينية، وتحسين ظروفهم المعيشية، وكذا الطبقة الفقيرة من المجتمع، والتي كانت في ظل حكومة الفساد تمثل أغلبية المجتمع العراقي.

وفي هذه المرحلة بالذات أصبح السيد الشهيد يعيش مشكلات ومضايقات عديدة وعسيرة؛ فضغوطات النظام الحاكم وزمرته الفاسقة كانت تزداد يوماً بعد يوم، وكانت مقاومة السيد الشهيد وإصراره على انبعاث المجتمع قد جعلت النظام الحاكم يعيش أسوأ أيامه، وكان ذلك يهدد استقراره، فكان يعمل على اعتقال السيد الشهيد وإيداعه السجن، كأسلوب للحدّ من تحركاته، وبالتالي ليتجنَّب

التصادم المباشر مع مقلّدي السيد، والحوزة العلمية بشكل عام. وكان﵀ كلما حملوه إلى السجن يقول: إنني وفي طريقي إلى السجن أشعر بنشوة الإحساس بقرب الموعد بلقاء الله عز وجل، وكلما أطلقوا سراحي كنت أشعر بالخيبة من ذلك الأمل؛ لأنني أشعر أنني عائد إلى هذا التكليف الصعب. وبعد أن يئس النظام الصدامي من إطفاء نور السيد، ونور أفكاره وآرائه وتحركاته الرسالية، وتيقن أن التضييق عليه لا يزيده إلا إصراراً، وأن السجن لا يزيده إلا حياة، حكموا عليه وعائلته بالإقامة الجبرية، ومنعوا عنه ملاقاة الناس، ودام هذا الوضع زهاء عشرة أشهر، وكانت فرصة أمام السيد الشهيد للتفرغ للكتابة والتأليف، فدوَّن العديد من مؤلَّفاته الجديدة، واشتغل بالعبادة والمناجاة، إلى جانب تربية أسرته على الصبر والتحمل. سألته يوماً: ماذا ـ لا قدّر الله ـ لو أخذوك وتركونا وحدنا، ماذا يكون مصيرنا؟ فأجابني متيقناً: إن لكم رب رحيم، وهو يكفيكم عن غيره، وأنتم وديعتي عنده.

لقد كان دائم البشر رغم شدة الظروف وصعوبة الوضع، وكان دائم التوكل على الله، والتسليم له في السرّاء والضراء، وكان يقول لنا: إنكم تستطيعون الرحيل عن هنا، فصدام وزمرته لا يريدون سواي، ولا حاجة لهم بكم. وهذه الأخلاق وهذا التعامل الوديع منه ما كان يزيد أفراد أسرته إلا ارتباطاً والتحاماً به. وفي آخر سنة ضعف بدنه كثيراً، وخصوصاً مع ارتفاع ضغطه الذي استوجب عليه حمية غذائية صارمة.

❁ كيف كانت آخر مرة تعرض فيها السيد الشهيد للاعتقال من طرف أزلام النظام الصدامي؟

۞ لما اعتقل السيد﵀ من طرف بلطجية صدام تيقن السيد الشهيد أن هذه المرة لن تكون كسابقتها، وخصوصاً أن البعثيين قد قالوا: إنهم سينقلونه إلى سجن بغداد.

ورغم هذا التصعيد من طرف النظام إلا أن السيد ظل محافظاً على هدوئه، وكانت السكينة تلازمه في كل الأوقات والظروف، وكان يقول: لقد استعددتُ وتهيأت للشهادة منذ وقت بعيد. وفي أثناء ذهابه، وحين وقف أمام عائلته أراد تسكين

روعتهم، وتهدئتهم، فقال: إن كل واحد منا سيرحل عن هذه الدنيا لا محالة، وكل فرد يرحل عنها بطريقة من الطرق، قد يكون السبب مرضاً أو غيره، وقد تعددت الطرق والأسباب، لكن الموت حين يكون على طريق الله وفي سبيل الله فهو الأعظم والأشرف عند الله، وإذا أتى الأجل ولم أقتل على أيدي صدام وأعوانه قد أموت بمرض أو بأي حادث آخر، وإذا كان الموت في سبيل حفظ الدين ومذهب أهل البيت عليهم السلام فإن الأفضل والأشرف أن نسرع نحو الشهادة إلى الله. نعم، لقد كانت هذه اللحظات عصيبة وشديدة على أفراد عائلته.

حول أعماله العلمية ومدى الاهتمام بها ـــ

❁ ماذا كان الموضوع الرئيسي لمعظم مؤلّفات السيد الشهيد؟ وكيف كانت فعالياته العلمية، وفي التحقيق والبحث؟ وهل يوجد اليوم مؤسسة أو مؤسسات تعنى بآثار السيد العلمية، وبتحقيقاته؟ وما هي الآثار العلمية التي تم نشرها في الوقت الحالي لأول مرة؟

۞ أغلب آثار السيد رحمه الله في مجال الأمور والمسائل العقائدية، والفلسفة، والاقتصاد، والمنطق، والأخلاق، والتاريخ. ولما كان في المجتمع العراقي فرق منحرفة تعمل ليل نهار على إغراء الشباب، والمكر بهم، والدفع بهم إلى طريق الانحراف والخروج عن الدين، عن طريق زرع أفكار مخالفة للعقيدة، وداعية للإلحاد وتبني أفكار حزب البعث الحاكم، أخذ السيد على نفسه عهداً أن يدافع عن الدين إلى آخر رمق، وأن يبذل فيه الغالي والنفيس، وأن يعمل على إرشاد الشباب إلى طريق النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وأن يدعوهم إلى منهج أهل البيت الكرام عليهم السلام، وأن يبين لهم الدين الصحيح والمنهج الحق، وأن يعلّمهم التعاليم الدينية الصحيحة والخالصة. وكانت آثار السيد الشهيد تتميز بخصلتين: الدقة الفائقة والتعمق الذي يقل نظيره من جهة؛ والإحاطة الكاملة بجميع الجوانب والمباحث الخاصة بكل مطلب علمي ديني من جهة أخرى. لقد كان عميقاً في تحقيقاته وأبحاثه، مجتهداً فتح العديد من أبواب البحث والتحقيق، وقد ورد مجالات علمية أخرى غير الفقه والأصول بنفس

الخصوصيات والمميزات، فأوجد فقهاً جديداً، وعرضه على طلبته، كما فتح مباحث قيمة وعظيمة.

وفي الفترة الراهنة يعمل مركز الأبحاث الخاصة بآثار السيد الصدر﵀ (مجمع الشهيد الصدر) على تهيئة وإعداد تحقيقات وأبحاث علمية حول مؤلفات الشهيد الصدر، وقد تم إلى اليوم طبع ستة عشر (١٦) جزءاً من مجموعة آثار الشهيد، والمكوَّنة من عشرين (٢٠) جزءاً، وهي عبارة عن: ١ـ فلسفتنا، ٢ـ الأسس المنطقية للاستقراء، ٣ـ اقتصادنا، ٤ـ البنك اللاربوي في الإسلام، ٥ـ الإسلام يقود الحياة، ٦ـ دروس في علم الأصول (الحلقة الأولى والثانية)، ٧ـ دروس في علم الأصول (الحلقة الثالثة)، ٨ـ المعالم الجديدة للأصول، ٩ـ غاية الفكر، ١٠ـ بحوث في شرح العروة الوثقى في أربعة عشر (١٤) جزءاً، ١١ـ الفتاوى الواضحة، ١٢ـ فدك في التاريخ، التشيع والإسلام، بحث حول المهدي، ١٣ـ المدرسة القرآنية، علوم القرآن (مقالات قرآنية متفرقة)، ١٤ـ أئمة أهل البيت ودورهم في تحصين الرسالة الإسلامية.

وهناك آثار أخرى للسيد الشهيد تحت الطبع، وهي: موجز أحكام الحج؛ تعليق على مختصر منهاج الصالحين؛ تعليقة على مناسك الحج؛ التعليقة على صلاة الجمعة من كتاب الشرائع؛ منهاج الصالحين ج١ و٢.

وقد تم طبع بعض أقسام الجزء ١٧، و١٥، و٢٠ لأول مرة. ومن النكات الخاصة بالجزء ١٧ أنه يشمل مجموعة من خطب الشهيد﵀ الخاصة بالحوزة، واقتراحات السيد حول إيجاد مقدمات الرشد والنمو الفكري والمعنوي العلمية.

وبالإضافة إلى هذا الجزء يوجد جزء آخر تحت عنوان (دروس رمضانية)، وسيطبع قريباً، وهو عبارة عن محاضرات وخطب ألقاها﵀ في شهر رمضان من سنوات ١٣٨٠، ١٣٨٤، ١٣٨٩، و١٣٩١هـ.

ذكريات من نباهته وفطنته

❁ لقد عرف السيد الشهيد بالذكاء والفطنة وسرعة البداهة والإدراك الواسع للأمور، حبذا لو تسردين لنا بعض الذكريات التي تعلق بذهنك عن ذكائه ونبوغه؟

۞ كان السيد محمد علي خليلي من رفاق السيد الشهيد في المدرسة، وكان يقول: كان السيد الصدر ذكياً للغاية بشكل قلّ نظيره، وكان المعلمون يعدونه التلميذ النموذج، المجتهد، المؤدب، الذي كان يلتزم القوانين ويعرفها جيداً. كان قدوة لجميع التلاميذ، كما أن المعلمين والمدراء يكنّون له كل الاحترام، ويفتخرون به أيما افتخار. كان يملك القدرة على مخاطبة الجميع، الطلبة وعائلاتهم، بحيث يستمعون إليه بكل شغف وحبّ، وينصتون إلى كلامه بكل وعي. ورغم صغر سنه فقد كان يشارك في هيئة المعزين لأهل البيت عليهم السلام التابعة للمدرسة، والتي تقيم مجالس العزاء في مناسبات عاشوراء أو مناسبات شهادة باقي الأئمة الأطهار. ولأنه كان ذا لسان عذب ومنطق حلو كان يجلب مسامع وقلوب الناس بكلماته في رصيف الصحن الشريف للكاظمين عليهما السلام، فكانت تزداد مشاركاتهم وتتنوع في هذه الهيئة. صديق آخر للسيد الشهيد كان يحكي بعض ذكرياته عن السيد رحمه الله قائلاً: إن أي شيء قلته أو مدحت به السيد لن يكون غلواً أو مجاوزاً للحقيقة، فقد كان وسط جميع الطلبة درة ثمينة لا مثيل لها، فقد كان قبلة الطلبة في الأخلاق العالية، فكان يحدِّثهم بكل هدوء، وكانوا دائماً يستمعون إليه بكل شوق وحب. هذا الشوق والحب كان دافعاً جعلني أسعى في كثير من المرات إلى الانخراط في مجموعته، ولم أكن أعرف من أسماء العلماء إلا القليل، أمثال: أديسون، نيوتن، أما هو فقد كان يعرف الماركسية، الإمبريالية، الديالكتيك، والعديد من المصطلحات الفلسفية التي كان يستعملها في أحاديثه وخطاباته، وكنّا نسمعها لأول مرة، ولم نكن ندري هل كان ذلك الجمع من الشباب وحديثي السن يفهمون ويدركون معاني خطاباته، فقد كان جل همّه أن يستوعب الطلبة والمجتمعون حوله مغزى كلامه، وكان يعمل جاهداً على أن يجعل أوقات اللعب واللهو عندنا وقتاً للدرس والتعلم، وكان هو معلمنا ومرشدنا فيها، يعمل بكلّ جد، ولا يبخل علينا بأي جهد، وكان نبوغه وذكاؤه يجعلان منه أستاذاً بكل معنى الكلمة. أما السيد مرتضى العسكري فحين يتحدث عن السيد الشهيد ما يفتأ يذكر أنه كان يدرس دروس سنتين في سنة واحدة، وكان يغيب عن بعض الجلسات، لكنه حين يحضر الامتحانات كان يأتي بأفضل الأجوبة

وأتمها. كانت له علاقة قوية بالكتاب والدفتر والقلم منذ حداثة سنه، وعديدة هي المرات التي كانت أمه تبحث عنه فتجده في أحد أركان المدرسة مشغولاً بالمطالعة أو بالكتابة أو بالتفكر.

تقول أم السيد الشهيد: إنها أدركت أن السيد الشهيد وبعد أن أتم مرحلة الابتدائي كانت له علاقة قوية بلبس العمامة، وقد أراد منه أحد أفراد العائلة أن لا يلبس العمامة، وحدّثه عن وضعية الطلبة وظروفهم المعيشية الصعبة، لكن السيد الصدر أراد أن يثبت أن له القدرة على تحمل تلك الظروف، فاكتفى مدة بالخبز والماء طعاماً له، ولما سئل عن السبب أجاب: إنه يريد أن يريهم قدرته على تحدي كل تلك الظروف، وهذه ليست طريقي لوحدي، بل هي طريق أجدادي في تحمل الصعاب وضيق العيش من أجل العلم والتعلم.

وكان يؤتى له ببعض الكتب العميقة في الفلسفة والمنطق، وقد ترجمت من الإنجليزية إلى العربية، وانطلاقاً من موضوعها كان السيد الشهيد يبين لهم الفقرات والنقاط التي ترجمت بشكل غير صحيح، كما أنه كان يرشدهم إلى كيفية تناول الموضوع وغيره من المسائل، وحين كان المترجمون يعيدون التدقيق في ما ترجموه، ومدى تناسبه ومطالب الكتب الأصل، كانوا يقرون أن آراء السيد كانت صائبة ودقيقة.

لمّا أتم الدكتور كريم متى ترجمة قسم من كتاب (العلوم الإنسانية) لبرتراند راسل أتى به إلى السيد الشهيد، الذي أخذه ثم قرأه بتمعن، واكتشف في الترجمة بعض مواطن الخطأ، ثم قال: إنني أستبعد أن يكون هذا قول راسل، ثم نظر الدكتور كريم متى إلى المتن الأصل فأدرك أن رأي السيد كان في محله.

الصدر وأسباب الشهادة

❁ وفق نظركم ما هو الباعث الأصلي الذي كان له دخل مباشر في شهادة السيد وأخته؟ وما هي نتائجه؟

۞ كان صدام يرسل مرتزقته وأزلامه للضغط على السيد الشهيد لعله يرجع عن طريقه في رفض الظلم، وفي مواقفه من الإمام الخميني رحمه الله وتأييده للثورة

الإسلامية في إيران، وكان ضغطهم شديداً ومتتالياً، لكن الشهيد الصدر﵀ بقي ثابتاً على مواقفه، ولم يتزحزح عنها قيد أنملة، بل كانت مواقفه المساندة للإمام وللثورة في إيران تزداد يوماً بعد يوم، ولم يخضع أبداً لرغبات وإملاءات النظام الصدامي، وهذا هو الذي دفع بنظام صدام إلى التصميم على قتله وأخته الشهيدة آمنة بنت الهدى. فحزب البعث الحاكم كان يخاف من أن تنهض السيدة بنت الهدى بعد اغتيال أخيها الصدر بالدعوة إلى الخروج على الحاكم واستنفار الناس ضده، وخصوصاً مع وجود نوع من الظروف المؤاتية لذلك، لهذا أراد أن يسكت صوت السيد وصوت أخته المحتمل قبل أي شيء، لذا عمل على اغتيالهما معاً.

كان حزب البعث الحاكم يحاول التأثير على السيد الشهيد حتى يرفع يده عن الدفاع عن الثورة الإسلامية والدفاع المستميت عن السيد الإمام﵀، ولكن السيد الصدر﵀ كان يقول: إن الدفاع عن الثورة الإسلامية واجب ديني، وإن المرجعية الشيعية ليس لها هدف آخر سوى إقامة دولة العدل، دولة الإسلام، وما دام السيد الخميني﵀ قد قام بهذا الهدف، الذي هو حلمي وأمنيتي، فلن يرهبني الموت إن قرر نظام صدام قتلي دون مواقفي، فالحياة والموت أصبحا متساويين، وليس لي موقفٌ آخر غير هذا، لذا فأنا مستعد للشهادة أكثر من أي وقت مضى.

طلاب السيد الشهيد ــ

❁ كيف كان الإقبال على دروس السيد الشهيد والدورات التي كان يجريها في تدريس العلوم الدينية؟ وما هي الفئات التي كانت تتتلمذ على يديه، وتقبل على دروسه؟

۞ لقد بدأ السيد الشهيد بتدريس الأصول سنة ١٣٧٨هـ، وفي تلك الفترة كان الشباب فقط ومَنْ هم في سن السيد الذين يحضرون دروسه، كالسيد عبد الغني الأردبيلي، السيد نور الدين الإشكوري، السيد محمد باقر الحكيم، السيد كاظم الحائري الشيرازي، الشيخ عباس أخلاقي، ثم التحق بهم طلاب من لبنان، وشيئاً فشيئاً كبرت حلقة الدرس، وأخذت تتّسع، حتى أصبحت بحجم حلقة درس السيد

الخوئي، لقد كان أكثر طلابه لبنانيين وإيرانيين، وكان عدد الطلبة العراقيين أقل منهما.

طريقته في تربية أبنائه

❁ ما هي الأمور التي كان السيد الصدر رحمه الله يركز عليها كثيراً في تربية أبنائه، وبالذات في ما يخص تربية الإناث منهم؟

۞ كان السيد الشهيد رحمه الله دائم التأكيد على أن البنت زهرة، وريحانة، ورزقها على الله، وإذا أحسنت تربيتها، وأعطيت حقها في تعلم أمور الدين والدنيا، فإنها ستكون ذات نفع لأهلها ومجتمعها، وأرضاً خصبة لتربية النشء من أبنائها، كما أن حضورها داخل المجتمع سيكون له مردود إيجابي ومؤثر في رشد مجتمعها. لهذا كان يعطي أهمية كبيرة لتربية البنات، وكان يتعامل معها بكل لطف واحترام، كما أنه كان يهتم بمشاعرها، حتى أنها وهي في سن طفولتها كانت ترى أن أباها أفضل الناس وأحبهم إلى قلبها. لم يكن يقهر بناته أبداً، ولم يكن يجبرهن على فعل شيء لا يطيقونه، بل كان الحوار والتفاهم أساس تعامله معهن، كان يعطي لكل واحدة من بناته درهماً يومياً، وكان يزيد مصروفهن في فصل الموز، حتى يستطعن شراء الموز، حيث كانت الموزة الواحدة تباع بستين (٦٠) قراناً (كل درهم يساوي ٥٠ قراناً)، وكان يقول لهن: سأعطيكنّ ١٠ قران فوق مصروفكنّ اليومي، ولكن أخبرنني إن كانت جميع التلميذات في المدرسة قد اشترين موزاً؟ فإذا أجبنه بالنفي كان يجيبهن: إذاً فالأفضل أن لا تشترينهن أنتن كذلك، حتى تتساوين والأكثرية، وأن لا تكن من الأقلية. وفي يوم من الأيام، وبعد أن انصرف الضيوف من بيتنا، أخذ السيد الشهيد بيده ابنته، ودخلا معاً إلى المطبخ، وقال لها: يظهر أن أمك قد تعبت اليوم في خدمة الضيوف، وأرى أنه من الأفضل أن نساعدها بغسل الأواني، وكان يردد دائماً الرواية المروية عن الإمام الصادق عليه السلام: «ولايتي لعلي بن أبي طالب خير من بنوتي»، وكذلك الحديث الشريف عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «لا فضل لعربي

على أعجمي إلا بالتقوى».

ورغم ما بلغه من المكانة العلمية، وحتى بعد أن أصبح مرجع تقليد، لم يحدث أن أذن لأحد في مدحه وتعظيمه، بل كان يوصي أولاده دائماً بأن يبتعدوا عن إضافة الألقاب التي ترفع من القدر المادي والدنيوي، وكان يأمرهم قائلاً: اكتبوا فقط السيد محمد باقر الصدر، بدون أي لقب أو عنوان. الدنيا في أخلاق السيد، كما في فكره وعقيدته، محل عبور، لذا كان يبيّن لبناته، كما لأولاده، أن الإنسان كمسافر وعابر طريق، وكان يطلب منهن جميعاً أن لا تملأ الدنيا قلوبهم، وأن يكون حملهم في هذا السفر قليلاً وخفيفاً، حتى لا يثقل كاهلهم، وأن يكونوا على استعداد كامل ودائم للرحيل إلى الآخرة، إلى دار القرار، حيث ينجو المحقّون. الدنيا في توصياته لأبنائه متعلقة بهذا البدن، ولأن البدن فانٍ فتلقائياً أمور الدنيا فانية، ولا شأن لها بمقام الروح، ولا ترحل مع الروح إلى حيث المستقر والمستودع، بل ما يبقى مع الروح، وما ينتقل معها إلى عالم الآخرة، هو ما يتعلق بها وما هو من سنخيتها، لذا يجب السعي للإكثار من الذخيرة المعنوية والروحية، والابتعاد قدر الإمكان عن أمور الدنيا الدنيّة.

لما كانت إحدى بناته تصل إلى سن التكليف كان يتوضأ أمامها، ويصلي، وكان يرشدها إلى الأخطاء في العبادات وفق منهج الإمام الحسين عليه السلام، وكان يشجعها على قراءة القرآن والأدعية والزيارات. كما أنه كان يأمرهم بأداء الصلاة المكتوبة في أول وقتها، وخصوصاً صلاة الصبح، ويكرر عليهم قوله: من كان يسهر الليل ويعرف يقيناً أنه إذا نام لن يستطيع القيام لصلاة الصبح لا يجوز له النوم إلا بعد أداء صلاة الصبح. وكان من مقررات البيت: إذا صامت أي بنت عامها الأوّل أوكل إليها اختيار طعام إفطارها (في حدود المعقول)، وحين يحل عيد الفطر كان يعطيها هدية بقيمة مناسبة.

كان السيد الصدر، إلى جانب مهامه العلمية والعملية، نعم الأب العطوف الحنون على أولاده، وكان أبناؤه، ذكوراً وإناثاً، يبادلونه نفس الحب والاحترام، وما كانوا يطيقون الابتعاد عنه.

علاقته الشخصية بعموم الناس

❁ نود أن نعرف كيف كانت معاملة السيد الصدر رحمه الله مع عامة الناس؟ وماذا كان نوع علاقته بهم؟

۞ السيد الشهيد شخص متواضع، لطيف، ورقيق الطبع، يألف ويؤلف، جدي من دون حدة، ولطافته مع طيبته ووقاره كانت تجلب قلوب الناس إليه، كان الناس يأنسون به، حتى مَنْ تعرفوا عليه حديثاً، حتى أن من رآه معهم يظن أنه يعرفهم ويعرفونه منذ زمن بعيد. وهذا السلوك الأخلاقي في التعامل له أهمية كبيرة في قلوب الطرف الآخر، وفي توجيهه وإرشاده، حيث ينفي أي تنافر أو إحساس بعدم الراحة والقدرة على التواصل لديه، لذا كان طلبته ومن يحضر دروسه ومجالسه يبقى على تأثر مستمر بكلام السيد الصدر وبتوجيهاته. لم يكن ينفر الناس منه، بل كان يحب الجميع، ويسأل عن أحوال الغائب منهم كما الحاضر. إذا مرض منهم أحد عاده، وإذا احتاج عاله وأعانه. لم يكن يختار الشهرة لسد حاجيات المحتاج منهم، بل كان يتخذ الليل جملاً، يعطي المحتاج منهم ما استطاع إليه سبيلاً في ستر الظلام، حتى لا يطلع عليه أحد، ولا يفتأ يقول للجميع: إذا سمع أحد منكم شخصاً يقول فيّ سوءاً أو ينتقدني فلا تخبروني به، واحملوا كلامه على الحسن. لم يكن يرجح كفة أحد على آخر، بل كان ينظر إلى الناس بعين التساوي، ويحترم الجميع. في أحد أيام عاشوراء ذهب إلى أحد مجالس عزاء أبي عبد الله الحسين عليه السلام، ولما وصل إلى المكان وجده مكتظّاً بالناس، فلم يدخل إلى داخل المجلس، واكتفى بالجلوس في فنائه، فلما رآه صاحب البيت أصر عليه بالدخول إلى داخل البيت، فأجابه: إنه لا فرق، فالمهم أن يحضر المجلس، وأن يستمع إلى الخطيب، والتبرك يحصل بهذه الكيفية، كما يحصل بالدخول والجلوس أمام الخطيب.

ذات مرة وبمناسبة حلول ذكرى شهادة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، وبينما الخطيب يقرأ المجلس أراد أن يقرأ شعراً في مدح السيد الصدر، لكن السيد رفض، وأصر عليه بأن يستمر في ذكر أهل البيت الكرام عليهم السلام. كان يستمع إلى سلام أو سؤال الناس عن قرب، ولم يكن يفرق بين الكبير أو الصغير منهم، الطالب منهم أو

العامل، بل كان ينحني احتراماً وحباً للجميع من دون استثناء، وهذه هي أخلاق الأنبياء والقائد الحقيقي. الشباب المتعلم والمثقف كان يحظى بعناية خاصة لدى السيد، وكان يقرأ عليهم أحاديث نبوية وروايات أهل البيت عليهم السلام؛ لتوجيههم وإرشادهم إلى الطريق الصحيح. نقل بعض الطلبة أنه في فترة الشباب كان يذهب برفقة جمع من الطلبة إلى حرم أمير المؤمنين عليه السلام، وفي يوم رأى أحد الطلبة السيد الشهيد داخلاً إلى الحرم الشريف؛ لإقامة صلاة الصبح، فتوجه إليه يريد سؤاله عن أمر أهمّه، فقابله السيد بابتسامته المعهودة، وحسن أخلاقه، وأخبره أن الوقت غير مناسب؛ لأن وقت الصلاة قد حان، ولا يجوز تأخيره. وفي اليوم التالي أتى السيد قبل موعد الصلاة بساعة، وتوجه إلى نفس الطالب، وقال له: لقد أتيتُ باكراً حتى أستمع إلى استفساراتك، وسرعان ما أحاط به جميع الطلبة، وجلس السيد إلى جانبهم يستمع إلى أسئلتهم واستفساراتهم برحابة صدر. يحكي أحد الطلبة أنه لما كان في سن الحادية عشرة من عمره كتب رسالة صغيرة في تعليم كيفية الصلاة في حدود ١٠ صفحات، وفكر في مَنْ يصحِّحها فلم يجد أفضل من السيد الصدر، لذا ذهب إلى مسجد الطوسي، حيث كان السيد يعطي درس البحث الخارج، فاستقبله السيد بكل احترام، وأخذ منه الكتيب، وبعد أيام أتى به مصحَّحاً إلى جانب حاشية، وقال له: إذا لم يستطع والدك القيام بطبعه فأْتِ به إليّ لأطبعه على نفقتي الخاصة.

لقد كان تعامله مع طلابه وتلامذته تعامل الأب الرحيم، وهذه شهادة الجميع فيه بدون استثناء، وكان يوقِّع على كتاباتهم باسم والدكم، ويقول: يسعدني أن يرضى الأبناء عن آبائهم، وأن يقدروا ما يقومون به اتجاههم.

وماذا عن الشهيدة المظلومة بنت الهدى؟!

❁ لو تتحدثين لنا عن الشهيدة الكريمة بنت الهدى.

۞ بنت الهدى اسمها الحقيقي آمنة، تعلَّمت القراءة والكتابة في البيت، دون أن تذهب إلى المدرسة، وأخذت دروس المنطق، والفقه، والأصول، وبقية المعارف والعلوم الإسلامية، على يدي أخيها السيد الشهيد في البيت.

لقد تربَّت وترعرعت في حضن أمٍّ عطوفة وحنونة، ذات أصل عريق، صابرة محتسبة، ووسط إخوة فضلاء علماء جليلي القدر. تلقت دروس مرحلة الابتدائي في المنزل، وكانت تطالع في أغلب أوقاتها الكتب الدينية، والأدبية، والتاريخية. وفي سن الثانية عشرة قامت بإخراج جريدة يومية في اثنتي عشرة صفحة تحت عنوان (المجتمع)، وقد كتبت في عادات وآداب وأنواع الألبسة والثقافات المختلفة، إلى جانب العبادات المختلفة، عند أقوام ومجتمعات متنوعة.

وبعد مدة غير طويلة بدأت بتدريس بعض الكتب العلمية والحوزوية، وفي آخر عمرها قامت بتدريس كتاب (شرائع الإسلام) للعلامة الحلي في بيتها، كما عهد إليها مسؤولية مدارس الزهراء عليها السلام الدينية في الكاظمية والنجف الأشرف.

عرفت السيدة بنت الهدى بمنطقها الحلو، وروحيتها الجذابة، وقلبها الكبير الذي يسع الجميع، وأخلاقها الإسلامية. كانت إنسانة متواضعة، محبة للجميع. لقد عاشرتها لسنين تحت سقف واحد، ولم أرَ منها شيئاً يُعاب عليها أو تؤاخذ عليه. كان همّ الدين وإصلاح المجتمع حاضراً دائماً في فكرها وقلبها، وكانت تعمل بكل ما تستطيع، وفي جميع المناسبات، على نشر تعاليم أهل البيت الكرام عليهم السلام، وخصوصاً بين فئة الفتيان والفتيات، وكانت تقول دائماً: إن الإسلام غريب بيننا، والذين يهتمون لأمره ويحرق قلبهم غربته معدودون على رؤوس الأصابع، لذا فأنا أهب نفسي لخدمته، وسوف أستمر على ذلك إلى أن أحظى بالشهادة. وبعد أن أمر صدام بقتلها سأله بعضهم: لأي ذنب قتلت أخت السيد الصدر؟ فأجاب: إنني لن أسمح بتكرار حادثة كربلاء، فزينب بعد قتل أخيها الحسين عملت على فضح يزيد وآل أمية، وجعلت اللعنة تقتفي أثرهم إلى يوم القيامة. كان للشهيدة بنت الهدى الصدر عطاءات دينية وافرة، وكان تعمل على إرشاد وهداية المرأة العراقية، وخاصة الفتيات منهن، ولم ترَ في الإسلام إلا ذلك الدين الذي يقيم العدل، وينتصر للمستضعفين، إسلام العزة والكرامة. كانت تنتهج المنهج المعاصر في كتاباتها، وتحاول أن تتطابق كتاباتها مع هموم العصر، وأن تكون وفق تطلعات الشباب. لقد كانت أول امرأة شيعية تخوض هذا النوع من الجهاد ضد الظلم المادي والمعنوي. رواياتها القصصية إلهام حيٌّ وواقعي، يعكس المجتمع ولكنْ بمهارة وذوق رفيع. كان قلمها أدبياً مملوءاً

بالحيوية، وقصصها لوحة فنان رسمتها بألوان هموم المجتمع وهموم الشباب. لم تكتب قصصها خالية من النكهة الدينية، بل كانت ترسم ملامح مبادئ العقيدة وفق نظرية دينية معاصرة، وتأخذ الواقع ومتطلباته وفق الاعتبار. كما أن الشباب والفئة العمرية الصغيرة تجد ضالتها وبغيتها في هذه الكتابات؛ لأنها تناقش مشاكلهم وبعض الجوانب الخفية في حياتهم. وعملت طوال حياتها المباركة على نزع النقاب عن روحية النظام الظالم، الذي كان يعمل حثيثاً على تدمير الرغبة الدينية في قلوب الشباب، وطمس أيّ حب للدين أو رغبة في العيش وفق مبادئه؛ لأنه كان يظهره بمظهر التخلف والهمجية، وأشكال أخرى تنفّر القلوب، وتبعد عنه كل ذي ذوق سليم. لذا كان نظام البعث الصدامي يعمل على منع تلك الكتابات، ولكن هذا المنع لم يكن يستطيع الصمود أمام الرغبة الملحة للجماهير في قراءتها، والارتباط القلبي والفكري بها، فقد كانوا يهيئونها بأي شكل من الأشكال، وينشرونها بينهم، وإذا شعروا أو علموا أن أعوان صدام ومرتزقته سيهجمون على بيت أحدهم ويخضعونه للتفتيش كانوا يدفنون إلى جانب كتب السيد الصدر تلك الكتب تحت التراب في فناء البيت أو في حدائقه الصغيرة؛ حتى لا تقع في أيدي هؤلاء الظلمة. وقد طبعت مجموعة قصصها في مجلد تحت عنوان (القصص الكاملة). وإحدى مميزات تلك القصص أنها كانت تحوي آيات وأحاديث تنسجم وموضوعها، وبشكل يشدّ القارئ ويفيده في فهمها الواقعي. ومن كتبها الأخرى كتاب (ذكريات الحج)، وهو كتاب يتحدث عن سفر السيدة بنت الهدى إلى الحج، من لحظة دخولها مطار بغداد إلى لحظة رجوعها من الحج إلى بغداد مرة أخرى. وفي مجال الأدب والشعر لها مؤلفات متنوعة، ففي كتابها (ذكريات الحج) كتبت قصيدة طويلة، كما لها قصيدة أخرى في الصلاة ضمن كتابها (تعليم الصلاة طبق فتاوى السيد الشهيد الصدر رحمه الله). لقد كانت توجيهاتها وإرشاداتها سبباً مباشراً في ارتداء العديد من النساء والفتيات الحجاب الشرعي، وتخلت العديد منهن عن حياة الترف والملذات الزائفة، لتتبع مرشداً ومرجعاً دينياً يقود الروح والنفس نحو كمالها، وكان نصيب العديد منهن، سواء قبل شهادتها أو بعدها، أن نلن وسام الشهادة وفزن فوزاً عظيماً. كان بيت السيد الصدر، حيث تعيش

معه أخته بنت الهدى، مفتوحاً في شهر محرم لإقامة مجالس العزاء الحسينية، وكان منزلهما بالقرب من المشهد الشريف لحرم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، كما كان كذلك مفتوحاً في ليالي القدر، حيث كانت تحضر العديد من النساء لإحياء تلك الليالي معها، ولأنها كانت تحت عيون أتباع النظام البعثي الظالم فقد كان النسوة يحضرن بشكل مخفيّ، وفي نهاية الإحياء كانت تقدم طعاماً للسحور. وإلى جانب مشاغلها الكثيرة كانت في خدمة والدتها، التي ترك الزمان وظلم صدام آثاره عليها. كانت ملاكاً يعيش في بيت يكنّ أفراده الحب لبعضهم البعض، وفوق علاقتها بأخيها السيد الصدر، التي كانت تتسم بالمحبة والصداقة، كانت تراه أستاذها ومعلمها ومرجعها، لذا كانت تناقش جميع المواضيع السياسية، والاجتماعية، وغيرها، مع أخيها، وتأخذ توجيهاته وتحليلاته وفق الاعتبار. تقدَّم العديد لخطبتها، ولكنها كانت ترى أن الدين يحتاج منها كل وقتها وكل قواها، وبسبب صغر سنها كانت تعلن عدم استعدادها الحاضر لبحث موضوع الزواج، وكانت تقول: القيام بمهام كلا الأمرين صعب؛ مهام الإسلام؛ ومهام الزواج. لذلك اختارت أن تبقى إلى جانب أخيها في خدمة الدين، ومقتدية بخطى أخيها، إلى أن لقيت الله شهيدة. ومن أنشطتها الأخرى أنها كانت تقيم حفل التكليف للفتيات اللواتي كُلِّفن حديثاً، وكانت تبين وتوضح لهنّ مسؤوليتهنّ الجديدة، وكانت تشرح لهنّ تكاليفهن الشرعية والاجتماعية، وكانت تشجعهن على التحلي بروح المقاومة، مقاومة الشر بكل ألوانه، وأن يجعلن فطرتهن تتحرك بعيداً عن كل ما من شأنه أن يحرفها عن حقيقتها أو يغمسها في الظلمات.

السنن التاريخية عند السيد الصدر

خطوة منهجية نحو استكشاف فلسفة التاريخ في القرآن

ميرزا محمد مهرابي (*)

ترجمة: نظيرة غلاب

مقدّمة ـــ

إن القرآن هو النسخة الثانية لعالم الطبيعة، وقد تطرق لأبعادها وجوانبها. فقد تحدث عن البعد التاريخي فيها كما تحدث عن الحلال والحرام. لم يعتبر الحياة البشرية قضايا متناثرة على طول مجريات الزمان، غير خاضعة لقانون عام، كما لم يعتبرها نتاج الصدفة المحضة، أو أنها أوجدت نفسها بنفسها، ولم يحكم بأنها صدرت من دون مقدمات. ولم يجعل القضاء والقدر محطة تسلب الإنسان حق الرد والقبول، وترمي به في أحضان الجبر المحض، كمن ألقي به في أحضان وحش جائع، حيث لا خيار له إلا الاستسلام والتسليم. فالسنن والقوانين التي تحكم التاريخ ليست من سنخ القهر والجبر مطلقاً. يرفض القرآن كل هذا الفهم الذي لا يعدو كونه إما ناتجاً عن الإفراط أو أنه نتاج تفكير منحرف. وقد كان لعرض الأحداث والوقائع التاريخية حضور قوي في العديد من الآيات والسور، أراد بواسطتها إثارة الفكر البشري، والدفع به نحو التساؤل الدائم، والبحث الدائب عن الحق. كما رام من خلالها أن يزيح ستار الغفلة والنسيان في النفس الإنسانية. كما أن الغرض من طرحه للأحداث التاريخية تقديم خلاصات عن التجارب الإنسانية، وإعطاء مساحة للبشرية على طول الخط العمودي للتاريخ أن تستخلص العبر، عبراً تسير على هديها. فعرضه

(*) باحث في الحوزة والجامعة.

للأحداث وإن جاء على شكل القصص، إلا أنه لم يكن لغرض الترفيه والحكاية، وإنما لاستخلاص نظريات في كل أبعاد الحياة الإنسانية. فلا وجود للعبثية في السنن والقوانين التاريخية؛ فإما أن تحكمها؛ وإما أن تحكمك. «أبقِ عينيك مفتوحتين؛ لكي لا تضيع في الطريق المنحرف».

إن كيفية تعامل أي اتجاه فكري مع التاريخ، ونوع المفاهيم والنظريات التي يستخلصها من قراءته للأحداث عبر سلسلة الزمان، وتحليله لعناصر المجتمع، عاملان رئيسان يحدِّدان أيديولوجيته ومعتقداته. ومن هنا فالضرورة ملحّة في دراسة نظرة الإسلام إلى التاريخ وعناصر المجتمع من خلال النص القرآني[1].

وقد كان التاريخ عبر المسيرة البشرية التاريخية وسيلة تكشف عن عظمة أو حقارة الأمم والأفراد، لذلك اتخذ وسيلة حاولت أيادي الشر والطواغيت التلاعب بها، واستبدال الحقائق بما وضعوه كذباً وتزييفاً. والتاريخ مصدر معرفي، من خلال التحليل وتفكيك أجزائه تسطع الحقيقة، وتتضح خفاياها. وليس هذا في مقدور عوام الناس، بل لابد أن يتسلح له بالفهم الواسع، وبصيرة ثاقبة تملك مفتاح كل ما تم عقده أو حبكه. وليس الغرض من كل هذا سوى كشف الحقائق، وجعل الحق في متناول الجميع. ولكون التاريخ يحوي ملفات حياة الأسلاف، ويصف سلوكيات السابقين، فهو سفينة للاحقين، ومرآة تعكس حقيقة العالم. وقد أصبحت الضرورة تفرض جعله ضمن العلوم التي تدرس وتعلم. وهذا التدريس يجب أن يراعى فيه جانب الواقعية، مقرونة بالتحليل العلمي الصحيح، ولا يكتفى فيه بالتحليل الفلسفي، بل لابدّ من إمعان التفكير، واستعمال العقل بشكل واسع، وإبعاد النفس عن التدخل في استخلاص النتائج. فالتاريخ بنك من المعلومات جعلت في اختيار البشرية وسيلة للاستفادة منها والاطلاع عليها وامتلاك قوة التفكير وسرعة الإدراك مع التزام الموضوعية والصراحة.

يعتبر الشهيد محمد باقر الصدر(١٣٥٠هـ - ١٤٠٠هـ)، العالم والفيلسوف والفقيه المتبحر، واحداً من عظماء الإسلام الذين تركوا ثروة فكرية متنوعة. كانت مباحثه في السنن التاريخية وقوانينه واحدة من النظريات الإسلامية الفريدة من نوعها، والتي سجلت إحاطته وإدراكه لحقيقة ما طرحه القرآن وما أتى به الإسلام حول التاريخ

والقوانين الثابتة والمتغيرة التي تحكم المجتمعات البشرية.

فقد كان الشهيد الصدر يمتاز بسرعة البداهة وقوة الذكاء، كما أنه امتلك البصر والبصيرة، فعمل مجداً في فرز المعارف التاريخية والفلسفية، واستطاع إزاحة الستار عن تلك الحقائق، ودفع ما من شأنه اعتراض طريقها نحو الفهم البشري.

اعتمد الشهيد الصدر في استنتاج نظرته إلى التاريخ والاجتماع على النص القرآني ونصوص نهج البلاغة، بالإضافة إلى الأحاديث والسنة، وكان منهجه في تحليل مقاطع التاريخ علمياً فلسفياً.

لقد طرح آراءه ونظرياته في القوانين الاجتماعية، والتي تشكل كبرى علم الاجتماع، ضمن باقة من مؤلفاته المتنوعة، من قبيل: «فلسفتنا»، و«اقتصادنا»، و«فدك في التاريخ»، و«ماذا تعرف عن الاقتصاد الإسلامي؟»، و«الإنسان المعاصر والمشكلة الاجتماعية»، و«البنك اللاربوي في الإسلام»، و«المدرسة القرآنية». وقد استطاع من خلال ما تناوله من مواضيع ملء منطقة الفراغ التي تركها التشريع للمتغير، وظلت بمنأى عن اهتمامات المفكّرين الإسلاميين. واستطاع بكل صدق وواقعية إيجاد جواب لأسئلة في التاريخ، وفي الاجتماع، لم يستطع أصحاب الفكر من الجامعيين والأكاديميين الجواب عنها. لكن كانت استجابته لمعشوقه الحق تعالى سريعة، وغادر الدنيا والعالم الإسلامي والإنساني لا زال في حاجة ماسة إلى مثل أبحاثه وتنظيراته. والأمل كبير في هذا الركب ـ ولو على قلته ـ من تلاميذته، سواء الذين تشرفوا بحضور جلساته العلمية أو الذين أيقظهم فكره عبر كتاباته في كل الأقطار.

لقد بدأ الشهيد الصدر مباحثه حول معرفة السنن التاريخية وقوانينه التاريخية والاجتماعية القرآنية من خلال طرحه لعدة تساؤلات أجاب عنها وفق تسلسل منطقي منظم، حيث طرح أجوبة بعض مدارس الغرب، سواء المادية منها أم الإلحادية، ثم عمد إلى نقد نظرياتهم، وبيَّن تهافتها وضعفها.

١ـ هل البحث حول قوانين التاريخ بحث علمي؟ وهل له مفهوم خاص في القرآن؟

٢ـ هل للتاريخ البشري قوانين تتحكم في مسيرته، وفي حركة تفاعله وتطوره؟

٣ـ ماهي القوى المحرِّكة للتاريخ؟

٤ـ ماهو دور الإنسان في عملية التاريخ؟

٥ـ ما هو الدور المنوط بالأنبياء والدين في حركة التاريخ؟

١ـ هل البحث في أمور التاريخ بحث علمي صرف؟ ـــ

هل التاريخ علم؟ وهل البحث في قوانين التاريخ بحث علمي؟ لقد اختلفت الأجوبة عن التساؤلين. والاختلاف راجع مبدئياً إلى اختلاف الحيثيات، وضمناً فإن كلا المدرستين تدرس مواضيع أكثر كلية، مثل: (الإنسان)، وما يتبعه من العلوم التي للإنسان فيها أثر وجودي، مثل: الاقتصاد، والاجتماع، والتاريخ. كلا المدرستين تؤمنان بأن التاريخ يسير وفق قوانين، ولكن من جهة أخرى ترى أن معرفة هذه القوانين والحصول عليها ليس أمراً ميسراً، وليس من السهل اكتشافها، كما أن البحث فيها لا يوصل إلى نتيجة بسهولة.

ومن الإشكالات الواردة على هذا الطرف، والتي تتفاوت في الإقناع عن بعضها البعض:

أ. التاريخ يشتغل على مسألة واحدة، بينما العلم يشتغل بالكليات، والتي هي مجموعة مسائل.

ب ـ التاريخ لا يعطي دروساً.

ج ـ التاريخ غير قادر على توجيه المستقبل أو التنبؤ به.

د ـ التاريخ؛ بلحاظ كونه يدرس الإنسان نفسه، ذهنيٌّ، شأنه شأن باقي العلوم.

هـ ـ التاريخ على خلاف العلوم الأخرى يدرج الأمور الإثنية والأخلاقية في أبحاثه ومباحثه[٢].

وبالنتيجة عمد المفكِّرون والمثقفون ممَّن يشتغل في مجال فلسفة العلم، والذين يخرجون العلوم الإنسانية من خانة العلوم التجريبية ويضعونها ضمن مرتبة أقل من العلم، إلى نفي العلمية عن التاريخ. وعمدة أدلتهم ما يلي:

في مثل هذه المعارف (الإنسان) هو القارئ والمقروء، لذا لا يمكن في كل الحالات أن يحيد بنفسه عن أن يوالي أحد الأطراف في دراسته وموافقه، كما لا يستطيع أن يكون موضوعياً بحيث لا تؤثر مواقفه في النتائج. وهذا التعارض لا يوجد

في العلوم الطبيعية، بعكس العلوم الإنسانية التي لا تخلو من هذه التعارضات ولا يمكن أن تنفك عنها. ولهذا السبب يعتبر (علم التاريخ) أضعف العلوم الإنسانية، فالأحداث والوقائع التي تدرس فيه لا وجود خارجي لها، لذا تجد المحقّق فيه يعتمد ويتكئ على بقايا الكتب والمستندات التاريخية المتبقية عن كل حقبة تاريخية ـ والوصف الغالب عليها أنها حقيرة وضعيفة ـ، ومن خلال تلك المادة يحاول أن يعيد صناعة صورة عن ذاك الواقع، لينهمك بعد ذلك في استخراج جزئيات ذلك الكلي، ويعمل على تبيينها وتوضيحها.

فالواضح أن هذه المجموعة من العلوم الإنسانية عندما ترتبط بموضوعها بشكل مستقيم ومباشر لا تستطيع إيجاد نتائج من سنخ نتائج (العلم). فعلم التاريخ ليس فاقداً لموضوع حي وبالفعل فحسب، بل إنه يعمل على إيجاد آثار ونتائج محدودة وناقصة، إلى جانب كونها مشكوكاً فيها، لا محل لها من الإعراب[٣].

هناك عدد آخر من المفكرين وأصحاب الموقع العلمي والثقافي لا يقفون عند نفي العلمية عن التاريخ، بل يرونه عديم الفائدة، ولا قيمة علمية له. إن الكثير من حوادث التاريخ لا تعتمد سوى على تكرار الوقائع، ممّا يوحي بوجود نوع من الصدفة، وكل ما يحصل عليه الدارس للتاريخ هو الشعور بعدم الاستفادة والملل.

ويعتقد هؤلاء أن موضوع التاريخ عبارة عن حوادث تتكرر في أزمنة وأمكنة مختلفة من العالم، فهو يسعى إلى انتزاع بعض المشتركات من كل ذلك الاختلاف بين الأفراد والمحيط. فأعمال الإنسان ليست سوى تجلٍّ وتعبير عن الطبيعة والخلقة الوحيدة للإنسان، وباستثناء التكرار فالتاريخ ليس سوى شيء واحد[٤].

إلى جانب هؤلاء هناك مجموعة أخرى لا ترى في التاريخ سوى مجموعة معلومات ناقصة وكاذبة لمسائل ووقائع منعدمة وبدون فائدة، وهي بدورها لا أساس لها من الصحة، وغير ممكنة الوقوع أو الحصول[٥].

وقد بحث الشهيد الصدر هذا الموضوع من وجهة نظر القرآن، وقال: يعتقد بعض الأشخاص أن البحث في قوانين التاريخ ضمن السور والآيات بحث علمي، شأنه شأن البحث في قواعد الفيزياء والحياة والنبات والفلك والذرة وغيرها مما يدخل في حدود العلم، بينما القرآن كتاب هداية، وليس كتاب اكتشاف، فلا القرآن

كراسة درس، ولا النبي الأكرم محمدﷺ معلّم متخصص في مجموعة من العلوم أو دروس في الثقافة، إنما أنزل القرآن لكي يخرج الناس من الظلمات إلى النور، من ظلمات الجهل نحو نور الهداية، نحو الإسلام. لذا لا يجب أن ننتظر من القرآن أن يمدنا بمبادئ وحقائق علمية، وما يرتبط ببعض العلوم، كالفيزياء والكيمياء والنباتات وعلم الأحياء. صحيحٌ أن في القرآن إشارات إلى كل هذا، ولكنها إشارات في الحدود التي تؤكد على البعد الإلهي للقرآن، وإظهار بعض مظاهر القدرة الإلهية في ما يخص علم النشأة، ولم تكن لغرض تعليم الناس العلوم المذكورة.

نعم، لقد طرح القرآن بعض الحقائق، وجزء منها لم يتوصل العلم إليها إلا بعد مرور مائة سنة من نزول القرآن. ولكن بشكل كلّي فالقرآن لم يطرح نفسه ليجمِّد في الإنسان طاقات الابتكار والإبداع والبحث، ولا ليكون بديلاً عنها، لكنه أراد أن يحرك في الإنسان طاقة الإبداع وفق المعايير الصحيحة، وأن يكون قائده نحو الطريق الصحيح، وأن يجعل الإنسان يستخرج ما لديه من الطاقات من القوة إلى الفعل. أما ما يتصوَّره البعض من أن القرآن فقط كتاب هداية، وليس من شأنه الاكتشاف العلمي، وإذا تم النظر إلى القرآن بهذا المنظر والمنوال فإنه سيصبح مجرد كتاب للتدريس ضمن تخصُّصات علمية، ولن يكون له الجانب الإرشادي، فالجواب عنه: صحيح أن القرآن لم يُرِدْ أن يجمد قدرات الإبداع والنمو وخصوصيات البحث لدى الإنسان، ولكن هناك فرق جوهري بين الساحة التاريخية وباقي ساحات الكون. وفي هذا الموضوع يقول الشهيد مطهري: «من البديهي أن الإسلام ليس مدرسة في علم الاجتماع، ولا مدرسة في فلسفة التاريخ، كما أن القرآن لم يتناول أيّاً من قضايا الاجتماع أو التاريخ بنفس منطق مدارس الاجتماع أو فلسفة التاريخ. ولا يقتصر الأمر على هذين الاتجاهين أو المدرستين، بل لم نجد القرآن قد تناول إحدى قضايا الأخلاق، والفقه، والفلسفة، ونحوها، بنفس ما تتناولها المدارس المختصة في كل واحدة منها، ولم يطرح اصطلاحاتها أو تقسيماتها، ولكن العديد من مثل هذه العلوم وغيرها يمكن استخراجها من القرآن بطريق الاستنباط»[٦].

٢. هل تتبع حركة التاريخ وتحوله قانوناً خاصاً؟

من المباحث التي شغلت أذهان علماء فلسفة التاريخ مسألة تاريخ البشر، هل

تسير وفق قانون خاص أم لا؟ وبعبارة أدق: هل التاريخ مجرد وقائع وجزئيات لا يمكن استخراج أحكام كلية منه؟

يقول الباحث في فلسفة التاريخ «والش» ضمن مقدمة كتابه (فلسفة التاريخ): هل يمكن من الأساس في ما يخصّ وقائع التاريخ وأحداثه الحديث عن تبعيتها لقانون خاص؟ وإذا كان فعلاً هذا القانون حاضراً وموجوداً فما هي هذه القوانين؟ وكيف يمكننا تحديدها؟[٧].

توجد اختلافات كثيرة حول هذا الموضوع، فالعديد من فلاسفة الميدان يعتقدون أن حركة التاريخ في وقائعه وأحداثه تخضع لقانون خاص، وتسير وفق نظام خاص، وهم المسمون بالمثبتون positivism.

المؤرخ الأمريكي (شيني)، وهو من المثبتين، يقول في هذا الخضم: التاريخ البشري يشبه في حركته حركة الأجرام السماوية، التي تدور وتتحرك وفق قانون ثابت ومستقل، وهي في وضعها مثل: الجاذبية أو قانون التكامل الطبيعي، حيث لا يمكن تصور الحياة بدون وجودهما. ويضيف: إن تاريخ المجتمعات البشرية يتبع ستة قوانين: التوالي، قابلية التغيير، الاستقلال، اتفاق الناس فيما بينهم، والتطور الأخلاقي.

كما يوجد طرف آخر ينفي أن يكون للتاريخ أي قانون، ويتشاءمون من قول غير هذا، وهذا المحقق الألماني الكبير (مير) كتب يقول: لقد أجريت عدة تحقيقات، وقد استغرقت مني سنوات طوال، ولم أرَ أن التاريخ يسير وفق قانون خاص، كما أني لم أعثر على شيء من هذا ضمن مؤلفات مؤرخين آخرين كثر[٨].

(بوبر) من المحققين الذي أفنوا قسطاً من عمرهم في الأبحاث والتحقيقات التاريخية، وقد كتب ينتقد هؤلاء الذين يقولون بوجود قانون خاص تسير وفقه عجلة التاريخ وتتحرك: إن الأمل في أن تكشف الأيام عن وجود قانون خاص لحركة الاجتماع والتاريخ يشبه إلى حدٍّ كبير ما توصل إليه نيوتن في ما يخص حركة الأجسام المادية، ويكشف عن سوء الفهم لحقائق المواضيع؛ لأنه ليس هناك حركة اجتماعية تشبه في أية جهة من جهاتها حركة الأجسام المادية، ومادام الأمر بهذا الشكل فإن الحديث عن قانون للتاريخ حديث لغو[٩].

وإذا لوحظ الطرفان معاً يتبين أنهما في مقابل بعضهما البعض، فلكلٍّ نظرياته.

لكن ما توصلوا إليه ناشئ من تفسير كل واحد منهما لمعنى حركة التاريخ، فكل واحد من الطرفين يناقش من حيثية مغايرة للحيثية التي ينطلق منها الآخر في أبحاثه واستنتاجاته. أما علماء المسلمين فلأن نظرياتهم وآراءهم نشأت من القرآن والأحاديث فهم يرون أنه في حركة التاريخ توجد سلسلة من القضايا الشرطية، والتي تُعَنْون في القرآن بالسنن الإلهية، تحكم التاريخ، وأنه لا يمكن إنكار وجود قوانين يتبعها التاريخ ويسير وفقها، وقد دلت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في كثير من مواضعها على وجود هذه القوانين.

يقول الشهيد مطهري في كتابه (فلسفة التاريخ): إنه من المسلمات أن هناك قوانين كلية إلى حدودٍ ما، نستطيع كشفها، كما نستطيع وضمن حدود يفرضها الكلي أن نستخلص الدروس من التاريخ، ونستخلص نظريات نستطيع وفقها الحديث عن المستقبل[١٠].

و يقول الشهيد الصدر في هذا المضمار: إن التاريخ شأنه شأن الظواهر الأخرى، فكما أنها تخضع لسنن وقوانين فظاهرة التاريخ هي الأخرى لها قواعد وسنن خاصة تسير وفقها، وتتحرك بتبعيتها. وساحة التاريخ كما الساحات الأخرى تتشكل من ظواهر مختلفة ومتنوعة. فعلم النجوم والكواكب، وعلم النبات، والفيزياء، كلها علوم تتشكل من ظواهر مختلفة. وكما أن هذه الظواهر في هذه الساحات تخضع لسنن ونواميس كذلك التاريخ يخضع لسنن ونواميس[١١].

و يضيف: الشيء الملاحظ أن القرآن يبين أن التاريخ يسير وفق نواميس وسنن. وإن التاريخ بفضل هذه النواميس والقوانين الخاصة به دائم الصيرورة والحركة، شأنه شأن باقي ظواهر عالم الوجود التي تقوم على قوانين وسنن خاصة بها. والقرآن، ووفق صور وتعابير مختلفة، وانطلاقاً من العديد من الآيات، قد كشف هذه الحقائق. ففي بعض الآيات تحدث مباشرة عن وجود هذه القوانين، ولو بنحو كلّي وعام، حيث تحدث عن أن التاريخ تحكمه نواميس وسنن خاصة به، كما عمل ضمن آيات أخرى على عرض مصاديق لبعض هذه القوانين والسنن التي تحكم عجلة تاريخ البشرية،

كما وجدناه في آية أخرى يتحدث عن بعض النظريات، التي عرضها من خلال ذكره لمصاديق وقائع وأحداث تاريخية واقعية. ولم يقتصر على نوع واحد من أنواع التعبير، بل كانت له القدرة على عرضها في أشكال مختلفة ومتنوعة، بمعنى أن المصداق لم يكن هو الأصل في الآية أو الآيات، ولكن المفهوم الكلي الذي تكشفه هو المراد[١٢].

نعم، الآيات القرآنية تحدثت عن نواميس وسنن، أو باصطلاح علماء التاريخ: قوانين، لكن لم تكن هذه القوانين ليفهم منها خطأ أنها مقيدة لحرية الأفراد، ولكن الأفراد يصلون على قدر جهودهم. وهذا ما تشير إليه الآية الشريفة في بعض معانيها: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾ (النجم: ٣٩). وبعد أن تبين أن للتاريخ قوانين، وقد علم أن كل شيء له قوانين فهو علم، نعرف أن التاريخ غير خاضع للصدفة، وهو خلاف مَنْ يعتقدون أن (فلسفة التاريخ) يجب أن تنطلق من فكرة أن التاريخ خاضع لقانون، ولا يضر أن يكون هذا القانون مجرد الصدفة[١٣].

وعلى أية حال فإن (فلسفة التاريخ) تقر في كل الأحوال أن التاريخ خاضع لقوانين، وأن التاريخ وجود حقيقي، وليس اعتبارياً، وأن هويته مستقلة عن نقطة بدايته، وأنه يقطع مراحل، وفي النهاية سيصل إلى مقصده. نعم، إن فلسفة التاريخ سر يكشف عن الصور التي يتخذها هذا السير وهذا النمو في حركة التاريخ، والنهاية التي تتمخَّض عن التاريخ في تفاعلاته وتحركاته، وكيفية الانتقال من هذه المرحلة إلى أخرى تعقبها، ولو كانت تفسيراته وإشاراته بشكل إجمالي، وتحمل شيئاً من الإبهام. كما يعطي صورة بنفس الشكل عن كيفية الانتقال من مرحلة إلى أخرى، وهل أن قطع التاريخ لمراحل أمر لا يمكن اجتنابه أم هو قابل للاجتناب؟ ومن الذي يحرك التاريخ والتاريخ يتحرك وفقه؟ فلسفة التاريخ تقرّ بأن التاريخ يتبع لقانون، وأن الاطلاع ومعرفة هذا القانون ميسرة، وأن التاريخ في كليته يقبل التفسير بأسلوب وطرق علمية[١٤].

٣. ما هي القوة المحركة للتاريخ؟

ما هي العوامل التي يمكن عدُّها محرِّكاً يتحرك التاريخ بحركته؟ وما هي

القوانين التي تحكم عجلة التاريخ؟

توجد عدة نظريات تحاول كلٌّ منها الإجابة عن هذه الأسئلة، وتحاول كل واحدة منها أن تبين وفق خصوصياتها المحرِّك لعجلة التاريخ، والقوانين الحاكمة له، كما تحاول البرهنة على جوابها. ضمن هذه الطروحات توجد أجوبة ونظريات عديدة. لكن يبقى لرؤى الشهيد الصدر مكانة خاصة. لكن للوصول إلى قيمة وروح نظريته لابدّ من قراءة لبعض النظريات في المقام.

أ. يقول ثلة من المحقِّقين: إن فرداً واحداً لم يصنع التاريخ، بل التاريخ صنعته أجناس وعروق مختلفة. من هنا كانت نتيجتهم أن المجموعة البشرية هي التي صنعت التاريخ، وهي المحرِّك لعجلته.

ب ـ ترى مجموعة أخرى أن المحيط الجغرافي وعوامل الطبيعة هي التي صنعت التاريخ، لذا فالمحرك الذي يجعل التاريخ في حركة هي عوامل الطبيعة والجغرافية. ومن الذين ذهبوا هذا المذهب (منتسكيو) في (روح القوانين).

ج ـ ترى مجموعة ثالثة أن الفرسان، بمعنى أصحاب القوة والقدرة القاهرة، هم مَنْ صنعوا التاريخ. والظاهر أن أصحاب هذا القول يناصرون القوة والتسلط، لذلك ذهبوا هذا المذهب، فحركة التاريخ يسيرها الأبطال.

د ـ ذهبت ثلة رابعة إلى القول: لأن كل شيء يخضع للقضاء والقدر فالمحرك الأساسي لعجلة التاريخ هو الإرادة الإلهية. وكما يلاحظ فإن هذا الاتجاه صادر من بعض أوساط المسلمين.

هـ ـ من أبرز النظريات في الميدان نظرية (كارل ماركس)، مؤسِّس الماركسية، وقد ذهب إلى أن الاقتصاد هو الموجد للتاريخ، وأن التاريخ هو وسيلة النمو، وهو العامل الوحيد المحرِّك للتاريخ. وهذه النظرية هي المعروفة بالنظرية المادية، والتي تبني أفكارها وآراءها على أن الاقتصاد هو المؤسس للمجتمع البشري، ولثقافته، وأدبه، وهو الموجد لعادات الأمم، وأن الأيديولوجيات والعقائد والأديان كلها تبتني على أسس الاقتصاد. وإذا تم حل مشكلات البشرية الاقتصادية فإن كل المشكلات الأخرى ستجد الحلول لها؛ فالاقتصاد هو الجذر وباقي الأمور الأخرى، من دين وثقافة وآداب وغيرها، هي أغصان وأوراق لهذا الجذر.

لقد تم نقد هذه النظرية، وبالخصوص النظرية الماركسية، للتاريخ من جانب العديد من علماء وفلاسفة التاريخ. وقد أشرنا إلى بعض هذه الانتقادات في ما سبق.

لا نستطيع القول: إن كل شيء في التاريخ قابل للفهم والمعرفة، رغم أننا في خصوص العديد من الوقائع والأحداث نستطيع الحديث عن وجود علاقة وارتباط يحكمه قانون العلية (علاقة المعلول بالعلة). وقد تم بالفعل التوصل عبر هذا القانون إلى العديد من أنواع الارتباطات والعلاقات، وكذا الاتجاهات، لكن معرفة نوع العلاقات والارتباطات في ما يخص وقائع جزئية لم يصبح بعد من الميسر حتى نستطيع القول: إنه يمكننا معرفة حقائق كل التاريخ. ولعل خطأ بعض الباحثين أو المتحدثين في التاريخ يكمن في إخضاعهم كل جوانب التاريخ وأبعاده لتفسير كلي، وحكموا بأن منشأ كل الوقائع والأحداث علة واحدة مطلقة. وهذا ما نجده مثلاً بالنسبة إلى بعض الآراء السابقة (كعامل الاقتصاد)، حيث جعلوا لعنصر واحد من عناصر التاريخ الإطلاق، أو لحدث من الأحداث، لا لعلة فاعلة سوى كونه قديماً وتواجد عبر عدة مراحل تاريخية، فأركبوه على كل مجريات التاريخ البشري، وجعلوا له الإطلاق[١٥].

فسجل التاريخ مليء بالمصاديق والأمثلة التي تتناقض ونظرية الماركسية؛ وذلك لأن التاريخ أظهر في أكثر من محطة أن الارتباط بالدين، وبالوطن، أكثر قوة من الاقتصاد في صنع فاعلية التاريخ، وفي دورانه ونموه.

وللمحقق ألكساندر غيري ملاحظات جدّ مهمة في هذا الميدان، حيث كتب: لن يكون عدد منكري هذه الحقيقة أكثر من عدد أصابع اليد. وعندما نريد أن نحيط بالعوامل المؤثّرة في التاريخ فعلينا أن نخضع جميع الأمور للقراءة، حتى أدقها، بل يجب أن نأخذ في الحسبان حتى ما يذخره الناس مما يحتاجونه في المطبخ من أكل وشرب. لكن في التاريخ أشياء أخرى متعددة غير الاقتصاد. فالإنسان ليس من المحدودية بحيث يقتصر على التفكير في بطنه، وإنما هناك أمورٌ أخرى يمكن اكتشافها في حالات الاضطرار، وفي حالات الاطمئنان، وفي حالات أخرى مبهمة، ولا تدخل في الاقتصاد، ولكن يمكن تفسيرها على أنها أمور اقتصادية، أو تدخل في جانب الاقتصاد. فتأثير الفكر على الأذهان عامل كبير وعظيم في تحريك عجلة

التاريخ، والتي قد فسرت على أنها ظاهرة اقتصادية وتدخل في الاقتصاد، فإذا سلمنا أنه يمكننا معرفة كيف ظهرت بعض الشخصيات التي لها ثقلها في التاريخ، أمثال: دانته، محمدﷺ، كالوين، ماركس، لويد جرج، وجورج روبي، فإن المسألة تبقى على قدر كبير من الصعوبة؛ لأننا سنجبر على طرح عدة استفهامات أخرى لا يسعنا إيجاد جواب لها. مثلاً: لماذا ظهرت هذه الشخصيات في الأصل؟ لماذا وجدت ولم تبقَ في عالم العدم؟ بل هناك ما هو أعظم وأجل: كيف يمكن لشخص ما أن يؤثر في قومه، وفي أبناء لسانه، بحيث تجد له أتباعاً وأنصاراً، وبعبارة أخرى: أشخاص تجد لهم تأثيراً هنا وهناك في مختلف بقاع العالم وفي مختلف أبعاده؟

إذ من الممكن أن لا يوجد كالوين نوكس، وأن لا يتبع ماركس لينين؟ ولعل الصحيح في تفسير التاريخ أن إنساناً متواضعاً ممتهناً لحرفة من الحرف يؤمن بعدم كفاية عقله في إدراك بعض الأمور الخفية؛ لأنه يفهم جيداً أن هناك عوامل غير قابلة للإحصاء تصنع تاريخ الإنسان، وليس الاقتصاد سوى عامل واحد من مجموع تلك العوامل المتعددة، ولعله ليس أهمها على الإطلاق»[١٦].

وقد كان للعلماء المسلمين أجوبة في هذا المجال في ردهم على المادية التاريخية ومحركيتها للتاريخ. تعرض الشهيد مطهري في (فلسفة التاريخ) لتفسير وتبيين عوامل لها المؤثّرية في حركة التاريخ، مثل: النوابغ ودورهم في حركة التاريخ، تأثير العوامل المؤثرة في التاريخ بعضها في بعض، عامل الجغرافية وحركة التاريخ، التوجيه الاقتصادي لحركة التاريخ... وبعد ذلك عمل على استقراء ما ذكره الإسلام والقرآن على الخصوص في هذا الميدان.

وبعد أن بين الشهيد الصدر أنه لا يمكن التفكيك بين النظام الماركسي والجانب العلمي فيه، وأن المادية التاريخية، التي بني عليها، لا تختلف عن النظام الماركسي، عمد إلى دراسة نظريات مختلفة حاولت أن تجعل الأصالة فيها في حركة التاريخ. إن العرق والأنساب عامل محرك للتاريخ. إن عامل الجغرافية فاعل أصيل في حركة التاريخ. وبعد أن فسر نظرية الماركسية، التي اعتمدت القول بوجود عامل وحيد لحركة التاريخ، وحصرته في عامل الاقتصاد، عمل على إظهار مكامن الضعف والخطأ فيها، وبعد ذلك عمل على ردّها وفق ما جاء في القرآن والأحاديث، ثم

بيَّن النظرية الإسلامية في الموضوع.

وقد تعرض الشهيد الصدر لهذا المطلب بشكل مفصَّل ضمن كتابه (اقتصادنا)، حيث اعتبر الإنسان وإرادته القوة الفاعلة في حركة التاريخ. وقد تضمن هذا الكتاب هدفين رئيسين: **الأول**: ردّ ونقد نظريات المادية؛ **والثانية**: تدريس وتفهيم الاقتصاد الإسلامي.

٤. ما هو دور الإنسان في حركة التاريخ؟

هل للإنسان دور فاعل وتفاعلي في حركة التاريخ ومسيره أم أن دوره سلبي في هذا الاتجاه؟ إذا كان له دور فإلى أيّ حد يعتبر فاعلاً بالأصالة؟ وإذا لم يكن له دور فهل هذا يعني أن حكم التاريخ يجعل الإنسان مجبراً، ولا خيار له سوى الاستسلام؟

نعم، يوجد عددٌ من الباحثين الذين قالوا بالجبر التاريخي، وأن لا دور للإنسان في عجلة التاريخ.

وذهب جمع آخر إلى أن الأصالة في حركة التاريخ ترجع إلى الإنسان، فالتاريخ يعني الإنسان، والإنسان هو الذي يصنع التاريخ.

وكما قال كوجو: إن جوهر توصيف الإنسان، بلحاظ كونه ظاهرة وموضوعها الإنسان كظاهرة وجودية، هو أن الإنسان ظاهرة واضحة[١٧].

لكن الإنسان ليس ظاهرة مادية بدون روح أو إرادة، واذا أردنا تشبيه التاريخ بأنه بيت فإن الإنسان لن يكون مجرد اللبنة فيه، وإنما سيكون معمّره وصانعه كذلك، وحينها سيكون قد بنى البيت لنفسه، وسيعيش في هذا البيت، وبالتالي سيتحسَّس ويرى كل أجزاء البيت، من أبواب ونوافذ، وسيستنشق فيه الهواء.

قد توجد مجموعة من الناس لم تشارك في صناعة هذا البيت، وهذه المجموعة هي ما يعرف بالتنويريين، أو الذين سلكوا طريق الأيديولوجيات، ويعقدون عليها آمالهم، فبدل أن يذهبوا في طريق الفلسفة، ويبرهنوا على أفكارهم ومعتقداتهم بما يقبله العقل، أخذوا يفسِّرون الأمور بتسريب بعض الأيديولوجيات الفاقدة للبرهان، لكن هؤلاء الذين يعملون على بناء وتشييد المنزل والبيت هؤلاء يحضرون بسواعدهم

وفكرهم، فهم يشتغلون بعقولهم ومشاعرهم في بناء مجريات الأحداث، لذلك جعلوا الواقع يتغير وينمو ويتفاعل، فكانت أفكارهم وإدراكاتهم تنمو وترشد، لتصل في الأخير إلى إنتاج الفلسفة ومختلف العلوم والمعارف[١٨].

وقد كتب الشهيد مطهري يردّ على مَنْ يقول بالجبر التاريخي: إذاً فالجبر في الطبيعة بهذا اللحاظ يعني أن كل حادثة طبيعية تتعلق بعلل خاصة، وبوجود هذه العلل يصبح وجود هذه الحادثة واجباً، ولا يمكن أن تتخلف عن عللها، وأنه بانعدام هذه العلل أو وجود علل أخرى يصبح وجود تلك الحادثة ممتنعاً. إنه في الوقت الذي قبلنا بمبدأ العلية في عالم الوجود والكون فإننا مجبرون التزامياً بقبول الجبر التاريخي، بمعنى أنه إذا قلنا: إن الحادثة الفلانية قد وقعت في التاريخ فهو مثل قولنا: إن الماء إذا وصلت حرارته إلى مئة درجة سيصبح بخاراً. وبمعنى آخر: إننا إذا وضعنا الماء، ووضعناه في مئة درجة حرارية، وأوجدنا جميع الشرائط، فحتماً إن الماء سيتبخر. وإن الحوادث التاريخية تتم بنفس الطريقة. إن كل حادثة وقعت هي متعلقة بسلسلة من العلل التي أوجبتها، وجعلت وقوعها ضرورياً لا يمكن أن يتخلف، وهذا هو معنى القول بالجبر التاريخي[١٩]. إذاً فالإنسان لا يساهم بأي شكل من الأشكال في الأحداث والوقائع التاريخية، بل هو مجرد أسير في قفص التاريخ.

يقول الشيخ مصباح اليزدي: هناك مَنْ يرى أن القول بوجود قانون اجتماعي أو تاريخي يعني أن الظواهر والأحداث الاجتماعية والتاريخية ليست بدون علة، ولا تخضع للصدفة، ولكنها تأتي نتيجة لمجموعة من العلل، حيث يمكننا تبيينها وتفسيرها بشكل سهل. فالحوادث الاجتماعية والوقائع التاريخية شأنها شأن أية ظاهرة أخرى تتبع أصل العلية، ويشملها نظام العلية الذي يحكم بتابعية المعلولات لعللها في النهاية. ففي كل ظاهرة الإنسان والاختيار، بحيث تكون إرادة الإنسان من بين العلل التامة، وما دمنا نقبل بشمول قانون العلية لكل العالم، و«الشيء ما لم يجب لم يوجد»، فهذا يعني أننا لا نستطيع من خلال المعرفة بجميع القوانين الاجتماعية والتاريخية أن نتنبأ بأحداث المجتمع والتاريخ على صعيد المستقبل، كما أن قانون العلية وسرايته في الاجتماع والتاريخ لا يسمح لنا بالقول: إن أفراد الإنسانية محكومون بالجبر الاجتماعي والتاريخي. وفي الحقيقة الإنسان حقيقة في المجتمع وفي التاريخ، له كامل

الحرية في صنع الأحداث، حتى أنه يستطيع أن يسير خلاف مسار حركة التاريخ والمجتمع، كما يستطيع أن يجعل التاريخ والمجتمع في صورة وشكل آخر، بمعنى أن له حرية الحركة وحرية التغيير.

وهناك رأي وقول ثالث، وهو مذهبنا. وهنا لابدّ من الإدلاء بكلمة ننتقد فيها الرأي الأول، الذي يرى الإنسان مسلوب الإرادة، ولا فاعلية له في المجتمع وفي التاريخ، وأن قانون التاريخ والمجتمع جبري؛ وكذا نقد الرأي الثاني، الذي جعل الإنسان قسمين: قسم جبري؛ والآخر اختياري. والملاحظ أن الرأيين معاً لهما وجه مشترك، وهو أن الإنسان لا أقل في بعض جوانبه يخضع للجبر التاريخي، بمعنى أنه يستسلم في بعض أفعاله للجبر الاجتماعي والتاريخي، ونقدنا سيوجه نحو هذا الوجه المشترك[٢٠].

وقد بيَّن ذلك الشهيد الصدر رحمه الله، الذي يرى أن القول بوجود قوانين وسنن تحكم التاريخ لا يتنافى مع القول باختيار الإنسان وإرادته، وأن الإنسان خلق حرّاً، وله كامل الاختيار في صنع التاريخ، بل حتى أنه يستطيع أن يسير على عكس مسير حركة التاريخ وخلافه. وأثبت أن القرآن جمع على أفضل نحو بين الجبر والاختيار.

فوفق الآيات القرآنية السنن التاريخية ذات طبيعة ومزاج علمي، والعلاقة التي توجد بين الفعل وردة الفعل، والتي هي من خصوصيات أي قانون علمي، تجري كذلك في نواميس وسنن التاريخ.

كما أنّ للتاريخ، وفق نظر القرآن، سجية وجبلة إلهية وربانية؛ وذلك لأن التاريخ في كل حوادثه ووقائعه مظهر للحكمة وحسن التدبير الإلهي، وفي النهاية القرآن يبين أن السنن التاريخية قرين طبيعة الإنسان، بلحاظ أن التاريخ لا يمكن أن يكون مستقلاً عن فاعلية ودينامية الإنسان، كما أن التاريخ لا يمكن أن يعطل إرادة واختيار الإنسان، بل هو يؤكد أكثر على مسؤوليته في صنع التاريخ[٢١].

وقد عمل الشهيد الصدر على ترتيب السنن والقوانين التاريخية وفق نظر القرآن على شكل مجموعات، واستدل لكل مجموعة بعدد من الآيات:

١ـ الآيات التي تبين الفكرة الكلية لسنن التاريخ. ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (يونس: ٤٩).

٢ـ الآيات التي تبين السنن من خلال المصاديق. وهذه المجموعة تظهر من خلال

أنواع:

أ. قانون التجارب السابقة: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ...﴾ (آل عمران: ١٣٧).

ب ـ ليس في السنن والقوانين التاريخية استثناءات.

ج ـ مواقف الأنبياء من المترفين والمسرفين في الأمم والمجتمعات.

د ـ العلاقة بين عدالة التوزيع وبين وفرة الإنتاج.

وبعد مقارنته بين الآيات القرآنية استخلص الشهيد الصدر أن القرآن يؤكد على ثلاث حقائق تلازم السنن والقوانين التاريخية:

١. الاطراد: بمعنى أن السنن والنواميس التاريخية مطّردة، وليست علاقة عشوائية، ولاعلاقة قائمة على محض الصدفة، وإنما هي ذات طابع موضوعي، ولا تتخلف.

٢. إلهية وربانية السنن التاريخية.

٣. جانب الجبر في التاريخ وقوانين التاريخ وعالم الوجود لا تتناقض واختيار وحرية إرادة الإنسان. والاعتقاد القائل: إنه إذا سار الإنسان محكوماً بالجبر التاريخي وبقوانينه فلا معنى للحديث عن اختيار الإنسان وإرادته؛ لأنها ستصبح فاقدة للمعنى، وإذا كان الإنسان كامل الاختيار وحرّاً في إرادته فإن قوانين التاريخ ستصبح كالعجين بين يديه يقلبها كيف يشاء، هو كلام خاطئ، فالقرآن يقول: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١).

فالقرآن يبين أنه رغم أن حركة التاريخ تجري وفق قانون منظم واطرادي، إلا أن الجبر التاريخي ونظم وقانون التاريخ لا تتناقض واختيار وحرية إرادة الإنسان، فللإنسان تأثير واسع في إيجاد الوقائع والأحداث التاريخية.

٥. ما هو دور الدين والأنبياء في حركة التاريخ؟

هل للأنبياء والدين دور في تحريك عجلة التاريخ، وفي إحداث التغيير والحركة فيه، أو أنه لا دور لهم ولا فعلية؟ هذا مرتبطٌ بما كتبه المؤرخون وعلماء التاريخ، وما دونوه في كتبهم. وبطبيعة الحال فإن الاعتقادات والأيديولوجيات تقرر مصير الجواب

عن هذه التساؤلات، سواء بالإيجاب أو بالسلب. فمن كان اتجاهه مادّياً يفسر الأحداث ووقائع التاريخ وفق النظرة المادية لا يمكنه سوى أن ينفي وجود تأثير لسلسلة الأنبياء، وكذا للدين، وفي أحسن الأحوال يقرّ بشكل ضعيف وباهت.

كذلك مَنْ كان يعتقد بأن العنصر المحرك لعجلة التاريخ هو الأعراق والسلالات، أو مَنْ كانت تفوح من آرائه ومواقفه رائحة المادية التاريخية، فإن دور الأنبياء والدين لن يكون إلا بشكل يفقد أي رونق أو إشعاع. أما هؤلاء الذين آراؤهم وطروحاتهم أعلى من المادة، ويرون للجوانب المعنوية وجوداً في حركة التاريخ، فتأثير الدين والأنبياء في حركة التاريخ شيء لازم، وله موضوعية فيه، حيث يكون بالشكل التالي: إن الإنسان ما لم يتغير ويتبدل فلا شيء سوف يتغير ويتحرك، بمعنى أنه إذا لم يتغير شيء في داخل الإنسان في فكره وروحه فإنه سيشبه كثيراً شهد العسل وهو راكد، وبنفس الشكل واللون لا تمايز ولا اختلاف، فالكلّ متساوٍ. لهذا يطرح السؤال المبدئي: كيف سيحصل التغيير والتبدل والتحول؟ وكيف سيقع التمايز؟ وما هو أساس هذا التغيير ومنطلقه؟ فالدين والأنبياء الذي يبلغونه هما السبب في وقوع التمايز والتحول، وكذا التغيير. وفي هذا الخصوص يقول الشهيد مطهري: توجيه التاريخ وفق أسس دينية لا يعني بأي وجه نفي قانون العلية عن العالم، فهذه العلة هي علة فاعلية، وتوجيه التاريخ وفق أسس دينية يعني أنه بالإضافة إلى وجود علة فاعلة هناك علة غائية. إذاً فالقائل: إنه إذا سلمنا بالتوجه الديني لسنن وقوانين التاريخ فهذا يجري إلى حتمية القول بأن التاريخ لم يعد علماً؛ لأنه حينها سيصبح قانون العلية (العلاقة بين العلة ومعلولاتها) منفياً، هذا يبقى قولهم هم، ورأيهم لا رأينا؛ لأن حقيقة وقائع التاريخ تظهر خلاف ما ذهبوا إليه، وتبين أن الحوادث التي وقعت في الماضي تجر إلى غاية وإلى هدف[٢٢]. من هنا فالدين له تأثير في التاريخ، وهوسنة من سننه.

وفي خصوص دور الدين في حركة التاريخ يقول الشهيد الصدر: وأهم مصداق يعرضه القرآن الكريم لهذا الشكل من السنن هو الدين. القرآن الكريم يرى أن الدين نفسه سنة من سنن التاريخ، سنة موضوعية من سنن التاريخ، وليس الدين تشريعاً فقط، وإنما هو سنة من سنن التاريخ، ولهذا يعرض الدين على شكلين: تارة

يعرضه بوصفه تشريعاً (إرادة تشريعية)، كما في قوله تعالى: ﴿**شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ**﴾ (الشورى : ١٣)، و هنا يبين الدين كتشريع، كقرار، كأمر من الله سبحانه وتعالى؛ وتارة يبينه على أنه سنة من سنن التاريخ وقانون داخلٌ في صميم تركيب الإنسان وفطرة الإنسان، قال تعالى ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**﴾ (الروم: ٣٠)، وهنا الدين لم يعُدْ مجرد تشريع، مجرد تشريع من الأعلى، وإنما الدين هنا فطرة للناس، هو فطرة الله التي فطر الناس عليها، ولا تبديل لخلق الله.

فالدين سنة من سنن التاريخ، وليس مجرد أحكام شرعية تكون إما مورداً للطاعة أو للعصيان.

والنتيجة أن للدين بُعْدين، يعني بعد كونه سنة من سنن التاريخ، وبعد كونه تشريعات من الأعلى إلى البشرية، التي تعني وجود متَّبع للتشريعات، فدور الدين والأنبياء في صناعة التاريخ حقيقيّ ومهم. فالدين والأنبياء سهمهما في صناعة التاريخ عظيم، فقد استطاعوا قيادة وتوجيه مَنْ حصلت لديهم القابلية من عظماء التاريخ، الذين اختاروا لحياتهم أن تطوف حول محور التوحيد، وقد اختار المسير خلف الأنبياء، مقتدين بهم، مطيعين لأوامرهم، وبالتالي جعلوا فطرتهم تسير وفق نهجها الصحيح الذي أرادته السنن الإلهية والتشريعات الربانية.

ولأجل إدراك مفهوم (السنن والقوانين الحاكمة في التاريخ) دعا القرآن دائماً إلى قراءة تجارب السابقين، والتي هي مصاديق عن وقائع وأحداث التاريخ، فأراد من الإنسان أن يفتح بصيرته، وأن يكون له قلب يعقل به، وآذان يسمع بها، وأن يستحضر كل جوارحه وجوانحه وكل إمكاناته؛ حتى يدرك الحقيقة التي تختفي وراء عرضه لهذه التجارب والمصاديق، وأن يجعل ما استخلصه من العبر والنظريات نصب عينيه، وأن يكون حكيماً؛ ليخلص نفسه، فتخلص له.

الهوامش

(١) مرتضى مطهري، جامعه وتاريخ: ٣٠٩، قم، مكتب الانتشارات الإسلامية، بدون تاريخ.
(٢) يروفروف، ما هو التاريخ؟: ٩٢ ـ ٩٣، ترجمة: محمد تقي زاده، ط١، نشر جوان، ١٣٦٠.
(٣) متز آدم، التمدن الإسلامي في القرن الرابع الهجري ١: ٤، ترجمة: علي رضا ذكاوتي، ط٢، أمير كبير، ١٣٦٥.
(٤) دلفيكو، أنديشه هاي در باب تاريخ، نقلاً عن التاريخ في الميزان: ١٤ ـ ١٥.
(٥) أرنولد توين بي، تحليلي أز تاريخي جهان أز آغاز تا عصر حاضر: ١٠.
(٦) السيد محمد باقر الصدر، الإنسان ومسؤولية صنع التاريخ في القرآن: ١٨ ـ ١٩، ترجمة: محمد مهدي فولاند، ط١، الميزان، ١٣٥٩.
(٧) دبليو والش، مقدمة في فلسفة التاريخ، ترجمة: ضياء الدين علائي الطباطبائي، ط١، طهران، أمير كبير، ١٣٦٣.
(٨) مِير، المسائل النظرية ومِتودولوجية التاريخ، تحقيقات فلسفة التاريخ، ١٩٠٤، نقلاً عن: يروفريف، ما هو التاريخ؟: ١٠٧.
(٩) كارل بوبر، فقر المستندات والوثائق التاريخية: ١٢٣، ترجمة: أحمد آرام، ط١، طهران، انتشارات الخوارزمي، ١٣٥٨.
(١٠) مرتضى مطهري، فلسفة التاريخ: ١٩٠، قم، انتشارات صدرا، ١٣٧١.
(١١) الصدر، الإنسان ومسؤولية صنع التاريخ: ١٨.
(١٢) الصدر، السنن الاجتماعية وفلسفة التاريخ في المدرسة القرآنية: ٨٣، ط١، طهران، مركز النشر الثقافي رجاء، ١٣٦٩.
(١٣) عبدالحميد الصديقي، تفسيرالتاريخ، ترجمة: جواد الصالحي، طهران، مكتب النشر والثقافة الإسلامية، ١٣٤٢.
(١٤) محمد تقي مصباح اليزدي، جامعة وتاريخ أز ديدگاه قرآن: ١٥٣، ط٢، سازمان تبليغات إسلامي، ١٣٧٣.
(١٥) كارل ياسبرس، بداية ونهاية التاريخ: ٢٤٩، ترجمة: محمد حسن لطفي، ط٢، طهران، خوارزمي ١٣٧٣.
(١٦) ألكسندر غراي، بنقل عن تفسير التاريخ.
(١٧) هغل، الآلهة والعبد: ١٧ ـ ١٨، ترجمة وتقديم: حميد عنايت، ط٤، طهران، خوارزمي، ١٣٦٨.
(١٨) مرتضى مطهري، فلسفة التاريخ: ٢٢١.
(١٩) المجتمع والتاريخ في القرآن: ١٥٩.
(٢٠) السنن الاجتماعية وفلسفة التاريخ في المدرسة القرآنية: ١٢٣.
(٢١) فلسفة التاريخ: ٢٢.
(٢٢) المصدر السابق،

الاقتصاد الإسلامي في فكر الشهيد الصدر

أ. مجيد مرادي(*)

ترجمة: علي عباس الوردي

مقدّمة ـ

حين زار الدكتور محمد شوقي الفنجري الأستاذ في جامعة القاهرة السيد الشهيد في بيته المتواضع في النجف سأله قبل كل شيء: أين تلقّيتم دراستكم؟ وفي أية جامعة من جامعات العالم؟ فأجابه السيد: «في المساجد، الطلبة هنا في النجف يدرسون في المساجد، فقال الدكتور، وقد أصابه الذهول: إن مساجد النجف أفضل من جامعات أوروبا كلّها...».

وحينما عاد الدكتور شوقي الفنجري إلى القاهرة اقترح على الدكتور زكي نجيب محمود ترجمة كتاب (الأسس المنطقية للاستقراء) إلى اللغة الإنكليزية، وأرسل كتابي (فلسفتنا) و(اقتصادنا) إلى المفكر الفرنسي روجيه غارودي[1].

ويمكن عدّ ثلاثة أعمال قيّمة كمصادر أساسية لفكر السيد محمد باقر الصدر في مجال الفلسفة والكلام والاقتصاد، وهي: (اقتصادنا) و(فلسفتنا) ـ اللذين تمّ الفراغ منهما في العشرة السادسة من القرن العشرين ـ، و(الأسس المنطقية للاستقراء). وبمرور الوقت اكتسبت هذه المصادر أهميّة بالغة، لكنّ كتاب (اقتصادنا) تميّز من بين سائر كتب الشهيد، وأخذ حيّزاً مهمّاً؛ وذلك للأسباب التالية:

(*) باحث متخصِّص في الفكر السياسي والكلام الجديد، ومترجم ناشط من العربية إلى الفارسية، له كتابات متعددة.

١ـ ظهر الكتاب في ظروف سياسية وأيديولوجية وأبستمولوجية استثنائية.

ففي ذلك الوقت بلغ الصراع بين الاتجاهين الرأسمالي والاشتراكي أوج احتدامه، واتخذ شكلاً كونياً، وبالتالي أصبح السؤال عن مدى قدرة الإسلام على مواجهة المعاضل والإشكالات المطروحة في مثلث: القوة؛ والاقتصاد؛ والنظام الاجتماعي، ملحّاً للغاية.

وقد مثّل هذا الكتاب محاولة جادّة لدراسة حقيقية ميدانية فاحصة للمدارس الاقتصادية: الماركسية، والرأسمالية، والإسلامية، وأبعادها التفصيلية. كما أنّه شكّل نقطة تحوّل في الحياة الفكرية للسيد محمد باقر الصدر؛ لأنّه استجاب لحاجة ملحّة كان المجتمع المحيط به يعاني منها، هذا بالرغم من أن موضوعه ـ أي الاقتصاد ـ لم يكن في قائمة الأولويات العلمية والفكرية للسيد الشهيد.

٢ـ إنّ مستوى الكتاب، سواء على صعيد الموضوع ذاته أو الأسلوب، كان فريداً وغريباً على سياق التأليف الذي كان سائداً في الحوزة العلمية آنذاك. فالأسلوب يعدّ عنصراً محورياً في البنية المعرفية لأي كتاب، كما أنّه يشكّل سر نجاحه أيضاً. وقد أثار أسلوب البحث المتبع في كتاب (اقتصادنا)، بدءاً بهندسته الفكرية، وطريقة عرض البحث، وتوثيق المصادر، وطريقة الاستدلال، وأصول المناقشة، ذهول العدوّ قبل الصديق.

٣ـ يمثّل الكتاب محاولة تأسيسية بنيوية تستهدف استعراض الإطار النظري لوحدة الاقتصاد الإسلامي. وقد سبقت هذه التجربة جهودٌ عديدة، لكن معظمها إمّا محدودٌ أو ناقصٌ؛ فبعضها لم يعالج سوى جزء يسير من التساؤلات الجزئية المطروحة في عالم الاقتصاد؛ وبعضها الآخر مثّل ردود فعل أيديولوجية قاسية ضد الاتجاه الماركسي والشيوعي. وقد أشار محمد المبارك إلى أبرز المصنّفات التي دونت في الاقتصاد الإسلامي بالقول: «ونستطيع أن نذكر من هذه المؤلفات نماذج أربعة، لعلها أحسن ما كتب في الموضوع، على تفاوت في خصائصها، وظروف تأليفها:

١ـ «العدالة الإجتماعية في الإسلام»، لسيد قطب رحمه الله. وقد كان كتاباً رائداً في العالم العربي والإسلامي، وكان له أثره العميق الواسع الانتشار؛ إذ ترجم إلى كثير

من اللغات الإسلامية. ولا يزال هذا الكتاب يحتفظ بقيمته؛ لما اشتمل عليه من خطوط عميقة ومفاهيم واضحة، مع تحديد للهدف الذي وضع من أجله. وهو كما قال هو نفسه: «سياسة المال» في ما يتعلق بالعدالة الاجتماعية، وليس الكتابة عن «النظام الاقتصادي في الإسلام».

٢ـ «الإسلام والنظم الاقتصادية المعاصرة»، للأستاذ أبي الأعلى المودودي. وربما كان الأستاذ أسبق المؤلفين المسلمين إلى الكتابة في هذه الموضوعات في رسائل وبحوث نشرت بالأوردية، ثم ترجمت إلى العربية، وانتشرت في البلاد العربية بعد سنوات كثيرة من ظهورها في الهند، ثم باكستان. وله بحوث ومؤلفات قيمة أخرى، ومنها: كتاب في الربا؛ وآخر في ملكية الأرض. ويمتاز بالعرض الفكري الموضوعي.

٣ـ «اشتراكية الإسلام»، للدكتور مصطفى السباعي رحمه الله. ويمتاز بغزارة المادة التي جمعها ونسقها، وحرارة الدعوة إلى نظام الإسلام، وإنْ كان أخذ عليه التوسع في تفسير بعض النصوص؛ مضاهاةً للاشتراكية، بدافع الحرص على دفعها، وسدّ الطريق عليها، اجتهاداً منه رحمه الله. ولولا أن عاجلته المنية لكان عازماً على إخراج طبعة منه تشتمل على تعديل لبعض آرائه، وتجلية لمقاصده في ما أُسيء فهمه.

٤ـ «اقتصادنا»، للبحاثة الإسلامي المفكّر السيد محمد باقر الصدر. وهو أول محاولة علمية فريدة من نوعها لاستخراج نظرية الإسلام الاقتصادية من أحكام الشريعة، من خلال استعراضها استعراضاً تفصيلياً بطريقة جمع فيها بين الأصالة الفقهية ومفاهيم علم الاقتصاد ومصطلحاته. وقد جعل المؤلف كتابه في جزءين كبيرين؛ خصَّص أولهما لعرض المذهبين الرأسمالي والماركسي، ومناقشتهما، ونقدهما نقداً علمياً؛ والثاني لاستخراج معالم النظرية الإسلامية في الاقتصاد.

وقد تجلّى إبداع الشهيد الصدر عبر هذا الجزء الأخير من الكتاب. وهو الجزء الذي تمحور حوله بحثنا الحالي. وقد تضمّن بحوثاً عديدة. وجاء في مقدمّة هذا الجزء، الذي حمل عنوان «الهيكل العام للإقتصاد الإسلامي»، تأملات منهجية. واختص الباقي بعلاقات التوزيع المنفصلة عن شكل الإنتاج، والمشكلة الاقتصادية في نظر الإسلام وحلولها.

مبادئ (أركان) الاقتصاد الإسلامي

ذكر الشهيد الصدر ثلاثة أركان رئيسة يتألف منها الهيكل العام للاقتصاد الإسلامي، وهي: مبدأ الملكية المزدوجة؛ ومبدأ الحرية الاقتصادية في نطاق محدود؛ ومبدأ العدالة الاجتماعية.

ويرى الشهيد الصدر أنّ الإسلام يختلف عن الرأسمالية والاشتراكية، في نوعية الملكية التي يقررها اختلافاً جوهرياً.

فالمجتمع الرأسمالي يؤمن بالشكل الخاص الفردي للملكية، أي بالملكية الخاصة، كقاعدة عامة. ولا يعترف بالملكية العامة إلاّ حين تفرض الضرورة الاجتماعية وتبرهن التجربة على وجوب تأميم هذا المرفق أو ذاك.

والمجتمع الاشتراكي على العكس من ذلك تماماً.

وأمّا المجتمع الإسلامي فلا تنطبق عليه الصفة الأساسية لكلٍّ من المجتمعين؛ «لأنّ المذهب الإسلامي لا يتفق مع الرأسمالية في القول بأن الملكية الخاصة هي المبدأ، ولا مع الاشتراكية في اعتبارها للملكية الاشتراكية مبدأً عاماً، بل إنه يقرر الأشكال المختلفة للملكية في وقت واحد، فيضع بذلك مبدأ الملكية المزدوجة (الملكية ذات الأشكال المتنوعة)، بدلاً عن مبدأ الشكل الواحد للملكية، الذي أخذت به الرأسمالية والاشتراكية. فهو يؤمن بالملكية الخاصة، والملكية العامة، وملكية الدولة.

وفي ما يتعلّق بمبدأ الحرية الاقتصادية في نطاق محدود يرى الشهيد الصدر أنّ التحديد الإسلامي للحرية الاجتماعية في الحقل الاقتصادي على قسمين: **أحدهما:** التحديد الذاتي الذي ينبع من أعماق النفس، ويستمدّ قوته ورصيده من المحتوى الروحي والفكري للشخصية الإسلامية، ويتكون طبيعياً في ظل التربية الخاصة التي ينشئ الإسلام عليها الفرد في المجتمع الذي يتحكم الإسلام في كل مرافق حياته (المجتمع الإسلامي). **والثاني:** هو التحديد الموضوعي للحرية، والمراد به التحديد الذي يفرض على الفرد في المجتمع الإسلامي من خارجٍ بقوة الشرع. وقد تم تنفيذ هذا المبدأ في الإسلام بالطريقة التالية:

أولاً: كفلت الشريعة في مصادرها العامة النصّ على المنع من مجموعة من النشاطات الاقتصادية والاجتماعية المعيقة ـ في نظر الإسلام ـ عن تحقيق المثل والقيم التي يتبناها الإسلام، كالربا، والاحتكار، وغير ذلك.

وثانياً: وضعت الشريعة مبدأ إشراف ولي الأمر على النشاط العام، وتدخل الدولة لحماية المصالح العامّة وحراستها، ولاسيما من حريات الأفراد في ما يمارسون من أعمال. أمّا في خصوص مبدأ العدالة الاجتماعية فيرى الشهيد الصدر أنّ الإسلام لم يتبنَّ العدالة الاجتماعية بمفهومها التجريدي العام، ولم ينادِ بها بشكل مفتوح لكلّ تفسير، وإنّما حدَّد الإسلام هذا المفهوم وبلوره في مخطط اجتماعي معين، منوّهاً إلى أن الصورة الإسلامية للعدالة الاجتماعية تحتوي على مبدأين عامين: **أحدهما:** (مبدأ التكافل العام)؛ **والآخر:** (مبدأ التوازن الاجتماعي).

الدين والاقتصاد

يرى الشهيد الصدر أن الدين يساهم في إزالة التعارض بين المصلحة الخاصة (للأفراد) والمصلحة العامة (للمجتمع)؛ «لأنّ الدين هو الطاقة الروحية التي تستطيع أن تعوض الإنسان عن لذائذه الموقوتة التي يتركها في حياته الأرضية أملاً في النعيم الدائم، وتستطيع أن تدفعه إلى التضحية بوجوده عن إيمان بأنّ هذا الوجود المحدود الذي يضحي به ليس إلاّ تمهيداً لوجود خالد وحياة دائمة، وتستطيع أن تخلق في تفكيره نظرة جديدة تجاه مصالحه، ومفهوماً عن الربح والخسارة أرفع من مفاهيمهما التجارية المادية».

كما يرى الشهيد الصدر أن المذهب الإسلامي لا يزعم لنفسه الطابع العلمي، كالمذهب الماركسي. «فالاقتصاد الإسلامي من هذه الناحية يشبه الاقتصاد الرأسمالي المذهبي، في كونه عملية تغيير الواقع، لا عملية تفسير له. فالوظيفة المذهبية تجاه الاقتصاد الإسلامي هي الكشف عن الصورة الكاملة للحياة الاقتصادية وفقاً للتشريع الإسلامي، ودرس الأفكار والمفاهيم العامة التي تشعّ من

وراء تلك الصورة». كما ينوّه إلى أنّ الإسلام، وخلافاً للماركسية، لا يرى ترابطاً محتوماً بين تطورات أشكال الإنتاج وتطورات النظم الاجتماعية.

المشكلة الاقتصادية

يرى السيد محمد باقر الصدر أنّ المشكلة الاقتصادية في رأي الرأسمالية هي أنّ الموارد الطبيعية للثروة لا تستطيع أن تواكب المدنية، وتضمن إشباع جميع ما يستجدّ خلال التطور المدني من حاجات ورغبات. والماركسية ترى أن المشكلة الاقتصادية دائماً هي مشكلة التناقض بين شكل الإنتاج وعلاقات التوزيع. وبحسب الشهيد الصدر: فإنّ الإسلام لا يوافق الرأسمالية في أن المشكلة مشكلة الطبيعة وقلة مواردها؛ لأنّه يرى أن الطبيعة قادرة على ضمان كل حاجات الحياة. ويختلف مع الماركسية في كونه لا يرى أن المشكلة هي التناقض بين شكل الإنتاج وعلاقات التوزيع، كما تقرر الماركسية. ويرى أنّ المشكلة ـ قبل كل شيء ـ مشكلة الإنسان نفسه.

إنّ الاتجاه الأساسي لـ (اقتصادنا) يعتمد على التوزيع، وعلى مجموعة أنظمة تجعل الإسلام قادراً على تنظيم عملية التوزيع بما يضمن أعلى نمو وازدهار للثروة الاقتصادية، وذلك عن طريق تجنيد طاقات الإنسان للاستفادة من الطبيعة واستثمارها. وكما تقدّم فإنّ الكتاب يتألف من قسمين أساسيين، هما: «التوزيع ما قبل الإنتاج»؛ و«التوزيع ما بعد الإنتاج».

«جهاز التوزيع في الإسلام يتكون من أداتين رئيسيتين، وهما: العمل؛ والحاجة». وبحسب الشهيد الصدر فإنّ العمل في نظر الإسلام سبب لملكية العامل لنتيجة عمله. وهذه الملكية الخاصة القائمة على أساس العمل تعبير عن ميل طبيعي في الإنسان إلى تملك نتائج عمله. والقاعدة الإسلامية التي يستخلصها الشهيد الصدر هي: إنّ العمل سبب لتملّك العامل للمادة، وليس سبباً لقيمتها. فالعامل حين يستخرج اللؤلؤ لا يمنحه بعمله هذا قيمته، وإنّما يملكه بهذا العمل.

ويلخّص الشهيد الصدر أدوات التوزيع في الإسلام على النحو التالي:

العمل أداة رئيسية للتوزيع؛ بوصفه أساساً للملكية، فمَنْ يعمل في حقل الطبيعة يقطف ثمار عمله ويتملكها.

الحاجة أداة رئيسية للتوزيع؛ بوصفها تعبيراً عن حقّ إنساني ثابت في الحياة الكريمة، وبهذا تكفل الحاجات في المجتمع الإسلامي، ويضمن إشباعها.

الملكية أداة ثانوية للتوزيع عن طريق النشاطات التجارية التي سمح بها الإسلام ضمن شروط خاصة لا تتعارض مع المبادئ الإسلامية للعدالة الاجتماعية، التي ضمن الإسلام تحقيقها.

كما يرى الشهيد الصدر أنّ (الظلم) في التوزيع هو المشكلة الاجتماعية الأساسية.

ملاحظات منهجية ـــ

يميّز الشهيد الصدر بين مفهومي (المذهب) و(العلم). فالمذهب الاقتصادي للمجتمع عبارة عن الطريقة التي يفضل المجتمع اتباعها في حياته الاقتصادية، وحلّ مشاكلها العملية. وعلم الاقتصاد هو العلم الذي يتناول تفسير الحياة الاقتصادية وأحداثها وظواهرها، وربط تلك الأحداث والظواهر بالأسباب والعوامل العامّة التي تتحكم فيها.

بعد هذا التمييز الجوهري يطرح الشهيد الصدر أربع فرضيات:

١ـ إن الاقتصاد الإسلامي مذهبٌ، وليس علماً؛ لأنّه الطريقة التي يفضل الإسلام اتباعها في الحياة الاقتصادية.

٢ـ الاقتصاد الإسلامي قائم على مبدأ العدالة، وبما أنّ العدالة ليست فكرة علمية بذاتها فليس غريباً أن لا يكون الاقتصاد الإسلامي علماً؛ لأنّ العدالة نفسها تقدير وتقويم خلقي. من هنا يختتم الشهيد الصدر حديثه في هذه المرحلة بالقول: ولذلك يندرج مبدأ الملكية الخاصة، أو الحرية الاقتصادية، أو إلغاء الفائدة، أو تأميم وسائل الإنتاج..، في المذهب؛ لأنه يرتبط بفكرة العدالة، بينما تندرج قوانين تناقص الغلة، وقوانين العرض والطلب، أو القانون الحديدي للأجور، في مجال علم الاقتصاد.

٣ـ إنّ الشريعة الإسلامية المصدر الأول لاكتشاف الاقتصاد الإسلامي.

٤ـ إنّ الاقتصاد الإسلامي قائم على الاكتشاف، لا التكوين. فالمفكر الإسلامي لا يتمتّع بحرّية كافية؛ باعتباره مكتشفاً، وليس مكوّناً للمذهب، كالآخرين، فهو مقيّدٌ بالقوانين والأحكام الإسلامية الحاكمة على الاقتصاد.

التوزيع ومصادر الإنتاج

إنّ مصادر التوزيع ما قبل الإنتاج أربعة، ويمكن تصنيفها ضمن المصادر الطبيعية للإنتاج، وهي: الأرض؛ والمواد الأولية؛ والأدوات اللازمة لإنتاج السلع المختلفة؛ والمياه الطبيعية وبقية الثروات الطبيعية (محتويات البحار والأنهار، كاللآلئ والمرجان و...).

وتضمّن هذا الفصل بحثاً مفصّلاً حول الأرض والتشريعات المتعلّقة بها، بدءاً بنوع ملكية الأرض، وسبب دخولها في حوزة الإسلام، والحالة التي كانت تسودها حين أصبحت أرضاً إسلامية. فملكية الأرض في العراق تختلف عن ملكية الأرض في أندونيسيا؛ لأن العراق وأندونيسيا يختلفان في طريقة انضمامهما إلى دار الإسلام. ويمكن تقسيم الأرض الإسلامية تأريخياً، أي وفقاً للحالة التي كانت تسودها، إلى ثلاثة أقسام:

١ـ الأرض التي أصبحت إسلامية بالفتح، كأراضي العراق ومصر وإيران وسورية وأجزاء كثيرة من العالم الإسلامي.

٢ـ الأرض المسلمة بالدعوة، وهي كل أرض دخل أهلها في الإسلام واستجابوا للدعوة.

٣ـ أرض الصلح.

وفي ما يتصل بالأرض العامرة بَشَريّاً وقت الفتح يقول الشهيد الصدر: إنّ فقهاء الطائفتين قد اتفقوا على أنّ الأرض إذا كانت عامرة بشرياً وقت اندماجها في تاريخ الإسلام، وداخلة في حيازة الإنسان ونطاق استثماره..، فهي ملك عامٌّ للمسلمين جميعاً، من وجد منهم ومن يوجد، أي إن الأمة الإسلامية بامتدادها التاريخي هي التي تملك

هذه الأرض، دون أي امتياز لمسلم على آخر في هذه الملكية العامة، ولا يسمح للفرد بتملك رقبة الأرض ملكية خاصة. ولمبدأ الملكية العامة أحكام، من جملتها: إنّها لا تخضع لأحكام الإرث، ولا تباع أو تستعاض، ويحال أمر إحيائها وإجارتها وتحديد ضريبتها إلى ولي الأمر، وخراجها لعموم المسلمين، وتنتهي علاقة المستأجر بالأرض بانقضاء مدة الإجارة. أمّا الأرض الميتة حال الفتح فهي ملك للدولة، وليست داخلة ضمن نطاق الملكية الخاصة، وبذلك كانت تتفق مع الأرض الخراجية في عدم الخضوع لمبدأ الملكية الخاصة، من بيع وشراء وغير ذلك. أمّا الأرض العامرة طبيعياً حال الفتح، كالغابات وأمثالها، فهي ملك للدولة أيضاً. أمّا الغابات والأراضي العامرة بطبيعتها التي تفتح عنوة وتنتزع من أيدي الكفار فهي ملك عامٌ للمسلمين.

والأرض المسلمة بالدعوة، أي التي دخل أهلها في الإسلام، كالمدينة المنورة، وأندونيسيا، التي قد أحيا أهلها قسماً منها قبل دخولهم الإسلام فهي لهم، ويطبق عليها مبدأ الملكية الخاصة، ولا خراج عليهم. أمّا الموات من الأرض المسلمة بالدعوة، وكذلك الأرض العامرة طبيعياً المنضمّة إلى حوزة الإسلام بالاستجابة السلمية، فهي ملك للدولة.

أمّا الموقف القانوني لأرض الصلح فهو: إنْ كانت عامرة فالأرض تصبح أرض صلح، ويجب تطبيق ما تمّ عليه الصلح بشأنها؛ وأمّا إذا كانت مواتاً، أو كانت عامرة طبيعياً، فالقاعدة فيها أنّها ما لم تكن قد أُدرجت في عقد صلح فهي ملك للدولة.

الاستمرار في إحياء الأرض ونظرية الملكية

بغضّ النظر عن طبيعة الأرض أو نوعها فإنّ مَنْ حاز أرضاً أو استولى عليها لن تتحوّل إلى ملكه بمجرّد الاستيلاء أو الحيازة، وإنّما هناك شروط لابدّ من توفّرها لتتحوَّل إلى ملكيته. فحقّ الملكية لا يمنح للفرد إلاّ بالإحياء، ومواصلة إعماره الأرض وتجسيد عمله فيها، أمّا إذا أهملها وامتنع عن عمرانها حتى خربت سقط حقّه فيها. أمّا في حال وفاة المحيي للأرض فتجري أحكام الإرث بحدود ما اختص به بسبب الإحياء، فلورثته الحق في الانتفاع بالأرض وتملكها ما داموا يزاولون إحياءها،

لكنّهم إن أهملوها سقط حقهم فيها، وتدخل في نطاق الملكية العامة.

إنّ مفهوم العمل ومفهوم الإحياء يشكّلان ركني النظرية العامة للملكية الأرض: «وهكذا نعرف أنّ الاختصاص بالأرض ـ حقّاً أو ملكاً ـ محدود بإنجاز الفرد لوظيفته الاجتماعية في الأرض، فإذا أهملها وامتنع عن إعمارها حتى خربت انقطعت صلته بها، وتحرَّرت الأرض من قيوده.

المصدر الآخر للثروة، الذي يدخل ضمن دائرة التوزيع ما قبل الإنتاج بحسب النظام الاقتصادي الذي يقدّمه الشهيد الصدر، هو المواد الأولية، أو الثروات المعدنية. وحول اختصاص هذه الثروة بفرد معيّن، فيما إذا وجدت في أرضه، يجيب الشهيد الصدر عن سؤال مفاده: هل تستوعب المناجم التي توجد في أرض يختصّ بها فرد معين، أو أنّ هذه المناجم تصبح ملكاً لذلك الفرد؛ باعتبار وجودها في أرضه؟: كلا؛ «لأن وجودها في أرض فرد معين ليس سبباً كافياً من الناحية الفقهية لتملك ذلك الفرد لها».

ومؤيِّداً لمن تقدّم من الفقهاء، كالحلي والشافعي والماوردي، يقسِّم الشهيد الصدر المعادن إلى: ظاهرة؛ وباطنة. فالأولى كالملح والكبريت، والثانية كالذهب والفضة والحديد. والمعادن الظاهرة من المشتركات العامة. يقول الشهيد الصدر في هذا الصدد: «أمّا المعادن الظاهرة فالرأي الفقهي السائد فيها هو أنها من المشتركات العامة بين الناس، فلا يعترف الإسلام لأحد بالاختصاص بها، وتملكها ملكية خاصة؛ لأنها مندرجة عنده ضمن نطاق الملكية العامة، وخاضعة لهذا المبدأ، وإنما يسمح للأفراد بالحصول على قدر حاجتهم من تلك الثروة المعدنية، دون أن يستأثروا بها، أو يتملكوا ينابيعها الطبيعية. وعلى هذا الأساس يصبح للدولة وحدها ـ أو للإمام بوصفه ولي أمر الناس الذين يملكون تلك الثروات الطبيعية ملكية عامة ـ أن يستثمرها بقدر ما توفِّره الشروط المادية للإنتاج والاستخراج من إمكانات، ويضع ثمارها في خدمة الناس».

وأمّا المعادن الباطنة فهي أيضاً نوعان: إمّا توجد قريبة من سطح الأرض؛ وإما توجد في أعماقها. يقول الشهيد الصدر في هذا الصدد: «وهذه المعادن الباطنة المستترة

تتقاذفها عدّة نظريات في الفقه الإسلامي؛ فهناك مَنْ يرى أنها ملك الدولة، أو الإمام باعتبار المنصب لا الشخص، كالكليني، والقمي، والمفيد، والديلمي، والقاضي، وغيرهم؛ إيماناً منهم بأن المعادن من الأنفال، والأنفال ملك الدولة. وهناك مَنْ يرى أنها من المشتركات العامة، التي يملكها الناس جميعاً ملكية عامة، كما نقل عن الإمام الشافعي، وعن كثير من العلماء الحنابلة».

المصدران الثالث والرابع: المياه الطبيعية وبقية الثروات الطبيعية ـــ

مصادر المياه الطبيعية قسمان: **أحدهما**: المصادر المكشوفة؛ **والآخر**: المصادر المكنوزة في أعماق الطبيعة. فالمياه الظاهرة، والتي يعبّر عنها الشهيد الصدر «المياه المكشوفة»، من المشتركات العامة بين الناس، لا يملكها أحد ملكية خاصة. وإذا حاز الشخص منها كمية ملك الكمية التي حازها. فالعمل هو أساس تملك ما يسيطر عليه الشخص من مياه تلك المصادر.

أما القسم الثاني، أي ما كان مكنوزاً ومستتراً في باطن الأرض، فلا يختص به أحدٌ ما لم يعمل للوصول إليه، فإذا كشفه إنسان بالعمل أصبح له حقٌّ في العين المكتشفة، ولكنه لا يملك نفس العين، فإذا أشبع حاجته بذل الزائد للآخرين.

أمّا الثروات الطبيعية الأخرى فتعتبر من المباحات العامة، ولا تملك ملكية خاصة إلاّ على أساس العمل لحيازتها، فلا يكفي دخولها في حدود سيطرة الإنسان لتصبح ملكاً له ما لم ينفق عملاً إيجابياً في حيازتها، فلو دخل طائر في بستانه لم يملكه إلاّ بالأخذ والحيازة.

ومن جملة المواضيع الدقيقة والحساسة التي تناولها الشهيد الصدر وعالجها ضمن موضوع المعادن هو موضوع النفط. فبالرغم من كونه ينتمي إلى قسم المعادن الظاهرة إلاّ أنه ـ وبحسب الشهيد الصدر ـ يبقى في دائرة الملكية العامة، وبالتالي لا يحقّ لأحد الاختصاص بها.

الإنتاج ومسؤولية الدولة ـــ

يتناول الشهيد الصدر في آخر فصلين من الكتاب مسؤولية الدولة في الاقتصاد

الإسلامي باعتبارها القوة الرئيسة التي تدير الثروة الإنتاجية، وتضمن التوزيع العادل. وتكمن أهمية تدخل الدولة ـ بحسب ما يراه الشهيد الصدر ـ في حاجة المشاريع الإنتاجية الكبرى إلى رؤوس أموال طائلة لا يقدر على تغطيتها سوى الدولة؛ لأنّ الإسلام منع وحارب تكديس الثورة، وتحوّلها دولة بين الأغنياء. ومن أوجه تدخل الدولة أيضاً مراقبتها لجودة الإنتاج، وعدالة توزيع المصادر الطبيعية.

إذاً يعتبر مبدأ تدخل الدولة في الحياة الاقتصادية من المبادئ المهمة في الاقتصاد الإسلامي ـ بحسب نظرية الشهيد الصدر ـ وأبرز معلم يتمظهر فيه تدخل الدولة في الاقتصاد الإسلامي هو منطقة الفراغ. وقد حاول الكاتب تغطيتها في مطلع كتابه بشكل تفصيلي. فلابدّ للحاكم؛ بصفته ولياً للأمر، أن يتخذ إجراءات يضمن بها تحقيق مبدأ «الضمان الاجتماعي»، ومبدأ «التوازن الاجتماعي». إذاً فالهدف من تدخل الدولة وفلسفة ذلك ـ كما يبدو من كتاب (اقتصادنا) ـ هو القضاء على التفاوت الطبقي، والتناقضات الرأسمالية الصارخة في مستويات المعيشة، والحؤول دون صيرورة المال دولة بين الأغنياء.

أمّا منطقة الفراغ التي تقع تغطيتها على مسؤولية الدولة أيضاً فهي تقوم على أساس أنّ الإسلام لا يقدم مبادئه التشريعية للحياة الاقتصادية بوصفها علاجاً موقوتاً، أو تنظيماً مرحلياً، يجتازه التاريخ بعد فترة من الزمن إلى شكل آخر من أشكال التنظيم، وإنما يقدمها باعتبارها الصورة النظرية الصالحة لجميع العصور.

وأخيراً لابدّ لنا من القول بأنّ كتاب (اقتصادنا) لا يزال يحتل مرتبة الصدارة؛ بصفته أبرز وأكثر الكتب تداولاً في مجال الاقتصاد الإسلامي في كافة الجامعات الغربية والإيرانية، فكلّما دار الحديث عن الاقتصاد الإسلامي اتجهت الأنظار إلى كتاب (اقتصادنا).

ولا يخفى أنّ تأثير هذا الكتاب لم يقتصر على الكيان الشيعي، وإنّما امتد ليشمل مصر، وعدداً من جامعات دول المغرب العربي، التي اعتمدته منهجاً دراسياً لديها.

لقد ظهر كتاب (اقتصادنا) في مرحلة تأريخية حساسة للغاية؛ ذلك أن التيار

الماركسي والأحزاب الشيوعية كانت قد أخذت تنتشر بشكل كبير في معظم الدول الإسلامية، فأعاد ظهور الكتاب الكفّة لصالح التيارات الإسلامية، التي طالما كانت ترفع شعار قدرة الإسلام على تخطي عاملي الزمان والمكان ومواكبة جميع العصور، والتي أخفقت عندما وجدت نفسها وجهاً لوجه أمام المدّ الماركسي والشيوعي المثقل بالمفاهيم والقواعد والأفكار والنظريات الاقتصادية والمصطلحات العلمية، كالقاعدة، والبناء العلوي، وعلاقات الإنتاج ومصادر الإنتاج، وطبقة البروليتاريا، والثورة العمالية، وغير ذلك. وقد يصح القول: إنّ الدور الذي لعبه الدكتور علي شريعتي على الصعيد الثقافي، والصعيدين التاريخي والاجتماعي، والذي نظّر للعودة إلى الهوية الإسلامية، ووضع أمام الجيل الضائع هوية جديدة، وأنقذهم من السقوط في براثن المدّ الماركسي، وأعاد مَنْ سقط منهم، مشابهٌ للدور الذي لعبه الشهيد الصدر من خلال تأليفه كتابي (اقتصادنا) و(فلسفتنا) المحوريين، اللذين استطاع من خلالهما مهاجمة الاقتصادين الرأسمالي والشيوعي والفلسفة المادية والإلحادية مهاجمة علمية دقيقة. والأهمّ من ذلك أنّه أوجد بديلاً إسلامياً لا يزال فعّالاً ومهمّاً بالرغم من تخطيه العقود الأربع.

والملاحظة الأخيرة تستهدف المنهج التقريبي الذي اعتمده السيد محمد باقر الصدر في (اقتصادنا). فقد تجاوز في هذا الكتاب حدود الفقه الشيعي، ليتناول الرؤية الفقهية لفقهاء السنة، ويعتمدها كمصدر علميٍّ لاكتشاف المذهب الإسلامي في الاقتصاد، ولذلك نجده قد تناول إلى جانب آراء فقهاء المذهب الجعفري آراء كلٍّ من: الشافعي، ومالك، والسرخسي، وابن حزم.

الهوامش

(١) زكي الميلاد، الإسلام والأصلح الثقافي: ٣٦، القطيف، آفاق، ٢٠٠٧.

التفسير الموضوعي، مآزقه وإشكاليّاته

الشيخ علي سراقي(*)
ترجمة: نظيرة غلاب

مقدمة ـ

بعد أن كان التفسير الترتيبي المنهج المتداول بين المفسرين ظهر التفسير الموضوعي، الذي شكل قفزة نوعية في مجال التفسير، بحيث شغل اهتمام المفسرين، الذين رأوا فيه المنهج الأرقى والطريقة المثلى في الإحاطة بالمراد القرآني، وخطوة إلى الإمام بالنسبة إلى التفسير التجزيئي. لذا وجدنا من الضرورة التفصيل في بيان ماهية هذا المنهج التفسيري، وتشخيص قواعده ومسائله وأصوله، مع فرز خصوصياته، وما يحتمل أن ينتج عن هذا المنهج من آفات في تفسير الوحي؛ وذلك بلحاظ الكبرى التي تقرر أن كل منهج بشري يريد أن يقرأ الوحي السماوي له آفات وكبوات تعترض طريقه، وبالتالي تفرض عليه تحديات.

وبلحاظ كون التفسير الموضوعي منهجاً فتياً وحديثاً، حيث إن العمل به لا زال في مراحله الأولى ـ رغم أن جذوره قديمة ترجع إلى عهد النبي الأكرم والأئمة من أهل بيته عليهم السلام ، فإن ما يمكن أن يعترضه من مشاكل طبيعيٌ؛ بالنظر إلى أن كل الجهود المبذولة حتى الآن هي جهود للمؤسِّسين والمكوِّنين الأوائل له، وبالتالي فإن ما سنحدِّده من آفات وسلبيات ليست كل شيء؛ لأنها نتاج استقراء غير تام، ولربما مع مرور الوقت، وبروز العديد من التفاسير القائمة على هذا المنهج، يظهر المزيد من الآفات والاشتباهات.

(*) باحث متخصص في مجال علوم القرآن الكريم.

لمعرفة آفات التفسير الموضوعي لابد ابتداءً من تحديد تعريف جامع ومانع له، ومعرفة المراحل التي يقطعها لتحديد المعنى الموضوعي للقرآن ومن ثم تتضح لنا مواضع الضعف ومكامن الهفوة.

حول معنى التفسير الموضوعي ومراحله ـ

التفسير الموضوعي هو كشف الموقف النظري للقرآن الكريم، سواء في ما يخص موضوعاً من مواضيعه أو مقطعاً من مقاطعه[١].

انتخاب موضوع من مواضيع القرآن، ثم تجميع الآيات حول هذا الموضوع، وتفسير الآيات وفق ترتيب خاصّ ناظر إلى زمن نزول كلّ واحدة منها أو إلى خصوصيات أخرى، ثم استخراج الموضوع المحوري فيها، ثم المقايسة أو المقاربة الموضوعية بين مجموع تلك الآيات، ثم استخراج نظرية قرآنية من كل ذلك، كل هذا يدخل ضمن ما يصطلح عليه بالمراحل التي يقطعها المفسِّر وفق منهج التفسير الموضوعي[٢].

أخطاء تلحق التعريف الصحيح ـ

الملاحظ أن عدم إعطاء تعريف دقيق للمراد بالتفسير الموضوعي فتح المجال أمام إدراج بعض أنواع التفسير للقرآن، أو لبعض المعارف المتعلقة بالقرآن، تحت لواء التفسير الموضوعي. ومن الأمثلة على ذلك[٣]:

١ـ تفسير السور المكية، للدكتورمحمد البهي.

٢ـ إمعان النظر في نظام الآيات والسور، لمحمد عناية الله الهندي.

٣ـ الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، للدكتور محمد حجازي.

٤ـ النسخ في القرآن، لمجموعة من المؤلِّفين.

٥ـ علم المناسبات (نظم الدرر في تناسب الآي والسور)، للبقاعي.

ويتضح من هذا أن إدراك المعنى المفهومي، أو ما يصطلح عليه عند الأصوليين بمفهوم الوصف، يقي من الخلط بين هذا العلم وبين غيره. ولعل عدم الدقة في تفسير

معاني علم من العلوم يخلق نوعاً من الضبابية، ويرسم ملامح الغموض والإبهام، وبالتالي يُدرج علمٌ ضمن علوم أخرى؛ لمجرد وجود نوع من المشتركات، سواء اللغوية أو المفاهيمية. والملاحظ في المواضيع السابقة أنها في الحقيقة مجرد دراسات قامت بتجميع العديد من القضايا التي هي من التفسير التجزيئي، وكان الملاحظ فيها هو التشابه، وليست من التفسير الموضوعي، الذي يقتضي ضمن خصوصياته الأصيلة وحدة في الموضوع، وقرآنية الموضوع، بشكل كامل وتامّ.

أخطاء تلحق مراحل اختيار الموضوع

أ. خروج بعض المواضيع أو المناهج عن دائرة النظرية القرآنية: فاتباع التفسير الموضوعي لا يعني أن يأتي المفسِّر بكل موضوع خارجي من العلوم التي يتم ابتكارها أو اكتشافها يوماً بعد يوم، ثم يحاول أن يجعلها قرآنية، بحيث يسقط عليها مدلول الآيات، ثم يدعي في النتيجة أنها ضمن البعد الشمولي للقرآن. فالقرآن منهج ديني إلهي، وليس من شأنه الخوض في تفاصيل وجزئيات العلوم البشرية، رغم أنه قد ذكر العديد من الحقائق العلمية، والتي استطاع العلم اليوم تأكيدها أو بعضها. ولعل البعض قد أخذتهم الحماسة، أو لشغفهم بدعوة الناس إلى الايمان بالقرآن، وبالتالي الحديث عن القدرة الإلهية، فأخذوا يسقطون الآيات القرآنية على بعض الظواهر الكونية أو العلمية. (الأطباق الطائرة في القرآن) و(القنبلة الذرية في القرآن) من جملة هذه الكتابات الحماسية، والتي يظهر التكلف في المعنى فيها واضحاً، بحيث تضع الوحي الإلهي في غير مكانته، والمذنب في هذا الموقف لا ينظر إلى نيته[٤].

ب ـ الذهاب إلى اختيار موضوع كلي، بحيث لا يوجد نظر محدد حوله: كأن يختار التقوى، فالتقوى موضوع شامل لمواضيع أخرى ولا يمكن إدراك الرابط الكوني أو الروحي بينها وبين الرزق مثلاً، أو بينها وبين العلم، حيث لا يمكن استخلاص نظرية مقننة لمفهوم جميع الآيات الناظرة إلى هذا الموضوع[٥].

ج ـ عدم تحديد الهدف: إذ لا يكفي في مجال التفسير الموضوعي الإقرار أن الهدف الصرف هو توضيح جميع جوانب الموضوع، أو أن المسالة علمية صرفة، أو

نحوها، بل لابد أن يكون الموضوع ضمن المبتلى به بين أطياف المجتمع المسلم، أو المجتمع البشري بشكل عام، ويكون مساهماً في هداية البشرية؛ لأن القرآن هو كتاب هداية، وليس مجرد كتاب نظريات علمية أو نحوها، بل المراد باستخلاص النظرية القرآنية إيجاد حلٍّ لمعضلة بشرية[٦].

د ـ اختيار موضوع مع وجود أفكار مسبقة وتصور ذهني أولي: ففي إطار التفسير الموضوعي لا يقبل من المفسِّر أن تكون له نظرة مسبقة لموضوع من المواضيع، ثم يأتي إلى القرآن، محاولاً إيجاد سند وشاهد شرعي على تلك الأفكار والتصورات؛ لأن هذا يعني في حقيقته جر القرآن لكي يكون حجة على أفكاره ونظرياته، وبالتالي يسعى إلى تحميل القرآن ما ليس له به علاقة، أو ربما تكون العلاقة عكس ما ذهب. وهذا يدخل في اصطلاح علوم القرآن ضمن التحريف المعنائي للقرآن. وقد سعى البعض لكي يثبت أن اليهود والنصارى مؤمنون بالمعنى القرآني، فاستخرج آيات حول الموضوع جعلها في صورة المؤيِّد لمذهبه[٧].

هـ ـ عدم اختيار الاسم الجامع: كأن يختار المفسِّر عنوان الحرب والصلح في القرآن، أو الفاظاً أخرى، نحو: الحرب، القتال، الضرب، الثبات، السلام، الهزيمة، الفرار، .... والمفروض اختيار العنوان الشامل لكل هذه العناوين الصغيرة، فيكون الأولى اختيار عنوان (الجهاد في سبيل الله) ليكون الموضوع المحور، وبعدها يضم إليه المشتركات اللفظية، والمعنائية، أو ما يقرب للموضوع المحور من عناوين أخرى[٨].

و ـ إغفال العناوين المنتزعة: كثيراً ما تكون مواضيع في القرآن لا يوجد لها في حد ذاتها اسم، لذا لابد من انتزاع اسم لها من ألفاظ قرآنية قريبة لها في الجملة. وكمثال: إن القرآن قد تحدث عن موضوع ظهور الأمم والحضارات، وطغيانها، ثم هلاكها، وذلك خلال سور متعددة، وبأساليب مختلفة. ولعل أقرب عنوان يعكس حقيقة هذه الظاهرة عنوان (السنن الإلهية في ظهور الأمم وذهابها)؛ وذلك لأن لفظ السنن[٩] أقرب الألفاظ القرآنية التي تشمل هذه الظاهرة. ولابد من التأكيد على أن يكون اللفظ المنتزع قرآنياً بالجملة، أو مشتقاً من الألفاظ القرآنية، بحيث لا يكون دخيلاً على ألفاظ القرآن، أو غريباً عنها، أو العدول عن المشترك اللفظي القرآني

لاختيار آخر خارج عن القرآن لمجرد انبهار المفسِّر نفسه بتلك العناوين، كمَنْ يستبدل عنوان الشورى، والذي هو لفظ قرآني، بعنوان (الديموقراطية في القرآن)، مع وجود فرق موضوعي بين اللفظين، لكن لوجود تقارب معنائي يستعمل المصطلحات الغربية بدل الشورى. نعم، قد يوجد دخل مقدَّر مفاده: إن القرآن يعطي الأهمية القصوى للمعاني، وما الألفاظ إلا طريقية. والجواب: حقيقة القرآن أن اختيار اللفظ المناسب واستحضار المعنى المناسب واحدة من نقاط الإعجاز فيه، ولا يجوز تحت أي مسوغ الاستغناء عن الألفاظ القرآنية تحت عنوان أن المعنى هو الأهم، وإلا فالقرآن سماوي في كل أبعاده، ومعجز في كل جوانبه[١٠].

أخطاء تلحق مراحل تجميع آيات الموضوع

أ. الاكتفاء بمعجم الآيات القرآنية: لاينبغي الاكتفاء بالمعاجم القرآنية، حيث إنه ليس بعيداً أن لا تذكر المعاجم بعض الآيات التي تدخل ضمن الموضوع؛ بسبب أنها لا تحمل الكلمة نفسها. وكمثال على هذا: إن هناك العديد من الآيات التي موضوعها (الرحمة الإلهية)، ولكن لفظ (الرحمة) لم يرِدْ فيها بشكل مباشر، كما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ**﴾ (النحل: ٦١)، أو في قوله ضمن الآية الكريمة: ﴿**وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ**﴾ (فاطر: ٤٥)، وهي آيات ظاهرة في رحمة الله تعالى بعباده، رغم أن كلمة (الرحمة) لم ترِدْ فيها بشكل مباشر[١١]. بالإضافة إلى أن الاكتفاء بالمعاجم والانطلاق منها يضع المفسِّر ضمن الأفكار والنظرية المسبقة، وهي من الآفات التي تلحق تحديد مراحل التفسير الموضوعي، كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

ب ـ التساهل في تجميع آيات الموضوع قيد البحث: فمن الآفات الأخرى في هذا الجانب أن المفسر يتساهل إلى حدٍّ كبير في تجميع الآيات بمجرد احتمال مشابهتها للموضوع، أو قربها منه، ولا يتعب نفسه في دراسة الآيات على حدة، وهذا يسبب في تراكم الآيات.

كما أن الاحتمال العقلي الناتج عن عدم الإدراك الصحيح يضحي بالاحتمال

العقلائي، وهذه في حدّ ذاتها إحدى المشكلات التي تعترض طريق البحث العلمي، وقد تستدرج المفسِّر إلى مواضيع لا علاقة لها بالموضوع قيد التحقيق، وبالتالي تنزلق بالنتائج إلى طريق الاشتباه والخطأ. والاستعمال المعقول لمساحة التساهل يكون في شمول الاختيار لكل الآيات المرتبطة بنفس الموضوع، وليس كل ما احتمله عقله عن طريق الحدس والظن[١٢].

ج ـ التشدد الناتج عن الوسوسة والإفراط في تجميع الآيات: وهذه النقطة تقع على طرف النقيض بالنسبة إلى النقطة السابقة. وكلا النقطتين ـ كما سيلاحظ ـ تقع عن طريق التفريط أو الإفراط، وهو ما يصدق عليه التشدد في اختيار الآيات، لمجرد احتمال الناتج عن التخمينات، الفاقدة إلى مؤيد أو دليل. وهذه الخطوة تجعل التفسير ضعيفاً، وبالتالي فقيراً، وينتج نظرية مبتورة؛ لأنه لم يأخذ جميع الآيات المتحدة في الموضوع بعين الاعتبار والبحث[١٣].

الأخطاء التي تلحق مراحل العمل التفسيري

أ. عدم مزاولة التفسير بالقدر المطلوب: كل مَنْ ظنّ أنه يستطيع من دون مزاولة وسابق معرفة بالتفسير أن يجمع الآيات المتوحِّدة في الموضوع، وأن يضم بعضها إلى بعض، أي أن يدخل إلى التفسير الموضوعي بهذه الشروط، فقد ضلّ وأضلّ. فلابد للمفسِّر، شأنه شأن أيّ مشتغل بعلم من العلوم، من شروط وأدوات لا غنى له عنها، وهي أن تكون له مزاولة سابقة للتفسير الترتيبي أو التجزيئي، بحيث تكون له خطوة في التفسير الترتيبي، وأخرى في الموضوعي. كما لابد له من ممارسة التفاسير الأخرى، حتى تتكوَّن له معرفة بمواضيع الآيات، وبالتالي ينجح في ضمّ بعضها إلى البعض[١٤].

ب ـ الأحكام المسبقة: فوجود بعض المفاهيم والاعتقادات السابقة في خصوص موضوع من المواضيع يجعل المفسِّر يبني عليها في تفسيره للآيات القرآنية، أو لا أقلّ يطبعها بطابعه، ويغلب عليها لونه. فمحمد البهي يعتقد أن الآيات المدنية قد نزلت لتشكيل المجتمع المدني، أو بمعنى آخر: إن الآيات المدنية موضوعها المحور هو بناء

المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية، ولهذا وجدناه يطبع كتابه (منهج القرآن في تطوير المجتمع) بهذا المنحى، ويبني كتابه على هذه الأحكام المسبقة. وقد انعكس هذا الأمر على الخطوات المنهجية في كتابه، حيث سعى أولاً إلى انتقاد الأسلوب الجاهلي في تكوين القبيلة أو العشيرة وما شاكلها، ويريد بها أن يهيئ الأرضية لآيات النهي، والتي يغلب على طابعها الجانب الروحي، وليس المادي، وبالتالي تتطلب روحية وفضاءً روحياً وسيعاً، وهو الأمر الذي استدعى أن تنزل الآيات على فترة، وليس دفعة واحدة، ويصل إلى أن الوحي الجديد يكون من أجل خلق مرحلة جديدة وأكثر تكاملاً في حياة القوم أو البشرية، والتي تقوم في الأساس على الإيمان بالوحي وبيوم الحساب. فمحمد البهي؛ وانطلاقاً من هذه المرجعيات المسبقة، عمل على تفسير الآيات القرآنية، وإدراج العديد من الآيات ضمن هذا الموضوع بشكل لم يستند فيه إلى أي دليل علمي أو نقلي، وليس له توثيق تاريخي أو شاهد من أسباب وشأن النزول، كما فعل بالنسبة إلى مسألة تحريم الربا، حيث تحدث عن أن الشارع اعتمد فيها التدريج، ولم ينهَ عن الربا في مكة، كذلك الشأن بالنسبة إلى الصلاة والزكاة، وعيَّن لكلّ واحدة منهما زمان النزول، في الوقت الذي يعتبر موضوع تحديد زمان نزول الآيات من أشد المواضيع القرآنية إشكالية في مجال التفسير[١٥]. نعم، قد يكون للتدريج نواحٍ موجبة في ما يخصّ التربية والتعليم ومعالجة المشكلات الاجتماعية، لكن كون التدريج بهذه المميزات لا يعني الخوض في الآيات من دون دليل أو شاهد مقبول، وهو ما يلاحظ على كتاب محمد البهي، حيث افتقر كثيراً إلى الدليل والمستند.

ج ـ **عدم المعرفة بترتيب النزول:** من شروط المفسِّر معرفته بترتيب النزول، حتى يكون دقيقاً في تفسيره؛ لأنه من غير هذه المعرفة قد يجعل الآية الأولى قيداً أو إطلاقاً للثانية، في حين يكون العكس هو المراد. ومثاله في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافاً مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ (آل عمران: ١٣٠)، هذه الآية قد نزلت قبل الآيات الأخرى المحرِّمة للربا مطلقاً، كما في سورة البقرة، الآيتان ٢٧٥ و٢٨٠، والآية من آل عمران قد حرمت الربا بشكل تدريجي، وأشارت إلى الربا الذي تكون فيه الأموال أضعافاً مضاعفة، بينما الآيتان من سورة البقرة، والتي نزلت

بعد آية آل عمران، قد حرمت مطلق الربا، قليله وكثيره. وإذا لم يكن المفسِّر على اطلاع بترتيب نزول هذه الآيات فسيقع في المحذور، حيث سيجعل التحريم المطلق أول ما نزل، ويعتقد أن آية آل عمران جاءت لتقيِّد هذا المطلق، فيصبح الربا المطلق في سورة البقرة مقيداً بالآية من سورة آل عمران، وبالتالي يصبح الربا القليل ممّا لا إشكال فيه[١٦].

د ـ **الانبهار بالعلوم:** مال بعض المفسِّرين إلى تفسير القرآن وفق النظريات العلمية الجديدة، وهو أسلوب يضرب في العمق أصول التفسير الموضوعي؛ لأنه ـ وبشكل تدريجي ـ سيعطي الأصالة للعلوم الجديدة، وبالتالي سيرفع من قيمة نظريات العلوم التجريبية التي تعتمد الظنّ والاحتمال، وهذا سيلحق الأذى بمنهج التفسير الموضوعي؛ لأن التجربة كل يوم في تطور، بينما الحقائق القرآنية ثابتة[١٧].

وقد جرّ هذا التيار العديد من المفسِّرين، فالدكتور خزعلي ضمن كتابه (أحكام القرآن) قد عمل على تفسير مبدأ الخلق وفق تحقيقات العلوم التجريبية، التي تقول بأن منشأ العالم الذرة، فقال: إن منشأ الخلق هو الذرة، والتي تسمى بالخلية، التي توجد في النطفة، وهذه الخلية تنمو وتتطور لتنقسم إلى خليتين، وذلك ضمن تفسيره لقوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا**﴾ (الأعراف: ١٨٩)، ﴿**وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء**﴾(النساء: ١). فكتب يقول: الظاهر أن المراد بـ «نفس واحدة» الخلية، يعني الذرة الموجودة في النطفة، وبعدالتطوّر والنمو تنقسم إلى خليتين[١٨].

نوفل عبد الرزاق، المشغوف بتفسير القرآن وفق النظريات الرياضية والتجربية، عمل هو الآخر على تفسير نفس الآية من سورة الأعراف وفق ما جاءت به العلوم الحديثة، فقال: إن الإلكترون هو الجوهر الذي شكل الخلق الأول، وسكونه، وانسجامه مع زوجه، التي هي البروتون، حيث إن شحنة البروتون تكون موجبة، وشحنة الإلكترون تكون سالبة، والتقاؤهما يحدث التعادل والانسجام في الذرة[١٩].

لكن قراءة متأنية وبعيدة عن مثل هذه التجاذبات تبين أن التفسير العلمي لا يبين المراد الإلهي من هذه الآية، وخصوصاً إذا تم تتبع باقي الآيات، حيث يصدر عن

هذين الزوجين الدعاء والمناجاة، وهي أمور لا يمكن أن تصدر إلا من العاقل والمكلَّف شرعاً، ولا يمكن أن تصدر من الذرة.

ومن الأمثلة الأخرى على الانزلاق في تفسير القرآن وفق النظرة العلمية أن أحد المؤلفين كتب يقول: إن منشأ القول بأن أبا البشرية هو آدمعليه السلام خلق من طين هو التوراة، وأن المفسرين للقرآن إنما اتبعوا ما جاء في التوراة؛ لعدم اطلاعهم على النظريات العلمية، وكرروا الحديث عن آدام وحواء، بينما الصحيح ماجاء به داروين، الذي قال بنظرية التطوُّر، فالإنسان كان قرداً، ثم تطوَّر؛ لعوامل الطبيعة وما تفرضه من تحديات، إلى الإنسان الذي نراه اليوم يمشي على البسيطة[٢٠].

هـ ـ الانبهار بالغرب والتودد إليه: من بين التفاسير القرآنية الحديثة تلك التي كتبت بواسطة مفسِّرين إسلاميين حركيين انعطفوا إلى تفسير الآيات وفق النظريات الغربية، حيث تأثروا كثيراً بالمفاهيم الغربية وقوانينها في الأخلاق والاجتماع، وعملوا في هذه التفاسير على محاولة إيجاد نوع من الانسجام والتوافق بين المدارس الفكرية أو الفلسفية الغربية وبين المفاهيم القرآنية والوحي الإلهي. هؤلاء في الحقيقة وجدوا أنفسهم بين أمرين: كونهم يؤمنون بأصالة الوحي الإلهي، وأن القرآن من عند الله؛ وانبهارهم بالحضارة والتمدُّن الغربي، الذي يقوم على إنكار ما وراء المادة. وحتى يجمعوا بين هذين المتناقضين سلَّموا أنفسهم إلى تأويل الآيات والتصرف الصرف في معانيها، وهو عمل يغفل في حقيقته عن أصالة وحقيقة المفاهيم القرآنية، ويعطي الأصالة لفكر ذي منشأ بشري. وقد عملوا على تفسير بعض الماورائيات وفق النظرة المادية. ويظهر هذا الاتجاه في التفسير الموضوعي ضمن التفاسير التي كُتبت زمان استعمار الغرب للدول الإسلامية، خصوصاً الهند ومصر، وهي تفاسير تحمل تأويلات مفجعة، وبعيدة كل البعد عن الحقيقة القرآنية[٢١].

و ـ الاتجاه العقلي والبراغماتي: الاتجاه العقلي في الوسط السني من الاتجاهات الحديثة في التفسير، التي ظهرت خلال القرن الرابع عشر. وقد كان هذا الاتجاه ردة فعل على الاتجاه الأخباري أو التقليدي الذي حكم الفقه والتفسير طيلة الفترة السابقة. والاتجاه العقلي، كما الاتجاه العلمي، لم يستطع أن يحفظ نفسه ضمن حدود

الاعتدال، لينتهي إلى حافة الإفراط[٢٢]. وكان من أبرز الوجوه في هذا الاتجاه محمد عبده، الذي اعتبره باقي المفسِّرين الذين ساروا على دربه أستاذهم الأول[٢٣]. وذهب محمد عبده إلى أن القرآن يجب أن يخضع للعقل في جانبيه النظري والعملي، وإذا وقع التعارض بين العقل والنصّ فإن العقل يقدَّم على ظاهر النص[٢٤].

وتبعه تلميذه رشيد رضا، الذي قال بأن المصلحة العامة مقدمة على النصّ والإجماع في حالة عدم توافقهما[٢٥]. ويرى عبده أن العقل يحكم باختلاط المفسدة في تعدد الزوجات مع العدالة، وذلك ضمن تفسيره لقوله تعالى: ﴿**فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ...**﴾ (النساء: ٣)، ويرى تقدم حكم العقل على النص في هذا الموضوع. وكذلك يرى جواز الربا إذا كانت ستمنع من انتقال مال المسلمين إلى الكفار[٢٦].

وقد كتب السيد قطب ينتقد الاتجاه العقلي المفرط عند محمد عبده قائلاً: لقد عاش الشيخ محمد عبده في زمن تحول التفكر والتحليل العقلي في أوروبا إلى الله. وقد توجه المستشرقون بالاتهام للإسلام بأنه يعطل العقل، وخصوصاً في ما يخص مبحث «القضاء والقدر». وقد قام محمد عبده لينصر الإسلام، ولينافح عنه مثل هذه التهم، وذلك بإعلانه الحرب على جمود العقل في التفكر الشرقي، وأراد أن يجعل العقل في نفس سطح الوحي، غافلاً عن كون الوحي أعلى مرتبة وأشرف من العقل، وهو الوسيلة التي تبين الخطأ من غيره، وطريق الصواب من غيرها[٢٧].

ز ـ التفريط في الاستفادة من المعلومات البشرية: هذا النوع من المفسِّرين يقعون على الطرف المقابل من أصحاب الاتجاه العقلي، حيث إنهم ينكرون الاستفادة من العلوم والمناهج البشرية في التفسير، ويقتصرون على القول بأن فهم القرآن يجب أن يتم من خلال القرآن نفسه، وأن ينطلق بذهن بسيط في تفسير القرآن. ومن الواضح أن تفسيراً من هذا النوع سيكون ناقصاً، ولا يملك دعائم القوة والشمولية في احتواء المعاني[٢٨].

كان السيد الشهيد محمد باقر الصدر يروم بدعوته إلى تفسير القرآن وفق مواضيعه استحضار روح العصر والواقع الفكري البشري كعنصر مهمّ في قراءة

معاني الآيات. فالقرآن حقيقة مطلقة تتجلى لكل أهل عصر وفق قدراتهم العقلية واحتياجاتهم الفكرية. يبدأ التفسير الموضوعي من الواقع البشري ليعود إلى القرآن، لا أنه يريد أن يحمّل القرآن ما وجد في ظرف الحياة الواقعية، أو أنه يريد الاستسلام أمام ما وصل إليه العقل البشري من علوم، فيفسر الآيات والسور وفقها؛ ليعطيها الأصالة، ويحفظ لها مكانة الرمز. وإنما أراد السيد الصدر أن يبدأ التفسير من الموضوع الخارجي وينتهي بالقرآن، أن يوحِّد بين التجربة البشرية وبين القرآن الكريم؛ لأن التجربة البشرية تغني التفسير بما تقدّمه من موارد، وفي نفس الوقت تبقى للقرآن القيمومة والعطاء المتجدد، يبقى ذلك المعين الذي لا ينفذ[٢٩]. ويضيف السيد الصدر قائلاً: إن رسالة التفسير الموضوعي في كلّ مرحلة وفي كل عصر أن يستحضر المفسِّر التجربة البشرية، ويطرحها بين يدي القرآن الكريم، ليستنطق القرآن؛ رغبةً في إيجاد أجوبة لكلّ ما طرح من مشكلات وإشكالات. إن استحضار هذه التجارب البشرية لا يعني أنها ندٌّ للقرآن أو في خط التساوي معه، وإنما القرآن هو المرجع، له مطلق القيمومة والعطاء المستجد، وهو الطريق الوحيد للحصول على النظريات الأساسية للإسلام نحو مواضيع الحياة البشرية المختلفة[٣٠]. كذلك نجد الشيخ جوادي الآملي يبين أن الاستفادة من المعلومات والخبرات البشرية تعمل على رشد التفسير وإنمائه، قائلاً: هناك فرق بين التحميل والتحمل، وكلما استفاد الإنسان مما تمنحه التجربة البشرية ومن كتاب الكون كلما كانت قدرته على تحمل معاني الآيات القرآنية أقوى وأكثر[٣١].

ح ـ إغفال تناظر الآيات: فلمعرفة مفاهيم القرآن شرط أساسي في التفسير الموضوعي، ألا وهو معرفة السياق العام للآيات. فالآيات القرآنية تشكل وحدة في ما بينها، وليس هناك استقلال تام لبعضها عن بعض، بل لابد من النظر إلى باقي الآيات لأجل الوصول إلى المفهوم الصحيح، والمعنى الكامل للآيات. والسياق، إلى جانب مسائل أخرى تماثله، من الشروط الخاصة في تحقُّق التفسير الموضوعي. وكما قيل فالنظر إلى كل القرآن من الأصول التي يبني عليها المفسِّرون اليوم التفسير الموضوعي[٣٢]. وقد كتب الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، في مقدمة تفسيره

الموضوعي: «كل أجزاء عالم الوجود تشكل وحدة يرتبط بعضها ببعض، والأسلوب الصحيح لمعرفتها والاطلاع على حقائقها هو بحثها في اجتماعها وارتباطها. والأمر في القرآن بنفس الشكل، فالارتباط بين الآيات ارتباط موضوعي دقيق، بمعنى أن هذا الارتباط يكمن في توحيد مواضيعه ووحدتها، ولابدّ في التفسير من استحضار هذه الحقيقة، وهي أن النظر إلى كل القرآن شرط في فهمه وكشف معانيه ومراده»[٣٣]. وهذا ما يؤكده الشيخ جوادي الآملي، حيث يقول: إن القرآن في كل آياته «مثاني»، بمعنى أنه معطوف بعضه على بعض، ولها نفس الاتجاه، ويفسر بعضه بعضاً، نستند إلى بعضه ونلجأ إلى أخرى. وهذا هو الأسلوب المعبِّر عن أن كل القرآن منسجم بعضه مع البعض[٣٤]. ونفس هذا الرأي نجده عند العلامة الطباطبائي، حيث يبين «أن من عجائب القرآن أن الآية الواحدة منه لا يمكنها أن توضح المعنى مستقلة عن باقي القرآن، وأنه كلما انضمت آية إلى أخرى مناسبة لها بلحاظ الموضوع كلما كان المعنى أوضح، وكلما ظهرت حقيقة جديدة، ولما تنضم إليهما آية ثالثة يصبح المجال أدقّ في تقرير تلك النتائج وتثبيتها. وهذه إحدى خصوصيات القرآن... ولو أن المفسِّرين سلكوا هذا المنهج في تفسير القرآن لاستطاعوا الشرب من منبعه الزلال، ولاستفتحوا كنوزه العظيمة، ولاستشرفوا الأمة والإنسانية بمفاهيم ونظريات تفوق بكثير ما بأيدينا اليوم»[٣٥].

ونخلص إلى أن النظر إلى القرآن بلحاظ كليته وترابطه من الأمور والقواعد الهامة للمشتغلين بمواضيع القرآن، وإغفال وحدة الآيات في سياقها العام منقصة للتفسير، ولن تكشف مفهوماً أو معنى[٣٦].

الخلل الذي يلحق مرحلة استخلاص النظرية

أ. عدم الالتزام الكامل بكل معاني الآيات: في مرحلة استخلاص النظرية على المفسِّر أن يلتزم باستحضار كل ما استخلصه من معاني ومفاهيم، بدون زيادة أو نقيصة، وأن لا يدخل عناصر أخرى خارجة عن القرآن، كالروايات، واللغة، وما تقرر أنه خارج عن نص القرآن؛ لأن من شأنها أن تضيف إلى النظرية شيئاً دخيلاً. كما لا

ينبغي إخفاء ما تبين من مفاهيم قرآنية، تحت أية غاية، ولو كان بغرض الدفاع عن القرآن. وقد سلك هذا بعض المفسِّرين، حيث عمدوا إلى إخفاء بعض المفاهيم حتى لا تعاب على القرآن، أو تكون مورد إحراج لهم، وهم يتصورون أنهم يحسنون صنعاً، كما هو الشأن في موضوع تعدُّد الزوجات، والطلاق، والربا، فعمدوا إلى تأويلها بما يرضي مخالفيهم، وهم في حقيقة الأمر إنما أبطلوا مفاهيم قرآنية. وللإشارة فإن الاستفادة من السنة، أو اللغة، أو العقل، في شرح وتبيين المعاني، مع وجود قرينة؛ لكي تكون شاهداً على المتن القرآني، ضروري في التفسير الموضوعي. ولا ينبغي أن يتعدى استعمالها هذه الموارد، لأنها حينها سوف تصبح عنصراً مكوِّناً للنظرية، وتصبح لها الموضوعية؛ لأن الغرض من التفسير الموضوعي هو استخلاص نظرية قرآنية في ما يخص موضوعاً من مواضيع العصر والمرحلة. ففرقٌ كبير بين أن تبحث عن العلم في القرآن وأن يكون الموضوع هو العلم في القرآن والسنّة، وقد يأتي الموضوع في البحث عن العلم بشكل مطلق، حيث يكون البحث في القرآن، ثم في السنة، ثم في مباحث أخرى، كالتاريخ، والفلسفة، ومصادر أخرى[٣٧].

ب ـ استبعاد القرآن والاشتغال بأمور أخرى: وهو أن يستغرق المفسِّر في توسيع الموضوع بحيث يجري وراء أمور هامشية، ممّا يجعله يخرج عن إطار التفسير الموضوعي، ويجعل الاستفادة من القرآن قليلة تكاد تظهر أو لا تظهر في الصورة العامة للتفسير. ولعل السبب في ظهور هذا الأسلوب هو محاولة مسايرة الركب، والظاهر أنها تجد قبولاً عند بعض الشرائح العصرية أو المعصرنة، وتظهر هذه الدراسات تحت عناوين، مثل: «الدراسات القرآنية»، و«حول القرآن». وقد انجرّ وراء هذا الأسلوب علماء قدامى، مثل: الفخر الرازي، وحديثاً: الشيخ الطنطاوي، وقد قيل حول تفسيرهما: «فيهما كل شيء إلا التفسير». وهناك موارد أخرى ابتُليت بما ابتُلي به الأخيرين، مثل: عباس العقاد في (الإنسان في القرآن)، وعفيف طبارة في كتابه (اليهود في القرآن)[٣٨].

ج ـ الاستعجال في استخلاص النظرية، وعدم التزام الدقة: لابدّ للمفسِّر وفق التفسير الموضوعي من التزام الدقة حين استخلاص النظرية القرآنية حول موضوع من

المواضيع، ولا ينبغي أن يتسرع ولا يراعي الدقة في تجميع الآيات الموحدة في موضوعها أو المرتبطة بشكل من الأشكال بنفس الموضوع، ليصدر حكماً أو يبني أحد الأصول على ما توصل إليه؛ لأن استقراءه للآيات سيكون حينئذ استقراءً ناقصاً، وبالتالي سيكون الحكم مبتوراً، وتكون النظرية خاطئة بالتبع؛ لأنها لم تنطلق من جميع الشواهد، الأمر الذي يجعلها ناقصة من المنشأ. وقد وقع في هذا المسلك الخاطئ العديد ممَّن اشتغل في حقل التفسير الموضوعي، ونذكر على سبيل المثال: ابن فارس في كتابه (الإفراد)، حيث قال: في القرآن أينما أتت كلمة «برّ» و«بحر» فالمراد بالبحر الماء والمراد بالبر الثرى، إلا في قوله تعالى: ﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ**﴾ (الروم: ٤١)، حيث المراد بالبرّ البرية والعمران. ونظراً لكون استقرائه للمفردة لم يشمل جميع الآيات فقد استخلص نظرية خاطئة، وحمّلها للقرآن، وبدل أن يعالج أمراً فقهياً طرح إشكالات جديدة، فمثلاً: في قوله تعالى: ﴿**أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً**﴾ (المائدة: ٩٦) لا شكّ أن حكم المجال الجوي هنا داخل تحت حكم الحرمة، فالمحْرِم بالحج إذا اصطاد طيراً في الهواء فقد وجبت عليه الكفّارة، ولكن وفق نظرية ابن فارس فلأنّ الصيد لم يكن على الثرى فلا كفارة عليه. كذلك أخطأت نظرية مَنْ قال: إنه كلما جاء لفظ «قليل» في القرآن فهو يعنى أقلّ من عشرة. وهذا الاستنتاج الخاطئ وقع بلحاظ الاستقراء غير التام لجميع الآيات القرآنية التي جاء فيها هذا اللفظ، والتسرع في استخلاص النظرية، من دون مراعاة شروطها ضمن التفسير الموضوعي. فإذا كان لفظ «قليل» يعني أقل من عشرة فما هو الجواب بالنسبة لقوله تعالى: ﴿**وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**﴾ (سبأ: ١٣)؟ فهل نطبق هنا هذه النظرية؟! فلو كان المقصود بالقليل في الآية الأنبياء والرسل وحدهم، دون المؤمنين من باقي العباد والصالحين، فإن الواقع والوثائق التاريخية والنصوص الدينية تؤكد أنهم أكثر من عشرة أضعافاً مضاعفة[٣٩].

د ـ عدم الاعتناء بخصوصيات القرآن: فالمفسِّر حين يغفل خصوصيات القرآن ولا يضعها نصب عينيه حين استخلاص النظرية القرآنية فإن الخطأ والاشتباه سيرافقه في تحديد القواعد، وإعلان الحقائق القرآنية. ومن الخصوصيات الأساسية التي حاول

بعض المفسِّرين طرحها في هذا الميدان:

١ـ إن القرآن هو الأصل التامّ لجميع العلوم.

٢ـ إن القرآن في نهاية الإحكام والإتقان.

٣ـ القرآن خالٍ من الزيادة والتكرار.

٤ـ القرآن كتاب لهداية البشرية.

٥ـ القرآن لا يحتمل فيه الخطأ مطلقاً.

٦ـ بيانات القرآن مبنية على الحقّ، ولا شيء غيره.

٧ـ إن مجازات القرآن لا تشبه المجازات في غيره؛ لأنها مبنية على الصدق.

٨ـ ليس بين ألفاظ القرآن ترادف[٤٠].

الهوامش

(١) تقارير درس الأستاذ محمود رجبي، مؤسسة الإمام الخميني للتعليم، ١٣٨٤.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) عبدالستار فتح الله سعيد، المدخل إلى التفسير الموضوعي، القاهرة، كلية أصول الدين، ١٤٠٦هـ.
(٤) المصدر السابق: ٥٩.
(٥) تقارير الأستاذ محمود رجبي.
(٦) صلاح عبدالفتاح الخالدي، التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: ٦١، الأردن، دار النفائس.
(٧) المصد السابق: ٦٢.
(٨) عبدالستار فتح الله سعيد، المصدر السابق: ٦٠.
(٩) المصدر السابق: ٦١.
(١٠) المصدر نفسه.
(١١) كامران إيزدي مباركه، شروط وآداب تفسير ومفسّر: ١٥، طهران، أمير كبير، ١٣٦٧.
(١٢) تقارير درس الأستاذ محمود رجبي.
(١٣) المصدر نفسه.
(١٤) محمد علي رضايي إصفهاني، درسنامه روش ها وگرايش هاي تفسيري: ٤٩٠، قم، مركز العلوم الإسلامية العالمي، ١٣٨٢.
(١٥) أبو طالب محمدي، منابع وروش هاي تفسير موضوعي پژوهش هاي قرآني، العدد ٧ ـ ٨: ١٦٧.
(١٦) عبدالستار فتح الله سعيد، المصدر السابق: ٦٣.

(١٧) أبو طالب محمدي، المصدر السابق: ١٦٨.
(١٨) المصدر نفسه، بالنقل عن: محمد خزعلي، أحكام القرآن.
(١٩) عبد الرزاق نوفل، القرآن والعلم الحديث: ١٥٥، بيروت، دار الكتاب العربي.
(٢٠) يد الله سحابي، خلقت إنسان: ٧، طهران، شركة الأسهم.
(٢١) جعفر السبحاني، منشور جاويد ١: ٢١، ط فرهنگ.
(٢٢) أبو طالب محمدي، المصدر السابق: ١٦٩.
(٢٣) المصدر نفسه، بنقل عن: فهد بن عبد الرحمن الرومي، منهج المدرسة العقلية: ١٢٧.
(٢٤) محمد عبده، الإسلام والنصرانية: ٧٢.
(٢٥) محمد رشيد رضا، تفسير المنار ٥: ٢١٢.
(٢٦) فهد بن عبدالرحمن الرومي، المصدر السابق: ٤٠٢.
(٢٧) سيد قطب، ويژگي هاي أيديولوژي إسلامي: ٦٢، ترجمه: السيد محمد خامنه إي، طهران، كيهان.
(٢٨) تقارير درس الأستاذ محمود رجبي.
(٢٩) السيد محمد باقر الصدر، المدرسة القرآنية: ٢٦.
(٣٠) المصدر السابق: ٢٢.
(٣١) عبد الله جوادي آملي، تفسير موضوعي ١: ٧٤، قم، إسراء.
(٣٢) محمد باقر الصدر، المصدر السابق: ٢٣١.
(٣٣) ناصر مكارم الشيرازي وآخرين، پيام قرآن: ١٩.
(٣٤) عبد الله جواد آملي، المصدر السابق ١: ١٢٩.
(٣٥) الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن ٢: ٣١٤.
(٣٦) السيد إبراهيم سجادي، «شكوفايي تفسير موضوعي...»، پژوهش هاي قرآني، العدد ٧ ـ ٨ (خريف وشتاء سنة ١٣٧٥): ١٤٢.
(٣٧) عبدالستار فتح الله سعيد، المصدر السابق: ٦٧.
(٣٨) المصدر السابق: ٧٣.
(٣٩) المصدر السابق: ٧٤.
(٤٠) المصدر السابق: ٧٨.

أطروحة (مجتمعنا) في تراث الصدر

الدواعي، المنهج، النتائج

السيد منذر الحكيم(*)

أ. عذرا شالباف(**)

١. القرآن الكريم كتاب المجتمع الإنساني

الإسلام دين الإنسانية، ونظامها الشامل لهذه الحياة، شمولاً يربط كلّ جوانب الحياة بعضها ببعض ربطاً عضوياً منطقياً ينطلق من واقع الحياة الإنسانية، ومكوّناتها الأساسية، وحاجاتها الحقيقيّة، بشتى مستوياتها، وبما يتناسب مع تطلعات الإنسان في هذه الحياة وسواها من مراحل الحياة الأخرى.

ونظراً إلى الكينونة الاجتماعية التي ينطوي عليها الإنسان منذ أن فطره الله وبرأه، ونظراً إلى أنه يولد اجتماعياً، كان الإسلام دين المجتمع كما هو دين الفرد، وكان القرآن كتاب المجتمع الإنساني كما هو كتاب كلّ فرد من أفراد هذا المجتمع بلا استثناء.

والمصطلحات الاجتماعية التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، وهكذا الظواهر الاجتماعية، والرؤية الاجتماعية لكلّ مرافق الحياة، والمذهب الاجتماعي، وتاريخ المجتمعات، ومستقبل المجتمع الإنساني، كلها مظاهر مؤكّدة للنهج الاجتماعي والاتّجاه الاجتماعي الذي سلكه القرآن الكريم في سوره وآياته، رغم تعرّضه لخصائص الفرد وذاتياته التي يتميز بها كلّ واحد منّا.

(*) أستاذ الدراسات العليا في جامعة المصطفى صلى الله عليه وآله العالمية.

(**) ماجستير فرع الاجتماع في جامعة طهران، وطالبة دكتوراه.

ومن هنا كان القرآن الكريم أول مصدر إسلامي يتصدى لبناء مجتمع إنساني على أسس علمية، وقيم رسالية، ونظرية واقعية أرسيت قواعدها ومعالمها في آيات الكتاب الإلهي الخالد، وإنْ كانت هذه النظرية بحاجة إلى استخراج واستخلاص، كما هو دأب القرآن الكريم في عرضه لرؤيته ومنهجه في كلّ مرافق الحياة وشؤونها.

٢. المنهج القرآني في عرض مفاهيم الإسلام ونظرياته

لقد جاء القرآن الكريم لهداية الناس جميعاً، وتربيتهم، وتثقيفهم، وتعاملهم في ظلّ بناء مجتمع إنساني متميز بالحيوية والإبداع والسمو المستمر في طريق الكمال الإنساني المنشود.

ولم تنزل آياته دفعة واحدة، بل نزلت متدرجة، وانتظمت في سور بلغت المائة والأربع عشرة. وقد تضمنت السور والآيات مبادئ القرآن، وأصوله، ومفاهيمه، ونظرياته، ونظامه.

وفي الوقت الذي تكون آياته بينات، ومبينات، وتبياناً لكلّ شيء، وفرقاناً للحقّ من الباطل، تجدها تتضمَّن المحكم والمتشابه أيضاً.

وهي مفرّقة بشكل خاص يتناسب مع منهجه في هداية الإنسان إلى بناء المجتمع الإنساني الإسلامي المنشود، الذي حثّ القرآن على إيجاده، وعنونه بالأمة الوسط، وبمجتمع المتقين العابدين، ووعد الأمم كلّها بتحقُّقه في نهاية المطاف.

ومن هنا كانت الحاجة ماسّة لفهم المنهج القرآني في عرض مبادئ الإسلام، ومفاهيمه، وقيمه، ونظرياته.

كما تكون الحاجة ماسّة إلى معرفة المنهج الصحيح للوصول إلى نظريات القرآن، ونظمه التي تميز بها، وشكل بذلك منعطفاً مهمّاً في رسالات السماء، وفي ما جعله القرآن في عهدة الرسول الخاتم وآله الأصفياء الأمناء على وحيه ورسالته.

٣. أهل بيت الرسالة وبناء المجتمع الإنساني النموذجي

إن الرسول الأعظم هو زعيم أهل بيت الرسالة وسيدهم وكبيرهم، الذي تلقّى

القرآن الكريم من لدن حكيم عزيز حميد، ووعاه وعياً تامّاً، ونقله إلى حيز التنفيذ، فبنى على نظريته وأسسه معالم المجتمع الإنساني النموذجي، وأخذ يتدرج في إعداد تفاصيله، ويبثّ فيه روح الوحي الرسالي، ويؤصّل فيه القيم الرسالية، التي تجعله مجتمعاً متميِّزاً فريداً من نوعه، متّجهاً نحو الكمال المطلوب له.

قال الله سبحانه وتعالى، مبيِّناً هذا الاتّجاه نحو الكمال المطلوب: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً**﴾ (البقرة: ١٤٣).

وقد أوكل الرسول الأعظم ـ بأمر من الله تعالى ـ مهمة إكمال بنائه إلى سائر القادة الهداة من أهل البيت، الذين استأمنهم على رسالته وأمته ودولته[١]، فقاموا بتبيين هذه النظرية القرآنية وتفسيرها ورسم تفاصيلها[٢]، كما قاموا بالممارسة الميدانية الصعبة، رغم حراجة الظروف ومعاكستها للاتّجاه الذي أرسى الرسول الأعظم قواعده ومنهجه، فكان تراثهم غنياً، وكانت سيرتهم تحتلّ الموقع الأول، وتمثّل الريادة الكاملة في هذا المضمار[٣].

ويكفينا للاستشهاد على هذه الدعوى مطالعة ما حبّرته يراعة العالم الفذّ الشهيد السيد محمد باقر الصدر رحمه الله في كتبه القيمة التالية: (الإسلام يقود الحياة)، (المدرسة القرآنية)، (المدرسة الإسلامية)، ومجموعة محاضراته حول أهل البيت، وكذلك ما كتبه تلميذه، الذي سار على منهجه العلمي والقرآني السيد الشهيد محمد باقر الحكيم رحمه الله في كتابيه الجليلين: (المجتمع الإنساني في القرآن الكريم)، و(دور أهل البيت في بناء الجماعة الصالحة)، حيث تكشف هذه الكتب عن الاتّجاه الذي سلكه أهل البيت عليهم السلام في مجال تطبيق النظرية القرآنية بشكل كامل ودقيق، والسعي الحثيث لتنفيذها وتحقيقها تحت رعايتهم المباركة.

٤. عقبات في طريق البناء الاجتماعي المنشود

لقد كان طبيعياً جداً أن تبقى ترسّبات الثقافة الجاهلية عالقة في أذهان جملة ممَّن اختار الإسلام ديناً ومنهجاً للحياة بعد أن عاش ردحاً من الزمن في أحضان الجاهلية وبراثن الشرك.

كما كان تحرير المجتمع الإسلامي الأوّل الفتيّ من هذه الرواسب الجاهلية يتطلّب زمناً طويلاً نسبياً، كما يتطلّب قيادة ميدانية مشبعة بقيم الرسالة الربانية، الخاتمة لما سبق، والفاتحة لما استقبل من عصر جديد، وأجيال جديدة تريد تحرير العالم الإنساني من براثن الجهل والكفر والنفاق.

غير أن تهميش القيادة الرائدة الرشيدة، التي تركها الرسول الأعظم ذخراً زاخراً ونبعاً صافياً للأمة من بعده، والمتمثّلة في أئمّة أهل البيت، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، قد أدى إلى افتقاد أهم شرط لإزالة هذه الرواسب الثقافية؛ لأنهم حينئذ كانوا قد افتقدوا الموقع الطبيعي الذي يمكّنهم من إيصال ثقافتهم ووعيهم إلى العالم الإسلامي أجمع، بشكل طبيعي، وبدون صعوبات وقلق وتوتّر.

فكانت الخطى بطيئة ومتعثّرة؛ بسبب الموانع التي استحدثت في عصر الخلفاء والحكّام الذين أمسكوا بالسلطة، وكانوا يحملون معهم الغثّ والسمين من رواسب الماضي، إلى جانب ثقافة الدين الجديد. فكان ما يتعرّف عليه الناس باسم الدين خليطاً غير منسجم وغير مثمر على المدى البعيد، ولاسيما إذا لاحظنا الضغوط التي مارسها الحكام في حقّ أهل بيت الرسالة الذين تلألأ نورهم وصفاؤهم، وغطّى واقعهم كلّ واقع، وموقعهم الرسالي كلّ موقع احتلّه مناوئوهم، ومَنْ لم يحبّ أن يسير في ركبهم، ويركب سفينتهم، التي وصفها الرسول الأعظم بأنها كسفينة نوح[٤].

وقد رافق كلّ ذلك ورود ثقافات شتّى من شرق الأرض وغربها إلى الحاضرة الإسلامية، والاختراق أو الاختلاط الخطير بها، قبل أن تترسخ مفاهيم القرآن والرسالة الجديدة، وتتجذّر بشكل يمنع من المضاعفات الناشئة من هذا الاختراق.

أضِفْ إلى كلّ ذلك ممارسات مَنْ لم يرُق له أن يعلو شأو الإسلام من داخل الحاضرة الإسلامية وخارجها، ممَّنْ ضُربت مصالحهم بتأسيس الدولة النبوية، وافتقدوا أهمّ المواقع السياسية والاجتماعية التي كانوا يفكرون في الوصول إليها، ولم يستطيعوا الحصول على الموقع المطلوب ضمن الصياغة الجديدة للمجتمع الإنساني الإسلامي.

وهكذا أخذ المجتمع الإسلامي يتدحرج بالتدريج، وبشكل تنازلي، حتى بان

الانهيار على الدولة التي كانت تحكم باسم الرسول، وخضعت بالتدريج للتفتيت، الذي جرّه إليها التمادي في الممارسات الظالمة[٥].

نعم، هكذا تمهّد الطريق للمستعمر الكافر ليغزو بكلّ ما أوتي من حول وقوة بلاد المسلمين، ويسرح فيها ويمرح، ويوظّف كلّ الطاقات ويسخّرها لخدمته، ويعمل بكلّ جدّ على تجريد المسلمين من هويتهم، والمجتمع الإسلامي من استقلاله وأصالته.

وفي هذا الظرف بالذات برز رجال من أعلام المسلمين ليقودوا حركة المقاومة ضد الانهيار والانبهار بالآخر في كلّ حقولها. فكان السيد جمال الدين الأسدآبادي، المعروف بالأفغاني، والشيخ محمد عبده، وعبدالرحمن الكواكبي، وعمر المختار، والميرزا حسن الشيرازي، والآخوند الخراساني، والميرزا حسين النائيني، والسيد عبد الحسين شرف الدين، والسيد محسن الأمين، والشيخ محمد جواد البلاغي[٦]، والإمام روح الله الخميني، وتلامذته، والعلامة الطباطبائي، وتلامذته، والشهيد السيد محمد باقر الصدر، وتلامذته، الذين تصدّوا ـ ضمن شريحة كبيرة من علماء مدرسة أهل البيت ـ للتيارات الفكرية المدمّرة، وناجزوا السياسة الاستعمارية المتغطرسة، ولا زالوا يكافحون؛ من أجل أن تستردّ الأمة هويتها، ويستردّ العالم الإسلامي الهوية الحقيقية له، تلك الهوية التي تميزه ممَّنْ سواه.

٥. المجتمع الإسلامي المنشود

١. ما هو المجتمع الذي يريده الإسلام للإنسان؟

٢. وما هي الأسس النظرية التي يرتكز عليها هذا المجتمع الرائد؟

٣. وما هي معالمه، وخصائصه، وآفاقه؟

٤. وما هي الخطوات العلمية والعملية التي ينبغي اجتيازها للوصول إليه؟

هذه هي الأسئلة الأساسية التي لا بدّ من الإجابة عنها؛ للوصول إلى (مجتمعنا)، المجتمع الإسلامي المنشود، بعد اختيار المنهج الصحيح لاكتشاف النظرية الاجتماعية، ثم النظام الاجتماعي، من نصوص القرآن الكريم.

إن النقطة الأهم، والتي تشكل البنية التحتية للبحث الاجتماعي هي: النظرية الاجتماعية القرآنية.

ويترتب عليها صرح البنية الفوقي وهو: النظام الاجتماعي الإسلامي كما رسمه القرآن الكريم.

ولا بدّ للبحث عن كلّ منهما من منهج يتناسب مع طبيعة المهمة؛ لاكتشاف (النظرية)، واكتشاف (النظام). كما لا بدّ من تحديد المفاهيم ذات العلاقة، وفرز النصوص القرآنية ذات العلاقة بكلّ بحث، والمصادر التي اهتمّت بهذين الأمرين الحيويين.

٦. النظرية الاجتماعية القرآنية لدى الشهيد الصدر

وتتلخص النظرية الاجتماعية التي عرضها القرآن الكريم، وبنى عليها نظامه الاجتماعي للإنسان، بنظرية الاستخلاف، التي لخّصها السيد محمد باقر الصدر في ما عنونه بـ «خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء»[٧].

وهي نظرية الخلافة الإلهية، أو نظرية استخلاف الله للإنسان تحت رعاية الأنبياء المعصومين والقادة الهداة المنتجبين، وهي نظرية اجتماعية تتقاطع مع النظريات الأخرى التي تعطي للإنسان الأصالة، والاستقلال عن خالقه وباعثه ومربّيه ومدبّر أموره ورازقه والمنعم عليه بكلّ شيء.

والغور إلى أعماق هذه النظرية وأبعادها وآثارها وأدلتها يتطلّب البحث عن:

١. حقيقة المجتمع وظاهرة الاجتماع الإنساني.

٢. عناصر المجتمع.

٣. العلاقات في ما بين هذه العناصر، وما يترتّب على ذلك من أوضاع وأحوال وخصائص تتطلّب مجموعة من القوانين والضوابط، التي تقوم بترشيد هذه العلاقات وتوجيهها، لبلوغ المجتمع الإنساني الأهداف المنشودة من تكوينه بشكل خاصّ، وتكوين الإنسان بشكل عام.

ومن كلّ هذه القوانين والضوابط العامّة التي تغطي كلّ مرافق الحياة

الإنسانية يتألف النظام الاجتماعي الإسلامي الإنساني، مرتكزاً على نظرية الخلافة، محققاً أهدافها، ومتطلّعاً إلى مستقبل الإنسانية الرحب، ومستثمراً كلّ طاقات المجتمع الإنساني وقابلياته الفريدة، التي تتفجر باستمرار من خلال تكريم الإنسان وتهذيبه وتربيته المتكاملة.

٧. كيفية اكتشاف النظرية القرآنية عند السيّد الصدر

إنّ الخطوات التي اتبعت لاكتشاف النظرية القرآنية حسب ما استفدناه من نصوص الشهيد الصدر هي كما يلي:

١. تحديد الموضوع الذي يراد اكتشاف رأي القرآن فيه، ومعرفة عناصره وأجزائه وخصائصه الواقعية.

٢. تحديد الأسئلة التي ينبغي الإجابة عنها من خلال النصوص القرآنية؛ من أجل محاورة النصوص واستنطاقها من خلال هذه الأسئلة.

٣. جمع كلّ النصوص ذات العلاقة بالموضوع المحدّد، سواء كانت متضمّنة لاسم الموضوع أو لمفهومه أو لعناصره أو لسمة من سماته وخصائصه أو لكلّ ما يستلزمه ويرتبط به، بحيث تستطيع أن تلقي الضوء على بيان موقف القرآن من الموضوع، أو الأسئلة التي أثيرت حول الموضوع.

٤. محاولة كشف علاقة كلّ مدلول تفصيلي للآيات والنصوص المجتمعة بالمداليل الأخرى؛ لتوحيد هذه المدلولات جميعاً.

٥. محاولة تركيب المداليل وتنظيمها جميعاً في مركّب نظري واحد شامل، حيث يحتل كلّ واحد من المداليل موقعه المناسب في هذا المركب النظري، واستخراج المفهوم القرآني الذي يمكن أن يحدِّد موقف القرآن تجاه هذا الموضوع المحدَّد.

فالتفسير الموضوعي عند الشهيد الصدر هو محاولة اكتشاف نظرية قرآنية شاملة بالنسبة إلى الموضوع المعين.

والتجربة البشرية تغني التفسير الموضوعي باستمرار، بما تقدمه من مواد تطرحها بين يدي القرآن الكريم؛ ليستحصل المفسِّر على الأجوبة عنها من القرآن.

وهذا هو الطريق للحصول على النظريات الأساسية للقرآن تجاه موضوعات الحياة المختلفة[٨].

وحين تتبّعنا منهج الشهيد الصدر ـ ذا الخطوات الخمس ـ لاكتشاف النظرية الاجتماعية من خلال القرآن الكريم وجدنا أن المناسب تفصيله في نقاط عشر:

١ـ تحديد عناصر المجتمع ومقوّماته.

٢ـ دراسة طبيعة كلّ عنصر، وخصائصه.

٣ـ دراسة أنواع العلاقة بين كلٍّ من هذه العناصر والمقوّمات للمجتمع.

٤ـ دراسة مجموعة العوامل المتحكمة في هذا المركب الاجتماعي وعناصره.

٥ـ جمع النصوص ذات العلاقة بالمركّب الاجتماعي وعناصره.

٦ـ استنطاق النصوص.

٧ـ كشف العلاقة بين مدلولاتها.

٨ـ تنظيم المداليل، وتوحيدها.

٩ـ استخراج النقطة الجوهرية في النظرية.

١٠ـ عرض النظرية بشكلها الفني ضمن خطوط عريضة منسجمة.

والتوفيق بين هذه النقاط العشر والخطوات الخمس حسب ما نقلناه عن الشهيد الصدر كما يلي:

١ـ إنّ الأسئلة الأساسية عنده، التي كان ينبغي إثارتها بعد تحديد الموضوع، هي:

١ـ ما هي عناصر المجتمع البشري؟

٢ـ ما هي أدوار كلّ واحد من هذه العناصر في الحياة؟

٣ـ ما هي العلاقة القائمة بين الخطين المزدوجين لعناصر المجتمع الإنساني، أي خط علاقة الإنسان بالإنسان وخط علاقة الإنسان بالطبيعة؟

٤ـ ما هو دور الإنسان في المسيرة الاجتماعية وحركة التاريخ البشري؟

٥ـ ما هو دور الدين في المسيرة الاجتماعية؟

وقد طرح هذه الأسئلة في محاضراته القيمة التي نشرت تحت عنوان (المدرسة القرآنية). وبهذا حقق الخطوتين الأوليين من الخطوات الخمس.

والخطوة الثالثة هي جمع النصوص واستنطاقها؛ للإجابة عن الأسئلة الخمسة. ونجدها في ما جمعه من نصوص قرآنية متنوّعة[٩].

وفي الخطوة الرابعة ربط مداليلها في مركَّب نظريّ واحد منسجم[١٠].

وكانت الخطوة الخامسة النتائج المترتِّبة على هذه النظرية، المستخلصة من النصوص المتنوعّة ودورها في فهم طبيعة التشريع الإسلامي للحياة. وهذا التشريع الإلهي يمثّل النظام الاجتماعي الإسلامي للإنسان. وهنا يجدر بيان علاقة النظرية الاجتماعية بالخطوط العامة للنظام الاجتماعي.

أما النظام الاجتماعي الإسلامي فهو النظام العادل الذي يأخذ الواقع كله بنظر الاعتبار، وتبعاً لطبيعة العلاقة المزدوجة بين الخطين يكون متكوّناً من بعدين: ثابت؛ ومتحرّك.

كما أنه استخلص أنّ مجتمع الخلافة الربانية هو مجتمع المَثَل الأعلى المطلق، وأن الدور الفاعل هو للإنسان حرّ الإرادة أولاً، وللدين أيضاً الدور الأكبر، حيث يقدّم بحقّ للإنسان مثله الأعلى المطلق، ويهديه إلى الحقّ الحقيق بالاتّباع كما ينبغي ويستحقّ.

٨. أطروحة (مجتمعنا) في تراث الصدر

لقد صرّح الشهيد الصدر بأطروحته لكتابٍ يحمل عنوان (مجتمعنا) في كتابه النفيس (فلسفتنا) ـ الذي عُرف به وذاع صيته من خلاله ـ، قبل أن يذكرها في أيّ كتاب آخر. وإليك نماذج من نصوصه وكلماته، التي زخرت بها كتبه عن أطروحة «مجتمعنا»، وما تتضمن من بحوث وأفكار:

١ـ قال في مقدمة «اقتصادنا»: «إن فلسفتنا هي الحلقة الأولى من دراساتنا الإسلامية، بوصفها دراسة تعالج الصرح الإسلامي الشامخ، الصرح العقائدي للتوحيد، وتتلوها بعد ذلك الدراسات التي تتعلق بالبنيات الفوقية في ذلك الصرح الإسلامي؛ لتكتمل لنا في نهاية المطاف صورة ذهنية كاملة عن الإسلام، بوصفه عقيدة حية في الأعماق، ونظاماً كاملاً للحياة، ومنهجاً في التربية والتفكير.

قلنا هذا في مقدمة «فلسفتنا»، وكنّا نقدّر أن يكون «مجتمعنا» هو الدراسة الثانية في بحوثنا، نتناول فيها أفكار الإسلام عن الإنسان وحياته الاجتماعية، وطريقته في تحليل المركب الاجتماعي وتفسيره، لننتهي من ذلك إلى المرحلة الثالثة، إلى النظم الإسلامية للحياة، التي تتصل بأفكار الإسلام الاجتماعية، وترتكز على صرحه العقائدي الثابت[١١].

٢ـ وفي مقدمة «فلسفتنا»، التي خصَّصها للبحث عن المشكلة الاجتماعية، التي تعتبر مشكلة العالم الإنساني اليوم، وتمس واقعه في الصميم، وقد اعتبرها مشكلة النظام الاجتماعي الذي تصلح به الإنسانية، تعرَّض إلى ثلاثة أمور:

أ ـ تأريخ المشكلة الاجتماعية.

ب ـ كيفية مواجهة الإنسانية للمشكلة الاجتماعية.

ج ـ الحلول المقترحة لها، ومناقشتها.

٣ـ وقال في خاتمة «فلسفتنا»: «...فالحياة الاجتماعية والظروف المادية إذاً لا تحدّد أفكار الناس ومشاعرهم بصورة آلية عن طريق المنبهات الخارجية.

نعم، إن الإنسان قد يكيِّف أفكاره تكييفاً اختيارياً بالبيئة والمحيط...، لكن يجب أن نعلم **أولاً**: إن هذا التكيف يوجد في الأفكار العملية التي وظيفتها تنظيم الحياة الخارجية، ولا يمكن أن يوجد في الأفكار التأملية التي وظيفتها الكشف عن الواقع.

وثانياً: إن تكيف الأفكار العملية بمقتضيات البيئة... هو تكيف اختياري، ينشأ من دوافع إرادية في الإنسان، تسوقه إلى جعل النظام المنسجم مع محيطه وبيئته... وسوف ندرس في «مجتمعنا» طبيعة هذا التكيّف وحدوده في ضوء مفاهيم الإسلام عن المجتمع والدولة؛ لأنه من القضايا الرئيسية في دراسة المجتمع وتحليله»[١٢].

٤ـ وقد أشار في خاتمة «فلسفتنا» إلى ما ينبغي بحثه في النظرية الاجتماعية الإسلامية من موضوعات. والمهم أنه عالج هذه النقطة في ما عرضه في أواخر أيام حياته المباركة ضمن محاضرات قيمة سُمِّيت بـ (المدرسة القرآنية)، والتي تضمَّنت بحثين مهمين: **ثانيهما**: بحث عناصر المجتمع؛ **وأوّلهما**: بحث السنن التاريخية أو السنن الاجتماعية.

٥ـ وقد أضاف إلى ما جاء في مقدمة «فلسفتنا» جملة من البحوث الاجتماعية في ما نشره بعد صدور «فلسفتنا» تحت عنوان: «المدرسة الإسلامية (١)»، وحمل عنوان «الإنسان المعاصر والمشكلة الاجتماعية»، و«المدرسة الإسلامية (٢)»، الذي حمل عنوان: «ماذا تعرف عن الاقتصاد الإسلامي؟».

٦ـ وقد أكمل رؤيته الاجتماعية، وقدم جملة من النظم الإسلامية للحياة، من خلال السلسلة التي كتبها إبّان انتصار الثورة الإسلامية في إيران بقيادة الإمام الخميني، وصدرت تحت عنوان «الإسلام يقود الحياة».

وسلسلة «الإسلام يقود الحياة» هي عبارة عن مجموعة بحوث ذات أجزاء ستة:

الأول: يتضمن لمحة فقهية عن مشروع دستور الجمهورية الإسلامية. وهي محاولة لبيان نظام الحكم الإسلامي في خطوطه العريضة في عصر الغيبة.

والثاني والثالث: احتويا على خطوط عريضة وخطوط تفصيلية لاقتصاد المجتمع الإسلامي، بعد بيان روح النظرية الاجتماعية للإسلام، وأن المجتمع الإنساني هو مجتمع الخلافة الربانية ذات المداليل الإنسانية الفريدة.

والرابع: اختص ببيان الخطوط العريضة للنظام الاجتماعي الإسلامي، والنظرية السياسية في هذا النظام، مركّزاً على «نظرية خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء»، مع بيان أدلتها، وفلسفتها، والصورة الواقعية لتنفيذها.

الخامس: اهتم ببيان منابع القدرة في الدولة الإسلامية، وهي مجموعة قدرات هائلة تتميز بها الدولة الإسلامية في مجال التطوير الحضاري للأمة، والقضاء على التخلف في الواقع المعاش.

السادس: بحث الأسس العامة لإنشاء بنك إسلامي في المجتمع الإسلامي.

٧ـ وقد اهتم أيضاً ببيان مجموعة من الرؤى الاجتماعية للإسلام ضمن كتابه القيم «اقتصادنا»، حين ناقش فيه النظريات والنظم الاقتصادية الرأسمالية، والاشتراكية، والشيوعية. واهتم فيه ببيان الأرضية الثقافية والاجتماعية لاقتصاد المجتمع الإسلامي[١٣].

٨ ـ وفي مقدمة «الفتاوى الواضحة»، في بحث «الرسالة»، نلاحظ رؤيته

الاجتماعية للإسلام ناصعة وواضحة.

٩ـ وفي خاتمة «الفتاوى الواضحة» نقف على ضرورة ارتباط الإنسان بالمطلق، ودور الدين في تحقيق ذلك، وبيان قدرته على حلّ المشكلة الاجتماعية.

١٠ـ وقد قدَّم لنا الشهيد الصدر صورة عن مجتمع الرسول الأعظم في كتبه ومقالاته التالية: بحث حول الولاية؛ فدك في التاريخ؛ أهل البيت: تنوع أدوار ووحدة هدف؛ مقدمته للصحيفة السجادية. وفيها جميعاً إضاءات على رؤيته الاجتماعية عن الإسلام، وكيفية تطبيق النظام الإسلامي في واقع الحياة العملية في عصر الرسول وبعده. كما نجد مجموعة إضاءات مهمة حول مجتمع الرسول في بحث «منابع القدرة في الدولة الإسلامية» من سلسلة «الإسلام يقود الحياة».

١١ـ وفي كتابه الفريد «بحث حول المهدي» تقف على الرؤية المستقبلية للمجتمع الإسلامي في عصر ظهور الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف وتأسيس دولة العدل الشامل إن شاء الله تعالى.

٩. الخطوط العامّة لأطروحة (مجتمعنا) في تراث الشهيد الصدر

وهكذا نلاحظ أن أستاذنا الشهيد السعيد السيد محمد باقر الصدر قد حمل معه هموم البحث عن المجتمع الإسلامي طوال ثلاثة عقود أو أكثر من عمره المبارك. وقد ركز في كلّ نشاطاته العلمية: التأريخية، والفلسفية، والاقتصادية، والفقهية، على بلورة ما يلي:

١ـ المشكلة الاجتماعية المعاصرة.

٢ـ أسباب وجذور المشكلة الاجتماعية في أعماقها البعيدة.

٣ـ النظرية الاجتماعية الإسلامية، وعرضها، من خلال القرآن الكريم.

٤ـ النظام الاجتماعي الإسلامي.

وقد حاولنا في كتاب «(مجتمعنا) في فكر وتراث الشهيد السيد محمد باقر الصدر» عرضها وبلورتها بنصوص الشهيد الصدر المتناثرة في كتبه وتراثه، تاركين البحث عن (مجتمعنا) في مدرسته إلى فرص لاحقة إن شاء الله تعالى.

١٠. فصول الكتاب ومنهجه ــ

يتصدّر الكتاب بحثان تمهيديان عن أبعاد شخصية الشهيد الصدر لتلميذين من تلامذته: **أوّلهما**: الشيخ محمد على التسخيري؛ **والآخر**: كاتب هذه السطور.

ثم يتكفَّل المدخل ببيان رسالة الكتاب، وأطروحة (مجتمعنا) في تراث الشهيد الصدر.

ثم يبدأ الفصل الأوّل ببيان المصطلحات ذات العلاقة بالبحث، وتحديد مفاهيمها، مثل: المجتمع، وعلم الاجتماع، والنظام الاجتماعي، والنظرية الاجتماعية، وموقف الشهيد الصدر منها، وضرورة ومنهج اكتشاف النظرية الاجتماعية من القرآن الكريم لدى الشهيد الصدر، ثم الخطوط العريضة لأطروحة (مجتمعنا).

وأما الفصل الثاني فتكفّل ببيان المشكلة الاجتماعية للإنسان، متصدّياً لبيان الأسباب والحلول المقترحة في تراث السيد الصدر، وهي: العلم، والنظام الرأسمالي، والماركسية، والإسلام، ثم تقييم هذه الحلول بشكل تفصيلي.

وتكفّل الفصل الثالث ببيان أسس النظرية الاجتماعية القرآنية عند الشهيد الصدر، من خلال الحاجة الفطرية والاجتماعية للدين منذ نشأة المجتمع البشري، وعبر عملية التغيير الاجتماعية، والوقوف عند سنّة الاستخلاف الموضوعية ـ حسب تعبير الصدر ـ، وفهمه الخاص للسنن الاجتماعية، وانتهاءً ببيان أنواع العلاقة بين عناصر المجتمع البشري، ودور فهم هذه العلاقة في فهم أسس النظرية الاجتماعية، والتأسيس لنظرية إسلامية قرآنية متكاملة، تتقوّم بالمثل الأعلى المطلق للإنسان، وهو الله الواحد الأحد في هذه الحياة.

وفي الفصل الرابع تناولنا بشيء من التفصيل مبدأ السنن الاجتماعية، ودورها في تطوّر المجتمع، وإنجازات السيد الصدر المتميزة في هذا الحقل. وفصّلنا الكلام عن ضرورة الاستهداء بمنظومة السنن الاجتماعية في القرآن، وقسّمناها ـ تقسيماً جديداً ـ إلى: سنن الاهتداء؛ وسنن الانحراف؛ وسنن التغيير؛ وسنن الانهيار الاجتماعي.

وأما الفصل الخامس فتكفّل بالبيان التفصيلي المتميز للسيد الصدر في النفوذ إلى أعماق المشكلة الاجتماعية، والوقوف بتأمل عند الحلول القرآنية المستفادة من

تراث السيد الصدر. وانتهينا إلى عشرة أدوار للدين الحق، بإمكانها أن تقوم بتطوير الإنسان الفرد والمجتمع الإنساني في هذه الحياة.

وبعد هذه الجولة التفصيلية في الجذور والأعماق اختصّ الفصل السادس ببيان مضمون النظرية الاجتماعية في القرآن، وأبعادها، ومداليلها، ومسار خطّيْ الخلافة والشهادة على الأرض، ثم المنجزات والنتائج، متمثّلة في أبعاد التغيير الذي أحدثه الإسلام والقرآن في المجتمع الإنساني، ثم الانتهاء إلى ضرورة ابتناء كل رؤية فقهية للإسلام على هذه النظرية الاجتماعية القرآنية، وبالتالي التطلّع إلى مستقبل هذه الرؤية والواقع المبتني عليها، ودور الجمهورية الإسلامية الطليعي والتمهيدي لدولة الحق والعدل المرتقبة بقيادة الإمام المعصوم المنتظر. ومن هنا، وبعد تطواف طويل، لزم أن نقف عند أهم نتائج هذه الأطروحة الصدرية المتميزة، وهي:

نتائج ورؤى ـــ

١ـ لقد كان الهدف من «مجتمعنا في تراث الشهيد الصدر» الإلمام بنصوصه التي وجدناها في تراثه، والتي كان يمكن توظيفها لفهم النظرية الاجتماعية عند الشهيد الصدر، والتي استنتجها واستنبطها من خلال نصوص القرآن الكريم. فهي نظرية اجتماعية قرآنية.

٢ـ وهذه النظرية ذات جذور عميقة في واقع الوجود الإنساني، ومرتكزة على النظام التكويني للخالق الحكيم. فهي النظرية الوحيدة التي تنسجم مع النظام الكوني وطبيعة الإنسان الاجتماعية من جهة، ومع هوية الكون وهوية الإنسان التي تتجلى فيها الإرادة الإلهية من جهة أخرى.

٣ـ وكلّ نظرية سواها تتصف بالابتعاد عن الواقع، وعدم ملاحظة كلّ أبعاد الواقع أو إغفالها، ممّا يسبب الانفصام بين النظام الاجتماعي المترتّب على هذه النظرية وبين الواقع الاجتماعي للإنسان.

٤ـ إن نظرية الاستخلاف الإلهي للإنسان، التي عرضها الشهيد الصدر تحت عنوان «خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء»، بالرغم من تأكيدها على الاستخلاف

يمكن تقديم عدّة صور لها.

والصورة التي قدمها أستاذنا السيد الصدر قد أخذ فيها كلّ نصوص القرآن بنظر الاعتبار، فجمع بين الاستخلاف العام وبين الاستخلاف الخاص، الذي عبّر عنه بشهادة الأنبياء، ورتّب على ذلك موقعاً طبيعياً للخلافة العامة، وأعطى بموجبها دوراً حقيقياً للإنسان غير المعصوم، كما أعطى للمعصوم أو نائبه دوراً حقيقياً أيضاً في النظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي الإسلامي.

٥ـ أما دستور الجمهورية الإسلامية، الذي أعطيت فيه القيادة العامة للولي الفقيه في عصر غيبة الإمام المعصوم؛ صوناً لحركة الأمة من سيطرة الاستغلال والاستبداد عليها، فهو صورة مقترحة راقية لتطبيق النظرية ضمن نظام قابل للتنفيذ، ومنسجم مع طبيعة العصر الذي ترتفع فيه الأعلام وشعارات الديمقراطية. وقد فتحت الجمهورية الإسلامية أوسع أبواب الحرية في وجه شعبها، وأعطته المجال الواسع لممارسة الخلافة بشكل لم نجد له مثيلاً في سائر الأنظمة الديمقراطية.

٦ـ لقد دخل الإسلام ـ بعد التقنين والممارسة الميدانية لأحكامه ونظمه في دولة مستقلة ـ حلبة الصراع الدولي والعالمي، سياسياً، وثقافياً، وأصبح محوراً أساسياً للحركة الثقافية والسياسية للعالم الإنساني، وأخذت خطى الشعوب الواعية تقترب لإحلال العدالة الاجتماعية في العالم، ولملمة بساط الظلم والجور، وتهيئة الأجواء العالمية لثورة عارمة ضد الظلم والظالمين والطغيان والطغاة. ونحن على أعتاب فتح عالمي كبير.

٧ـ تأتي مرحلة الفتح الشامل والانتصار الكامل للنظرية الاجتماعية الإسلامية والنظام الاجتماعي الشامل حين يستقرّ العدل في كلّ جوانب الحياة الإنسانية، وينحسر الظلم من كلّ أبعاد الحياة الإنسانية، فردية واجتماعية. وهذه هي المرحلة التي بشّر بها رسول الله للإنسانية، حين بزغت شمس الإسلام في دياجير الظلم والشرك، في قوله تعالى: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً**﴾.

الهوامش

(١) انظر: السيد الصدر مجموعة محاضرات (أهل البيت، تنوع أدوار ووحدة هدف).
(٢) انظر للتفصيل: السيد محمد باقر الحكيم، دور أهل البيت في بناء الجماعة الصالحة.
(٣) انظر تفاصيل هذه الظروف الصعبة، والإنجازات الكبيرة، في الدراسة الميدانية التاريخية التي طبعت تحت عنوان (موسوعة أعلام الهداية)، في (١٤) مجلداً، للسيد منذر الحكيم، نشر المجمع العالمي لأهل البيت .
(٤) فقد صحّ عن رسول الله قوله عن أهل بيت الرسالة أنّ مثلهم كمثل سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلّف عنها غرق (انظر: مصادر ونصوص الحديث في الصحاح والمسانيد، وانظر: مستدرك الحاكم على الصحيحين ٤ : ١٣٢ ـ ١٣٣، ح ٤٧٤٧؛ والمعجم الأوسط للطبراني ٦: ٤٠٦، ح ٥٨٦٦.
(٥) كما هي سنّة الله في الحياة، قال تعالى: ﴿وَيُضِلُّ اللّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللّهُ مَا يَشَاء﴾ (إبراهيم: ٢٧) ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً﴾ (الكهف: ١٧). وانظر: أهل البيت، تنوّع أدوار ووحدة هدف.
(٦) انظر: السيد منذر الحكيم، عصر الإمام شرف الدين وعصر الإمام البلاغي.
(٧) انظر: السيد الصدر، سلسلة (الإسلام يقود الحياة)، التي كتبها وأصدرها في إبّان نجاح الثورة الإسلامية في إيران.
(٨) انظر: المدرسة القرآنية: ٤١ ـ ٤٢، الدرس الثاني.
(٩) كما في الدرسين ٨ و١٣ من المدرسة القرآنية.
(١٠) كما في الدرسين ١٢ و١٣ من المدرسة القرآنية.
(١١) اقتصادنا: ٣٥، طبعة المؤتمر.
(١٢) فلسفتنا: ٤٣٥ ـ ٤٣٦، طبعة المؤتمر.
(١٣) بل إن القراءة الفاحصة قد تفيد الباحث بأن البنية التحتية لكتاب (اقتصادنا) هي الرؤية الاجتماعية. والأفكار التي كان يختزنها الشهيد الصدر عن (مجتمعنا) الذي تكلّم عنه في مطلع وفي خاتمة (فلسفتنا) كانت جاهزة، ولكنه قد وظّفها لكتاب (اقتصادنا). ومن هنا يمكن إعادة بناء كتاب (مجتمعنا) في فكره وتراثه من خلال كتاب (اقتصادنا)، ولا سيما الجزء الأول منه، فإنه حافل برؤاه وأفكاره عن البنية التحتية لأطروحة (مجتمعنا) لديه.